المزيرة

obeikandl.com

الكتاب : المزيرة
المؤلف : علاء محمود
تصميم الغلاف : علاء محمود
تدقيق لغوي : أحمد أسامة
رقم الإيداع : 2015/21726
الترقيم الدولي : 978-977-778-040-7
الطبعة الأولى : 2016

20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة
ت-02-35860372 011-27772007
Noon_publishing@yahoo.com
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

obeikandl.com

المزيرة

رواية لـ

علاء محمود

للنشر والتوزيع

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد

هائمة في تلك الأمسية الخريفية كروحها المثقلة بالشجن. تتحرك مبتعدة لا تعلم إلى أين تقودها قدماها بين دروب المقطم. تائهة- بإرادتها الحرة- بين الشجيرات الهالكة العارية، وبين النسمات الشفيفة الحزينة، التي تشاركها لحظات تعاستها. تتوقف منهكة بعودها النحيل كزهرة رقيقة مبللة بقطرات الندى، وتبحث بعينيها الفيروزيتين الدامعتين عن قطتها الصغيرة، التي أمست تمثل لها كل شيء في هذا العالم البارد.

تجلس فوق صخرة كبيرة أشبه بقلوب البشر الجامدة، وقد أعياها البحث.

تقودها قدماها دائمًا إلى ذات البقعة المهجورة، وكأن هناك شيئًا غامضًا يناديها كي تأتي ليلًا؛ لكن هذه المرة النداء كان مختلفًا، حيث حمل إليها مقاطع حروف اسمها بوضوحٍ شديد "سارة"، ذلك الاسم الذي لا يمت لها بصلة. أين هي من السرور، وماذا تعرف عنه؟ منذ شهور زواجها الأولى لم تعد تشعر بأية مشاعر إلا التعاسة الخالصة، والحزن الدامي. لم يعد اسمها يمت لها بأي حال من الأحوال، ربما تغير إلى تلك اللفظة التي تراها تتقافز من بين نظرات كل من تراهم "عاقر"

الصوت آتٍ من التبة القريبة، من قلب تلك الفجوة المظلمة كقلب زوجها، التي كانت تظنه -لسذاجتها- مليئًا بالحب. تتحرك كالنائمة بخطوات آلية، وعقلها يُطَمْئِنُهَا أن الموت في حالتها ليس سيئًا؛ بل ربما له أبلغ الأثر في صحوة ضمير كل من ظلمها. حين يرون جثتها الضئيلة الخابية سيشعرون بالندم حقًا، وستنسكب دموعهم كالأنهار وهم يتمنون رؤيتها على قيد الحياة مجددًا. لكن لِمَ كل هذه السوداوية التي تدور في مخيلتها؟ ما ستراه بعد قليل، وينتظرها هناك ليس الموت بالتأكيد؛ بل شيء أسوأ بكثير.

obeikandl.com

(1)

النوم كضوء متقطع يغمر عقلي وينسحب، يرسلني إلى عالمه دقائق، ثم ينتزعني بقسوة.

لا أعلم كم مر من الوقت على تقلبي فوق الفراش الذي أفسده العرق، وتجعدت ملاءته كوجه شيخ في التسعين. زقزقة العصافير التي تصطخب خارج النافذة تخبرني بأن الفجر قد لاح، والشفق الذي بدأ ينشب مخالبه في الظلماء يؤكد هذا. الخدر يسري في جسدي، وعقلي مكدود حائر. لقد بسط ذلك اللغز العجيب المستغلق أجنحته فوق ممرات عقلي, وجعلني أمر بليلة لم أمر بها منذ سنين طويلة. لغز مستحيل جعل عقلي يغلي كمرجل ملتهب تتصاعد من جوفه أبخرة حارة.

من الغريب أن يصيبني الأرق، يصيبني أنا بالذات، أنا "أحمد صالح" الذي يتهمني البعض بأن نومي ثقيل للغاية، ولو تهدمت البناية التي أقطن بها ما أخرجني هذا عن سُبَاتِيَ الذي يشبه الموت، وهو اتهام حقيقي أُقِرُّ وأعترف به؛ فطوال سنوات عمري التي تقترب من الخمسة والثلاثون، وأنا أستغرق في نوم عميق للغاية كنوم أهل الكهف، لا أشعر خلاله بشيء إلا عند استيقاظي في الصباح التالي، لا كوابيس أو أحلام إلا فيما ندر، وكأن ما مر بي من زمن لا يتعدى دقيقة واحدة لا تسع ساعات كاملة، لا أعلم لذلك سببًا إلا لو كانت اللامبالاة التي تميزني هي ما تفعل ذلك.

الإنسان اللامبالي ليس منعدم الإحساس؛ لكنه ببساطة واجه كوارث عنيفة في حياته؛ جعلت أي مصيبة يقابلها بعد ذلك أشبه بنزهة لطيفة على أحد الشواطئ الهادئة.

أما عن لا مبالاتي فأستطيع أن أخمن جيدًا؛ فطوال عمري ومنذ مولدي وأنا أتلقى ضرباتٍ قاسيةٍ بدئًا بقسوة والدي، ومرورًا بتلك المملكة الغامضة التي كانت تبث فيَّ رعبًا بلا حدود. المدرسة.

نعم، وبلا مبالغة كنت أعتبر المدرسة عالمًا يعج بالوحوش، وإن كنت أعتقد السبب في ذلك هو والدي أيضًا الذي كان يحبسني في المنزل منذ الصغر، ويرفض نزولي لِلَّهْوِ كبقية أقراني، مما جعلني شخص منطوي ومتقوقع على ذاتي إلى أقصى حد.

عندما دخلت المدرسة أول مرة كنت أرى عالمًا مليئًا بشتى أنواع البشر بدئًا من الأطفال الشياطين، وانتهاءً بالناظر الشرس الذي يثير الهلع بصوته الجهوري، وصياحه المستمر، وتلك العصا التي تلازم كفه، وكأنه وُلِدَ بها على هذه الشاكلة.

كان لكل هذا أكبر الأثر في تقوقعي داخل الفصل الدراسي، وعدم التفوه ببنت شفة، أو الإجابة على أي سؤال يوجه لي، مما جعل بعض المدرسين يطلقون عليّ لقب (أبو الهول)، ومما زاد الطين بله هو انفجاري المفاجئ في البكاء كطلقة المدفع، عندما يتم سؤالي أسئلة في المنهج لا أعرف كنهها، أو حتى سؤال يحمل في باطنه اتهام.

أما أكثر ما كان يؤلمني هو زملائي من الصبية المتوحشين، والذين لم يجدوا غير شخصي المستكين كي يعابثوه بخطف حقيبته، أو إيقاع الشطائر من يده في التراب، وكأن انطوائي وبكائي مبررًا لهم كي يذيقوني من العذاب ألوانًا.

أما عن الفترات التي تلي دراستي الابتدائية، وحتى هذه اللحظة، كانت مجموعة من الصدمات التي ليس هذا وقت ذكرها.

الخلاصة أن نفسيتي تأثرت كثيرًا لدرجة التبلد؛ حتى صار من العسير أن أبالي بأي شيء حتى، ولو تعرضنا للاحتلال من قبل مخلوقات فضائية.

لكن ما رأيته أمس هزني أيما اهتزاز، وخلخل كياني وعلاقتي بالواقع.

هل حقًا رأيت ما رأيت؟!

بدأت أنهض في صعوبة شديدة، وأنا أشعر بالإنهاك من أثر التفكير وقلة النوم. جسدي مفكك كمن خاض معركة قتالية، وعيناي ترفضان أن تأخذا وضع الاستيقاظ، لابد من كوبٍ ضخمٍ من القهوة كي يمدني بالنشاط، ويساعدني على التيقظ والإنتباه.

الصالة تغط في سكون عميق، دلالة على عدم استيقاظ والدتي وشقيقي بعد.

بدأت أعد القهوة، وأضعها فوق الموقد مترقبًا غليانها، بينما ذكرى قديمة تلف عقلي كغمامة رمادية.

***

ربع قرن جدير بجعل الذكرى تضيع في عالم النسيان؛ لكنني أتذكر كل شيء كأنه حدث أمس، ولا سبب لذلك إلا لفقداني حنان الأب، الذي كان يقسو عليّ بدون سبب منطقي، وكأن وظيفته في الحياة هي ضربي بشدة، وتقريعي دائمًا، وإحالة حياتي إلى جحيم أبدي، كأن المنزل قد صار معتقلًا

نازيًا لتعذيب الأسرى. ليتني كنت سجينًا لدى الأعداء، على الأقل كنت سأفهم السبب، وستقل جروحي النفسية التي رسمت ندوبًا عميقة على أديم روحي.

وقتها كانت منطقة المقطم شبه مهجورة كمدينة في قلب الصحراء، وتبعث على الرعب في قلوب أشد الرجال شجاعة، خاصة مع تضاريسها المخيفة، وتلالها الموحشة الشوهاء الباعثة على الرهبة، وكهوفها الغامضة المظلمة كأفواه الشياطين، حتى أن شائعات كثيرة بدأت تنتشر بين العامة عن الغولة التي تجوب دروبها، مستهدفة الأطفال الأبرياء لتلتهمهم، وتردد وقتها اسم مقبض يبعث على القشعريرة يحاول تحديد هويتها. اسم "المزيرة".

كانت حالات اختفاء الأطفال بدأت تنتشر وتتوغل داخل مجتمعنا، و بدأ الهلع يصيب الآباء والأمهات، الذين منعوا أبنائهم من النزول ليلًا مهما كان الثمن؛ لكن أبي رحمه الله يبدو أنه لم يهتم بما يسمع، أو أنني لم أكن أمثل له أي قيمة. لقد طلب مني ببرود يحسد عليه أن أنزل ليلًا كي أجلب له علبة من السجائر!

ربما بدا لكم هذا غريبًا؛ لكنه أبدًا لم يكن كذلك؛ فوالدي رحمه الله تزوج في سن متأخرة نسبيًا، في حوالي الخامسة والأربعين من عمره، مما جعله من جيل وعالم خاصين به، وجعلنا من عالم أخر لا يفهمه، ولا نفهمه.

كان عصبيًا دائم الشخط والضرب لنا بالعصا المنزوعة من جريد النخيل، أو بالخراطيم البرتقالية التي يضعونها داخل جدران المنازل، ويمررون عبرها أسلاك الكهرباء، وكانت أمي ضعيفة دائمًا في مواجهته فهي من

النوع الطيب مكسورة الجناح، وكان دائم الطلب لأشياء غريبة وفي أوقات عجيبة!!

أذكر في أحد المرات أنه طلب مني النزول، في الواحدة بعد منتصف الليل؛ لشراء زجاجة مياه غازية له!!

في تلك الفترة كان قد أنهى سنوات عمله الطويلة كمفتش في الدفاع المدني، وخرج (على المعاش) وأنا مازلت في السادسة من عمري وقتها.

لذلك كان متفرغًا طيلة الليل والنهار، لا يفعل شيئًا إلا قراءة الجرائد، والعكننة علينا أنا وأمي وأشقائي "محمد" و"مصطفى"، ومتابعة ما نفعل من مذاكرة أو لهو. وبسبب طول وقت الفراغ لديه تبدل يومه تدريجيًا، وصار ينام نهارًا ويستيقظ ليلًا، أي أنه عندما طلب ما طلب لم يكن قد مضى على استيقاظه أكثر من ساعة؛ فهذا وقت الصباح بالنسبة إليه!

حاولت والدتي إثناءه عن طلبه العجيب قائلة:

- الصباح رباح يا أبو "أحمد". هل تريد أن تأكله "الغولة"؟

دفعها والدي بقسوة، وهو يصيح بعصبية:

- اصمتي يا امرأة.لا شأن لكِ بهذا.

ثم صفعني بِغِلٍ ليس له ما يبرره، وهو يعنفني:

- هيا اذهب، ولا تقف هكذا أمامي.

غادرت الشقة مرتجفًا من البرد، ومن الظلام الذي كنت أهابه كثيرًا؛ فلقد كان بالنسبة لي عالم غامض أسود مليء بالمخلوقات الليلية الرهيبة المتعطشة للدماء. الظلال تكسو الموجودات، والقمر يلقى بضوء شحيح لا يبدد شيئًا بل يزيده وحشة ورعبًا. تلفتُّ حولي كثيرًا باحثًا عن صُحبة آدمية تنتشلني من الخوف، وتبعث إليّ ببعض الطمأنينة، لكنني لم أجد.

واصلت سيري متوقعًا هجوم مفاجئ من الغيلان و الأشباح أو حتى الكلاب. دموعي تسيل على وجنتيّ كقطرات المطر، وشعور عارم من القهر والظلم يحتويني، ويزيدني كراهية لأبي.

ألست ابنه؟

لماذا إذن لا يحبني كمعظم الآباء؟

ارتطمت ساقي فجأة بصخرة مختفية في قلب الظلام.

سقطت أرضًا متألمًا بشدة، لاعنًا حظي السيئ الذي جعلني ابنًا لأب، قام بوضعي في هذا الموقف المؤسف المؤلم المخيف.

لحظات مرت بي وأنا على هذا الوضع وكأنه الدهر. ألمح شيئًا يقترب مني في قلب الظلام ببطء، باعثًا في جسدي رعدة متكررة. الشيء يقترب وعقلي المصدوم يبدأ في بث الشلل إلى أطرافي. الملامح بدأت تتضح على ضوء القمر الفضي. كانت أنثى تحرك النسمات الليلية شعرها؛ فبدت لي أشبه بشبح تحيط رأسه هالة من الخيوط النارية.

تساءلت في أعماقي وقد بدأ جسدي في الانتفاض " هل هي المزيرة التي يحكون عنها، وقد جاءت لتلتهمني؟"

تعالت نبضات قلبي إلى أقصى درجة، حتى شعرت به يكاد ينفجر، وبدأت أنفاسي تثقل وصدري يضيق وقد تملكني الهلع الشديد.

****

obeikandl.com

(2)

رائحة البن المحروق تفعم أنفي، وتنتزعني من قلب الذكرى. الشعلة تنطفئ من أثر انسكاب القهوة الفائرة عليها، مطلقة صوت (الطششششش) المألوف.

أطفأت الموقد الذي تلوث ببقايا القهوة، وألقيت بالكنكة الساخنة في الحوض الممتلئ بالأطباق الخزفية، وبقايا الأطعمة، فتحت عليها صنبور المياه التي تدفقت في سرعة.

راقبت الماء وهو ينساب مطلقًا رذاذًا عشوائيًا، وعقلي التائه يحاول أن يرسلني إلى الماضي مجددًا. انتزعت نفسي بقوة، وقد عزمت على احتساء القهوة على المقهى القريب من المنزل، وفكرت في مهاتفة صديقي "حسان" كي يساعدني على فهم هذا اللغز البالغ الغرابة؛ فمهنته كطبيب نفسي يجيد التحليل جعلته أكثر قدرة على فهم تلك الأمور.

***

جالسًا بهدوء على ذلك المقهى أراقب فصل الخريف الذي بدأ في الولوج إلى عالمنا، مصطحبًا معه لمسته السحرية التي تجفف أوراق الشجر، وتحيلها إلى اللون الأصفر، تنتزعها وتلقي بها في أكوام متباعدة على الطريق، بينما نسمات الهواء تتلاعب بها، وتحركها في دوامات صغيرة أشبه بنموذج ضئيل من الأعاصير التي نشاهدها تحدث دومًا في الغرب.

أراقب المارة الرائحين والغادين في حركة مستمرة دءوبة لا تكل ولا تمل، كأن الجميع قد تركوا منازلهم في تلك الساعة المبكرة، أعدادهم تتزايد ولا

تنضب، وقد فرشت الشمس عليهم أذرعتها العديدة؛ لتضيء حياتهم المظلمة المجهولة التي لا يعلم مصيرها إلا الله.

كثيرًا ما أتساءل عما يفكرون فيه بتلك الساعة المبكرة، وقد انتزعهم سببٌ ما من النوم اللذيذ، خاصة وأن أكثرهم أطفالًا ذاهبين إلى مدارسهم، أو أمهات في طريقهن لشراء حوائج المنزل.

هذه المرأة العجوز على سبيل المثال، والتي تنوء بحملها من أكياس أطعمة وخضر، ألا يوجد من يعتني بها؟ وإذا وجد، لماذا تركها وهي في هذا السن المتقدم، عرضة للخطر وحوادث الطريق؟

المشتريات الكثيرة في يدها تخبرني بأنه يوجد عدة أشخاص في حياتها، وهي من تعتني بهم لا العكس.

ترى هل هناك شخصًا ما بينهم يمر بما أمر به؟

هل هناك من رأى المستحيل يتجسد أمامه؟

أخرجني صديقي "حسان" من تأملي، عندما ركن سيارته بمحاذاة الرصيف المواجه للمقهى. غادر السيارة بقامته الطويلة، وجسده المتناسق، مبتسمًا كعادته، وهو يقول:

- لماذا تتابع الأطفال؟ هل تريد أن تعود صغيرًا مجددًا؟ أم تفكر في الزواج والإنجاب؟

حقيقة لقد أرسلني حديثه وأسئلته إلى الماضي، وإلى مرحلة الطفولة التي أحن إليها كثيرًا، حيث البراءة والحرية في عدم حمل أي مسؤولية؛ فلقد

كنا نترك تلك المهمة للكبار، ولكن والدي – كما ذكرت- حَوَّلَ مسئوليته تجاهي إلى جهنم الحمراء، ليتني أعود طفلًا مجددًا لأجد من يساندني في حَمْلِ، وفك طلاسم لغزي المعقد هذا، الذي أشعر أنه أثقل من جبل المقطم ذاته.

صديقي لمن لا يعرفه بدأ حياته الجامعية مدمنًا لشتى صنوف المخدرات، ولا أعلم لذلك سببًا إلا هروبه من الواقع المرير الذي يحيط بنا؛ فهكذا البشر بعضهم يتبلد إحساسه مثلي، وبعضهم يلجأ للمواد الكيميائية التي تأخذ صاحبها إلى جنة مزعومة.

لكنه لحسن الحظ لم ينخرط كثيرًا في تلك المسألة، وجاءته صحوة مفاجئة جعلته يقلع دفعة واحدة عما يفعله، وبدأت مرحلة الإلتزام الديني، أو للدقة كان الإلتزام نفسه هو السبب الرئيسي في تركه الإدمان لغير رجعة.

تبدلت شخصيته بعد ذلك إلى الأفضل بطبيعة الحال، وبدأ مرحلته العملية كطبيب نفسي في إحدى مستشفيات معالجة الإدمان، وكانت لتجربته أكبر الأثر في فهم عقول المدمنين؛ مما جعله أبرع وأكثر نجاحًا بالتأكيد، حتى صنع له اسمًا لامعًا في عالم الأطباء النفسيين؛ مما أهله، ووضع في نفسه ثقة أكبر كي يفتتح عيادته الخاصة؛ ليعالج مرضى مختلفين، وحالات أكثر تنوعًا.

في بعض الأحيان كانت تأتيه حالات غامضة وشاذة عن المألوف؛ لذلك توسع في دائرة ثقافته مضيفًا لها الكثير من كُتب الخوارق والأشباح، والألغاز والظواهر الغامضة التي حيرت العلماء؛ حتى بات أشبه بموسوعة

في علم النفس والخوارق معًا، وصار الشخص الوحيد في العالم الذي أعتقد جديًا أنه قادر على مساعدتي.

جلس أمامي وهو يصفق بكفيه مناديًا عامل المقهى، وهو يسألني:

- هل طلبت شيئًا؟

أجبته وأنا أرفع الكوب الملوث ببقايا القهوة:

- نعم؛ لكني سأطلب كوبًا أخر مع النرجيلة.

سألني باهتمام بعد أن أملى عامل المقهى طلباتنا:

- ها. أخبرني بما حدث؟

سألته متعجبًا:

- وما أدراك أن هناك شيئًا قد حدث؟

انفجر ضاحكًا بشدة، وهو يقول ببديهية:

- لا أعتقد أنك طلبتني في هذا الوقت المبكر؛ كي نحتسي القهوة فقط، ثم إن لهجتك عبر الهاتف كانت تخبرني بالكثير. لا تنس أنني طبيب نفسي.

أكره المتذاكين كثيرًا، خاصة لو كنت أمر بحالة تشتت ذهني، بسبب ما أعانيه.

نظرت له بضيق، وقلت:

obeikandl.com

- لا تُطْرِي على نفسك كثيرًا فاستنتاجك بسيط، ولا يعد هذا ذكاءً.

قال بجدية:

- أخبرني حقيقة.. ما الذي حدث لك؟ هيئتك تبدو مزرية، وكأنك بت ليلتك في التخشيبة.

تأملته وأنا أشعر بالتردد، ثم قررت أن أخبره بكل شيء، بينما عقلي أخذ يبحر مع سيال الماضي.

***

تراجعت مذعورًا وأنا أحاول الصراخ؛ لكنني لم أستطع، وكأن هناك من قام بتمزيق أحبالي الصوتية.

قالت بجزع محاولة تهدئتي:

- لا تخف يا صغيري.

لم تكن شبحًا مخيفًا، أو غولة متوحشة؛ بل كانت مُدَرِّسَتِي "سارة" التي تعطينا مادة العربي، بدت في تلك اللحظة كالقمر ذاته، وقد ترك حركته السرمدية حول مدار الأرض، وهبط متخذًا هيئة بشرية غاية في الجمال.

جسدها رقيق، دقيق الصنع، بديع الخلق، فاتن حتى بالنسبة لسنوات عمري الثمانية في ذلك الوقت. حسناء امتزجت ملامحها بلمسة ملائكية، وقد ساعدت بشرتها البيضاء كأوراق زهر الياسمين على هذا.

لمست بكفها البض مكان الإصابة في ساقي، وهي تقول بصوت عذب:

obeikandl.com

آه يا صغيري. ما الذي ألقى بك في ذلك الوضع المؤلم، وهذا المكان الموحش.

غرقت في عالم من الحنان مع لمستها، وتشبعت روحي بسحر عينيها الفيروزيتين. تساءلت في أعماقي عن السبب الذي جعلها تترك منزلها هي أيضًا في هذا الوقت.

أخبرتها بصوت مرتجف حزين عما حدث؛ فقالت بابتسامة عذبة:

- لا تخف يا أحمد، لا توجد غولة أو مزيرة في عالم الواقع، كل ما يحكى هو مجرد إشاعات للمخرفين، وقليلي الثقافة.

سألتها وأنا غير مصدق:

- إذًا ما سبب اختفاء الأطفال؟ أنا لي صديقان قد اختفيا أيضًا ولم يعثر لهما على أي أثر.

أجابتني وهي تساعدني على النهوض، وقد أشارت إلى منطقة بعيدة:

- هناك مزيرة من أيام عصر الحاكم بأمر الله الفاطمي، و....

قاطعتها مرتجفًا:

- مزيرة؟

ضحكت وهي تواصل:

- كانوا قديمًا يشيدون منطقة مليئة بآبار الماء، وكانوا يطلقون عليها اسم المزيرة، ومع مرور الوقت اختفت تحت أكوام من الرمال بفعل عوامل الزمن. العديد من الأطفال كانوا يذهبون هناك للهو، وهم غير مدركين للخطر الذي يتربص بهم، بعضهم بدأ يسقط في أحد الأبار دون أن يلتفت إليه أحد.

سألتها بفضول:

- وهل من هنا جاء اسم المزيرة؟

في الحقيقة لا أعلم؛ لكن المزيرة كما قلت لك عبارة عن أبار ممتلئة بالماء، وربما جاء اسم المزيرة مشابهًا لأن القصة تقول أنها تعيش في قلب الماء كالترع على سبيل المثال.

تراجعت مذعورًا وأنا أقول:

- إذًا هناك مزيرة بالفعل؟!

طمأنتني مبتسمة:

- لا يا صغيري. هي مجرد أسطورة.

أأأأأأأأأحمد.. أأأأحمد.

***

تنبهت على صوت "حسان"، وهو يخرجني من دائرة الماضي، وينتزعني من قلب الذكرى بقسوة ليس لها ما يبررها.

obeikandl.com

سألني بنبرة عالية:

- هييه. إلى أين ذهبت؟

شددت نفسًا من النرجيلة، وأنا أتبعه برشفة من القهوة، ثم سألته:

- هل تذكر مدرستنا سارة؟

قطب جبينه مفكرًا؛ ثم لاحت على وجهه علامات التذكر؛ فقال:

- بالطبع أذكرها.. أليست هذه المدرسة، التي كانت تشبه فاتن حمامة؟

أجبته بشرود:

- بلى.

ثم بدأت أحكي له بكلمات مقتضبة عن تلك الذكرى، وأنهيتها قائلًا:

- ومنذ ذلك الوقت كنت قد تعلقت بها تعلقًا شديدًا وأحببتها. لم أحبها كحب الرجل للمرأة فلقد كنت صغيرًا في ذلك الوقت، ولم أحبها كوالدتي فهي صغيرة جدًا على هذا؛ لكن يمكني القول أن حبي لها كان بمثابة حب الأخ لأخته الكبيرة.

قال لي باهتمام:

- كل هذا مفهوم فهي قد أزالت عنك مشاعر الخوف والألم، ومنحتك كمية من الحنان الذي تفتقده مع قسوة والدك، وضعف والدتك في

مواجهته والذود عنك. لكن ما لم أفهمه بعد ما هو سبب استعادتك؛ لتلك الذكرى القديمة الممتدة لأكثر من ربع قرن؟!

نهضت لأتمطى فاردًا ذراعيّ إلى الخلف، وأنا أتشمم رائحة المأكولات القادمة من المطعم الملاصق للمقهى. ربتُّ على بطني قائلًا:

- أنا جائع.

قال لي في تهكم:

- أنت أحمق. أجلس وأكمل ما بدأته أولًا.

جلست وأنا أسحب نفسًا من النرجيلة؛ لكنها لم تخرج شيئًا إلا صوت القرقرة؛ فصفقت بيدي مناديًا على العامل، وما أن أتى حتى طلبت منه تغيير الحجر، ثم التفتت إلى "حسان" وأنا أقول في تردد:

- في الحقيقة أنا لم أنسها لحظة.. ودائم التفكير فيها.. لكن ما شاهدته أمس عجيب، وربما لن تصدقني إذا حكيته لك.

ضرب كفًا بكف، وهو يقول بحنق:

- هل أتيت بي في مثل هذه الساعة؛ كي تحجم في النهاية عن الحكي؟

هدأ قليلًا ثم قال:

- واصل أنت ما بدأته، وأترك لي موضوع التصديق من عدمه.

تأملت نهر الطريق والسيارات تسبح فيه بتلاحق، وتمضي إلى وجهتها المجهولة، ثم قلت:

- كنت أمس في طريقي لزيارة أخي الأكبر، والذي كما تعلم بعد أن تزوج ذهب ليقطن في منطقة المقطم، وفي نفس منزلنا القديم الذي تركناه له، واقتنيت أنا وشقيقي الأصغر وأمي تلك الشقة التي نسكن فيها هنا في مدينة نصر.. كم من مشاعر شتى انتابتني وأنا أزور تلك المنطقة، وكم من ذكرى داعبت عقلي، لقد تغير المكان كثيرًا كما تعلم، وتبدلت المنطقة الشبه مقفرة إلى مناطق سكنية مكتظة بالسكان.. ما علينا. بعد زيارتي الخاطفة لشقيقي، وبينما كنت أهم بعبور الشارع حيث سيارتي رأيتها.. كانت تسير فوق الرصيف المقابل كعصفور رقيق مغرد.. تسمرت مكاني للحظات بدت أشبه بالدهر، ثم انتزعت نفسي بقوة وهرعت إليها، لكنها للأسف كانت قد تلاشت وسط بحر المارة.. ركضت هنا وهناك أنبش عنها بعينيّ علني أجدها؛ لكنها كانت قد تلاشت إلى غير رجعة.

قلب "حسان" كفيه حائرًا، وهو يسألني:

- ومن هي التي رأيتها؟

أجبته بنفاذ صبر:

- سارة مدرستي الحسناء.. ومن يكون غيرها؟

أطلق ضحكة هازئة، وهو يقول:

- رأيتها كعصفور مغرد.. ها ها ها ها.. لم أرى عصفورًا في الستين من عمره من قبل؛ لابد وأنها صارت عجوز الآن.

التهبت أعصابي من سخريته؛ فقلت بحدة:

- وهل تعتقد أنني منذ أمس لم يغمض لي جفن، وفي الصباح أتيت بك هنا بلا سبب. لا يا صديقي لم تكن عجوزًا مطلقًا؛ لقد رأيتها في ذات السن الذي رأيتها عليه أخر مرة في طفولتي، وعلى الرغم من مرور أكثر من ربع قرن، لم يبدو عليها أنها تقدمت في السن ولو يوم واحد.

!!!!-

***

obeikandl.com

(3)

حدق "حسان" فيَّ بذهول، وقد ألجمت المفاجأة لسانه، ثم قال حائرًا:

- ولكن.. ولكن هذا مستحيل تمامًا.

وافقته مؤيدًا:

- نعم هو مستحيل فعلًا ولا أجد له حلًا؛ لهذا كاد عقلي أن ينفجر منذ ليلة أمس.

قال ببديهية:

- ربما كنت واهمًا.

نظرت له ببلاهة وقد اشتعلت أحشائي، وهممت بالهجوم عليه بطلقات نارية من لساني؛ لكنه استشعر ذلك فقاطعني قائلًا:

- هذه أنثى كنت متعلقًا بها بشدة في طفولتك، وقادتك الظروف إلى مكانٍ قريب من لقاءك بها أثناء إصابتك، ومن البديهي أن يستيقظ الماضي داخلك مشكلًا هيئتها أمام عينيك. قل لي بالله عليك من منا سيتذكر هيئة شخص لم يره منذ ربع قرن؟ الأكثر منطقية أنك تخيلتها أو رأيت من تتشابه معها فظننتها هي.

صمت قليلًا ثم استطرد:

- في صباي كنت أحب فتاة صغيرة كانت معي في الفصل، كانت تدعى "عالية"، وكانت سمراء وجميلة للغاية، وكان لها شعر أسود ناعم رائع. تُرى هل لو رأيتها الآن سأعرفها؟ بالتأكيد لا؛ لكنني لو رأيت أية شابة سمراء جميلة طويلة الشعر سأظنها هي.

هدأ غضبي قليلًا وقلت:

- أنت ربطت مكان مقابلتي لها خارج المدرسة، وبين رؤيتها أمس، ونسيت أو تناسيت أنني نشأت وترعرعت في منطقة المقطم. ليس هذا فقط بل أنني زرت المنطقة مرارًا وتكرارًا؛ فلماذا لم أتخيلها سابقًا. ثم إنني قابلتها كثيرًا داخل مَدرستي، وحدثت بيننا مواقف كثيرة ربما تفوق ما حكيته لك عنها بمراحل، وأنا كما تعلم أعمل حاليًا كمحاسب في أحد المدارس الخاصة؛ لماذا إذن لم أتخيلها سابقًا داخل مقر عملي في وجوه زميلاتي، أو شبَّهْتُ عليها في وجوه المُدرسات اللاتي يعملن معي وأراهن يوميًا؟

رمق كوب القهوة البارد، وأخذ يفكر بعمق، ثم نظر لي وقال:

- لو نحينا الوهم جانبًا؛ لن نجد أمامنا إلا حل منطقي أخر.

سألته بفضول:

- وما هو؟

أجابني في بساطة:

- أن تكون هذه ابنتها. فأنت تعلم كم يتشابه الابن بأبيه، والبنت بأمها.

هززت رأسي في حسم أن لا وقلت:

- كلا هذا مستحيل تمامًا.

سألني:

- ولماذا؟

أجبته بسرعة:

- لأنها عاقر. هي أخبرتني بهذا مرارًا، وكانت تتمنى أن يكون لها طفلًا مثلي.

شعر "حسان " بالحيرة قليلًا، وكأن خطأ الحل الذي توصل إليه أربك تفكيره بالكامل، نظر لي وقال بتردد:

- ربما.. ربما كانت شبحًا.

أضحكني ما قاله بشدة حتى دمعت عيناي، وقلت:

- خيبك الله. هل جعلتها تموت ويظهر شبحها دفعة واحدة؟

قال في جدية:

- الأشباح يا عزيزي ليست بالضرورة لشخص ميت، بل هناك حالات عديدة لأشباح كانت لأشخاص ما زالوا على قيد الحياة.

كنت أظنه يهزأ فقلت:

- لا يا رجل.

obeikandl.com

حرك كفيه وكأنه يصف ما يقول:

- يقولون أن الحياة تصور بعض الأشياء، ثم تعيد بثها في وقتٍ لاحق، وهذا يشرح الكثير من حالات الأشباح. تخيل أنك تعبر أحد الطرق، وأنت تُصَفِّرْ مثلًا؛ ثم قامت الحياة أو الواقع أو الزمن - سَمِّهِ ما شئت- بتصوير لحظة عبورك هذه، ثم قامت ببثها بعد ذلك مستقبلًا. بعد عشر سنوات مثلًا. وقتها ستظهر للعديد من الأشخاص، كما ظهرت مُدَرِّسَتُك الحسناء هذه لك. هناك ظاهرة شهيرة اسمها " Doppleganger " وهي من الظواهر المخيفة بحق؛ حيث يظهر شخص آخر له نفس مواصفات وهيئة الشخص الأصلي، وأشهر تلك الحالات في الظهور، هي التي ظهرت للملكة "كاترينا" في روسيا حيث رأت شبيهتها تقترب منها؛ فتملكها الذعر، وأمرت جنودها بإطلاق النار على هذا الشيء؛ لكن تلك الظاهرة تظهر للشخص نفسه، ولذلك فسأستبعدها من دائرة محاولاتنا لحل اللغز الذي رأيته أنت.

اقشعر جسدي وأنا أتخيل ظهور شخص يماثلني في الشكل تمامًا، أعتقد وقتها سألقي مصرعي بسكتة قلبية.

سألته مرة أخرى:

- كل هذا ممتاز؛ لكنني حائر الآن، ولا أستسيغ هذا التفسير. ربما هذا يحدث في الغرب لسبب نجهله؛ كالمناخ أو الثلوج أو الضباب؛ لكني لم أسمع عن شيء مثل هذا هنا في مصر.

ابتسم مشفقًا عليّ وهو يقول:

- تلك الظواهر موجودة في كل مكان، ولا يعني أننا لم نسمع عنها هنا أنها غير موجودة. فقط لم يهتم بها أحد بشكل كافي، ورؤيتك لمُدرستك الحسناء دليلًا على هذا.

شعرت بالضيق وقلت:

- أنت تربط رؤيتي لها بالظواهر الخارقة، وأرى أن هذا بعيد تمامًا عن الواقع.

قال ساخرًا:

- حقًا. هل لديك تفسير أخر؟

قلت بنفاذ صبر:

- لو كان لدي تفسير ما طلبتك.

قال باهتمام:

- المشكلة أن الكثيرين لا يصدقون تلك الظواهر، وهم يظنون أنها مجرد حكايات مسلية لا أكثر. على الرغم من أن هناك العديد من أفلام الرعب، التي تم اقتباسها من قصص حقيقية حدثت بالفعل.

سألته في شك:

- مثل ماذا؟

حدق فيّ وهو يقول بجدية:

obeikandl.com

- كابوس في شارع ألم على سبيل المثال.

ابتسمت على الرغم مني وأنا أقول:

- هل تقصد أن هناك سفاحًا يدعى " فريدي كروجر" يزور المراهقين في كوابيسهم ليقتلهم؟

واصل بجدية:

- بالطبع لا؛ لكن مؤلف الفيلم كان قد قرأ سلسلة مثيرة، ومرعبة من المقالات عن موت غامض لأشخاص من كمبوديا وجنوب شرق أسيا أثناء نومهم، وأجمع كل من كانوا على صلات بهم، أن الحالة متشابهه تقريبًا؛ فالجميع كانوا يفزعون من فكرة النوم، ويظلون ساهرون عدة أيام، حتى يغلبهم سلطان النوم؛ فيلقون مصرعهم أثناء غفوتهم، ولا يستيقظون مرة أخرى أبدًا. هناك شاب على وجه التحديد ظل ساهرًا لمدة تزيد عن الأسبوع، وحاول أفراد أسرته إقناعه بالنوم بأية طريقة؛ لكنه كان خائفًا للغاية، ويردد عبارات مشوشة مغزاها أن هناك سلسلة مفزعة من الكوابيس تطارده، وستتسبب في قتله، وأخيرًا غرق في النوم أمام التلفاز، وهو جالس مع أفراد أسرته؛ فحملوه إلى غرفته في الطابق العلوي، وهم يحمدون الله على نومه أخيرًا، وفجأة تعالى صوت صراخه مختلطًا مع صوت تحطم عدة أشياء في حجرته؛ فهرع الجميع ليعرفوا ماذا يحدث هناك. فوجدوه قد فارق الحياة.

شعرت بالفزع، وأنا أقول:

- هذا مرعب جدًا؟

وافقني وهو يواصل:

- الأمثلة على ذلك كثيرة. ستيفن كينج كاتب الرعب الأمريكي الشهير، بنى معظم أعماله على خلفية أحداث حقيقية؛ ففي رواية "عاصفة القرن - Storm of the Century " كان الحافز الأساسي لكتابتها هو حيرته أمام حادث تاريخي بالغ الغرابة! ففي عام 1587 اختفى سكان قرية فرجينيا بالكامل، والتي كانت على أحد الجزر المستعمرة من قبل بريطانيا، ولم يعثر لهم على أدنى أثر حتى الآن، ولم يتركوا خلفهم غير كلمة واحدة محفورة على أحد الأشجار، زادت من الموقف غرابة وغموضًا، كلمة "كرواتون ".

سألته بفضول:

- كرواتون؟ وماذا تعني هذه الكلمة.

أجاب:

- لا أحد يعرف.

صمت قليلًا ثم واصل:

- روايته الشهيرة "منطقة الموت" مأخوذة عن قصة حقيقية؛ لمتحري خارق اسمه "بيتر هوركوس" يمتلك حاسة "السايكومتري"، وهي معرفة ماضي الأشياء عن طريق حاسة اللمس، وعلى ما يبدو أن ستيفن كينج قد شعر بالتعاطف معه بعد معاداة هوليوود له.

قلت باهتمام:

- ولماذا فعلوا هذا؟

فقال:

- في عام 1964كانوا في مرحلة أنتاج فيلم يحكي عن سفاح بوسطن الشهير، وقد طلبوا "بيتر" كمستشار للفيلم لأنه كان على صلة مباشرة بالقضية؛ فحاول إقناعهم أن من قام بتسليم نفسه إلى الشرطة ويدعى "ألبرت دي سالفو" ليس هو سفاح بوسطن الحقيقي؛ بل عرف القصة من القاتل نفسه الذي كان زميله في أحد المصحات النفسية، وكان على حق؛ لكن المنتجين تشبثوا بالقصة المنتشرة في ذلك الحين، والتي اشتروا حقوقها من المؤلف "جيرالد فرانك" صاحب الكتاب الشهير " سفاح بوسطن"

قلت بانبهار:

- هذا مدهش؛ لقد قرأت بالفعل عن تحقيقات منذ عدة أعوام تؤكد أن " دي سالفو" مجرد مدعي.

رمق ساعته وسألني باهتمام:

- ألن تذهب لعملك؟

فكرت قليلًا ثم هززت رأسي، وقلت:

- على الرغم من أنني لم أَنَلْ كفايتي من النوم.. لكنني سأذهب على أية حال.

نهض يعدل من ملابسه، وقال:

- حسنًا.. أنا ذاهب إلى المستشفى التي أعمل بها صباحًا، وسنكمل لاحقًا.

- وماذا عن لغز ظهور تلك المُدرسة؟

توقف فجأة وبدت على ملامحه فكرة ما، سرعان ما نقلها إليّ:

- لماذا لا تبحث عن منزلها، وتذهب إليها، علك تستكشف شيئًا، يضيء لك الطريق؟

تأملته برهة وقلت:

- في الحقيقة لقد جال هذا بخاطري، وأعتقد أنه الحل الوحيد لجلاء هذا اللغز.

***

obeikandl.com

أواخر الثمانينات..

عمله كمأمور شرطة جعله يستشعرها عن بعد، وكأن هناك اتصال كوني يربط بينهما.

أم هي حاسة نَمَتْ مع الوقت؟

أو ربما خبرة رجل شرطة محنك صادف الكثير والكثير.

هذا ما يشعر به الآن.

رائحة جريمة قوية تفوح من فم ذلك الرجل المسن ذو الشعر الذي يشبه زغب القطن.

وليست تخاريف عجائز كما يعتقد البعض.

لقد جاء يخبره كشاهد على ما وقع أمام ناظريه من جريمة غريبة مستترة بالظلام، وعلى الرغم من ضعف بصره صدَّقَهُ على الفور، ولا يعرف لذلك سببًا.

ربما لما سمعه عن اختفاء هؤلاء الأطفال على مر السنوات الماضية.

صحيح أنهم عثروا على بعض الجثث بأحد آبار المياه الأثرية بالمنطقة؛ لكن هناك عدد أخر تلاشى بلا أثر، وكأنهم قط لم يكونوا هنا.

عدَّلَ من وضعية اللوحة الخشبية الأنيقة التي تحمل اسمه " عماد صالح"، وهو يراجع في عقله ما أخبره به ذلك العجوز.

لقد كان يجلس ليلًا في شرفة منزله، يقرأ القرآن ويرتله، وينتظر أذان الفجر كي يؤدي الفريضة التي يراها أهم ما في اليوم؛ لما تبعثه من طمأنينة وسعة للرزق.

الهدوء يسود الكون إلا من حفيف أوراق الشجر التي يداعبها الهواء.

وفجأة..

أتاه ذلك الصوت الذي لطخ السكون، وبدا له كصرخة استغاثة مكتومة آتية من حديقة الفيلا المجاورة.

دقق النظر ليرى ما هنالك؛ فخيل له أن طفل أو شخص قصير القامة يحاول الهرب، وهنا رأى ما جمد الدم في عروقه. رأى شبحًا مخيفًا له عينان مضيئتان باللون الأحمر البراق، يهجم على ذلك الهارب الصغير.

أو هذا ما بدا له.

وقف وقتها بهلع وقلب ضعيف راجف، وقرر أن يهبط بنفسه ليستكشف الأمر.

فتح باب المنزل، ووقف قرب درجات السلم، وجسده ينتفض كأنما قد أصابته حمى عنيفة.

سيطر الخوف عليه كعنكبوت يقيد ضحيته، وقرر أن من الأيسر لو يجد من يستكشف كل هذا بدلًا منه.

الموقف مرعب، ولا يجد له أدنى تفسير.

هناك تفسير ما جال بعقله لحظات، تفسير حاول فرض نفسه بالقوة؛ لكنه واراه بعيدًا في غياهب عقله.

هذا عالم واقعي وملموس، ولا توجد فيه تلك الأشياء المخيفة القادمة من عالم الخرافات والأساطير، ولا يمكن أن توجد.

في الصباح الباكر، وبعد أن أشرقت الشمس، وحجبت بنورها عالم الرعب والظلام، قرر أن يذهب إلى قسم الشرطة فهم قادرون على استكشاف ما حدث أيًا كان؛ فهذا عملهم، ولديهم من الرجال القادرين على مواجهة الخطر مهما كان.

وقد كان.

حك "عماد" رأسه، وهو يفكر في طريقة يقنع بها النيابة أن تمنحه إذنًا بالتفتيش؛ لكنه قرر أن ذلك سابق لأوانه، وعليه أن يستكشف الموقف بنفسه أولًا.

بالطبع لم يصدق حكاية الشبح ذو العينان الحمروان، وعزا ذلك إلى الظلام والخيالات التي من الممكن أن ترسمها الظلال والضوء الباهت.

ربما في النهاية كانت تخاريف عجوز بالفعل.

وربما لا.

هو وحدة القادر الآن على حسم ذلك الأمر.

***

هبط الليل كظل عملاق أسود فوق المدينة النائمة، ومد أطرافه المهيبة إلى كل الأركان.

وفي قلب الظلام تحرك "عماد" بملابس مدنية، يخطو على الرمال التي تفترش الأرض، ويترك أثار حذائه الرياضي كدليل على وجوده يومًا هنا.

كان من الخطأ أن يذهب للاستكشاف بمفرده؛ لكنه لم يجد بدًا من هذا، خاصة وأن المسألة كلها مجرد شكوك، لا دليل عليها، وواجبه هو أن يجد بنفسه هذا الدليل.. لم يرغب في إرسال من ينوب عنه في هذه المهمة، فربما كان الأمر كله وهم في وهم، وحقيقة لا يرغب في أن تتضاءل هيبته في عيون الجميع، لو ثبت أن في الأمر مزحة ما.

منذ الصباح وتفكيره في الأمر يعصف بعقله.

صحيح أنه كان مصدقًا في البداية لذلك العجوز؛ لكن بعد انصرافه شعر أن الحكاية كلها محض هراء، وحتى ولو سلم بذلك فواجبه يحتم عليه تقصي الحقيقة، خاصة وهو يتذكر وجوه الآباء وهم يسألونه بحسرة وحيرة عن مصير أبنائهم الذين اختفوا بلا رجعة.

اقترب من الفيلا المنشودة، وأخذ يتأملها على ضوء القمر الشحيح.

الظلام يكتنفها من الداخل والخارج دلالة على أنها خاوية، والسحب الرمادية تتهادى في الأعلى، وترسم تضاريس سريالية خلفها، مما منح المشهد كله صورة ليلية مقبضة.

السكون يعم الأرجاء، يقطعه صفير حشرات الليل المختبئة في قلب حشائش الحديقة المهملة.

استطاع أثناء النهار أن يجمع بعض المعلومات عن أصحاب المكان. الفيلا ورثتها فتاة شابة تدعى "سارة"عن أبيها، والتي لم تُطِقْ الوحدة بعد وفاته؛ فتزوجت من أحد زملائها في المدرسة التي تعمل بها.

إذن من المفترض أن المكان مأهول بالسكان.

لماذا إذن كل هذا الظلام؟

هذا يؤكد له على الأقل أن هناك شيئًا مريبًا بالفعل.

أو ربما ذهب الزوجان لزيارة أحد الأقارب، أو السهر في مكانٍ ما.

لكن هل من المعقول أن يتركا المكان هكذا دون بواب أو حارس؟ أو أي شخص يعتني به؟

الأسئلة الحائرة كثيرة، ولن يحسمها إلا التلصص والاستكشاف، وهذا ما سيفعله الآن.

خطا على الحشائش في حذر متلفتًا حوله حتى لا يفاجئه شيء ما في قلب الظلام. ربما كلب حراسة غافي، أو بواب نائم في مكانٍ ما.

عبر بجوار تلك النافورة التي تضخ قطرات مياه ضعيفة للغاية، وتتساقط على أرضيتها البيضاء محدثة صوتًا رقراقًا ضَخَّمَهُ السكون، وأمسى كقرع الطبول في غابات أفريقية.

اقترب من الفيلا الغافية، التي أطلت عليه نوافذها كعيون عملاقة مغلقة الأجفان.

تلصص من أحد النوافذ الواطئة علَّهُ يرى شيئًا؛ لكن الظلام صنع حائلًا منعه من رؤية ما بالداخل. تحسس النافذة باحثًا عن وسيلة لاقتحامها عندما لمح ذلك الضوء الأحمر الناري المتحرك. دقق النظر ليعرف مصدره؛ فوجده يتحرك تجاه النافذة بسرعة خاطفة، وقبل أن يتخذ أي ردة فعل، تهشمت النافذة بضجيج مدوي، ووجد نفسه يُسحب عبر فجوتها الناشئة إلى الداخل.

***

ارتطم ببلاط الفيلا الداخلي بعنف، وشعر بالألم يغزو جسده، وكأن عظامه قد تهشمت إلى ألف قطعة.

سمع ذلك الزئير الوحشي الغاضب.

رفع عينيه ببطء ليرى مصدره، ثم شهق بذعر شديد عندما رأى وجهها، وارتجف صوته وهو يقول:

- يا إلهي الرحيم.

صمت برهة وهو عاجز عن نطق المزيد، ثم أجبر لسانه بصعوبة بالغة ليقول:

- ما أنتِ بحق الجحيم؟

هزت رأسها دون أن تنطق، وتحركت تجاهه مصدرة ذلك الزئير الغاضب من حلقها، وهي تهوي بمخالبها نحو عنقه لتمزقها؛ لكنه تحرك بسرعة، وتدحرج على الأرض مبتعدًا عنها، ثم وقف وقد أخرج مسدسه من طيات ملابسه، وأطلق على جسدها ثلاثة رصاصات متتالية.

الثلاث رصاصات المميتة كما تعلم في كلية الشرطة.

صحيح أنه تعلمها كل واحدة بمفردها، وأجاد ذلك تمامًا.

لكنه أمام تلكِ المخلوقة القادمة من أرض الكوابيس، لم يكن أمامه إلا إطلاق الثلاثة رصاصات دفعة واحدة.

في سرعة وحنكة ومهارة.

واحدة في رأسها.

والثانية في عنقها.

والثالثة في صدرها مكان القلب.

لكن الرصاصات بدت وكأنها لا تؤثر فيها.

فقط زادت من وحشيتها، ومن هالة الضوء المخيفة التي تحيط بها.

وكان عليه أن يدرك ذلك.

أن تلك المخلوقة لن يؤثر فيها شيئًا هكذا من عالمنا الطبيعي.

تراجع في حذر كطفل في مواجهة نمر غاضب، وأخذ يفكر في حيرة عما يجب عليه فعله.

هل يهرب؟

وأين المفر منها وهي تحاصره بتلك الطريقة؟

هل يقتلها؟

كيف يقتل هذا الشيء، وبأية وسيلة؟

زاد من تراجعه حتى صار قادرًا على العدو في الاتجاه المضاد لها، وفي نفس الوقت أخذ يراقب تقدمها البطيء نوعًا ما، وكأنها تدرك أن لا مهرب أمامه، وهذا ما زاده يقينًا أنها لا تختلف عن الضواري في شيء، إلا في هيئتها المشابهة للبشر إلى حد بعيد.

تساءل في أعماقه عن ماهيتها، وعن المكان التي جاءت منه.

أقرب شيء في ذهنه لهيئتها هم تلك المخلوقات التي تمتلئ بها أفلام الرعب، وكأن مصممي الخدع كانوا يستعملونها كموديل لتصميماتهم المخيفة.

وجد نفسه في قلب صالة الفيلا الفسيحة، التي تبدلت هيئتها تمامًا، وبدت أشبه بكهف ضخم من كهوف الصحراء، بتلك الرمال التي تملأ أرضيتها، والصخور الملاصقة للجدران.

أكثر ما لفت انتباهه هي تلك البحيرة التي تتوسط المكان.

أو هو مسبح اتخذ شكل بحيرة.

والمخيف في الأمر أن على أطرافها لمح ما يشبه العظام البشرية ملقاة في إهمال.

عظام صغيرة الحجم لأطفال كانت لهم أحلامٌ يومًا ما، وانتهت للأبد في قلب ذلك العرين.

هذا ما يبدو عليه الأمر فعلًا.

لقد صنعت لنفسها عرينًا يحتويها وتسكن إليه.

اقتلعت من مملكتها الغامضة بقعة إلى أرض البشر، وكأنها قررت البقاء فيه إلى الأبد.

تبًا.

قالها بحنق، وقد تضاءلت فكرته عن الهرب تمامًا. لا سبيل أمامه إلا أن يقضي عليها نهائيًا، ومهما كان الثمن.

حتى لو الثمن هو حياته ذاتها.

وهنا يعود السؤال الباقي في عقله إلى التردد.

كيف يقتل هذا الشيء، وبأية وسيلة؟

أخرجه هجومها عن تفكيره، وشعر بآلام مبرحة في صدره من إثر تمزيق مخالبها للحمه.

تراجع وهو يمسك جرحه بكفه، ويصوب نحوها مسدسه بكفه الأخر.

طلقة في رأسها تليها طلقة أخرى.

الرصاصات تكاد أن تنفذ، ولا تؤثر فيها كما حدث سابقًا. لا بد من إيجاد وسيلة أخرى بأية طريقة، وإلا فقد حياته.

نافذة قريبة منه ترجوه أن يهرب.

ربما استطاع أن يعود مجددًا مع قوة من الشرطة؛ ليشنوا عليها حربًا شرسة حتى الموت.

قفز من النافذة ليهشمها بجسده في دَوِيٍ مزعج، وعبر ليسقط على أرض الحديقة السابحة في الظلام.

عقله لم يهدأ بعد.

ماذا لو هَرَبَتْ، ولم يستطيعوا أن يعثروا لها على أثر بعد اليوم؟

واجبه وأمن أهالي المنطقة يحتمان عليه أن ينهي تلك المسألة هنا والآن.

"ساعدني يا إلهي"

قالها وقد قرر أن يحرق المكان بها. ربما هذه هي الوسيلة المثلى للقضاء عليها.

كل المخلوقات تخاف النار، وكل المخلوقات تحترق بها.

لكن..هل هي كباقي المخلوقات؟ هل ستؤثر فيها النيران؟

لا يعلم يقينًا لكنه يأمل ذلك؛ فلا سبيل أخر أمامه إلا أن يجرب ويعرف.

بدأ يعدو في ضعف وإنهاك من أثر جرح صدره، وشعر بالدماء تبلل قميصه، وتُضعف وعيه من أثر فقدها.

شعر بها تعدو خلفه بقوة مهشمة أوراق الشجر المتساقطة، وبانقضاضها عليه في توحش، وقد تعالى من حلقها ذلك الزئير الشيطاني.

سقط أرضًا من أثر انقضاضها وثقلها، ولا يعلم لماذا تذكر ابنه الصغير "ممدوح" بملامحه الطفولية البريئة، وحركات يديه التي تدعوه لحمله إلى أعلى، ومداعبته قليلًا.. لا يعلم لماذا يشعر الآن أنه لن يراه مجددًا.

ستنتظره زوجته بلهفة في البداية، سرعان ما تتحول إلى قلق بالغ إثر غيابه الغير مبرر، ستتصل هاتفيًا لتسأل عنه في مقر عمله، وسيخبرها أحدهم أنه لا يعلم تحديدًا أين ذهب؛ فهو لم يخبر أي شخص بمغامرته الليلية. لكنها حتمًا ستعلم أي مصير مخيف سيلاقيه، ستبكي كثيرًا بالطبع لأنها تحبه، وسترمق الصغير بأعين دامعة، هي لا تعلم مصيره الذي سيؤولُ إليه.. ربما ستُلْحِقَهُ بكلية الشرطة حتى يصبح ضابطًا مثل أبيه، وربما ستخاف عليه حتى لا يلحق به في العالم الأخر، وستدخله أية كلية بعيدة عن الرصاص والموت، وتعقب المجرمين والقتلة.

بدأ الوعي يتسرب منه تدريجيًا، أخر ما شعر به هو وجهه الذي أخذ يسحق الحشائش، من أثر جذبها لجسده تجاه الفيلا.

أو نحو عرينها.

***

(4)

صباح جديد مفعم بالشجن، وملل لن ينتهي إلا بانتهاء ساعات العمل، التي ستمر بطيئة رتيبة، بتلك الوجوه الكئيبة التي تطل عليَّ كل يوم، ما بين "ممدوح" مدير الحسابات القوي البنية كمصارعين WWF، صاحب الوجه المتجهم، والنبرة الصوتية العالية، وبين كلًا من زملائي وزميلاتي، الذين لا يهتموا إلا بكيفية مضاعفة راتبهم.

"هيام" على سبيل المثال تبذل قصارى جهدها؛ كي تنتهي سريعًا من رسالة الدكتوراه التي تقوم بتحضيرها، حتى تنال درجة زائدة، ويتم ترقيتها في نصف المدة الفعلية للترقية.

صحيح أنها جميلة وفاتنة بجسدها الممشوق، وتلك الطرحة الأنيقة التي تحيط بشعرها، وتكشف عن أذنيها المزينتان بزوج من الحلقان الماسية؛ لكنها دائمًا شديدة العصبية، شاردة البال، عقلها تاءه بين واجبات العمل القاسي الذي لا ينتهي، بحساباته المعقدة، وأرقامه التي تكاد تصيب المرء بنزف في المخ، وبين العاملين تحت يديها، والتي يجب عليها أن تحسن إدارتهم بحكمة حتى يمتثلون لأوامرها، وبين جداول الغياب والحضور، التي يجب عليها مراجعتها يوميًا من خلال تلك الماكينة المسماة (ساعة)، ومهمتها هي التقاط اسم صاحب البطاقة الإلكترونية، الذي يبرزها في مواجهتها، وتسجيل ساعة حضوره بدقة.

لكن الأمر لا يخلو من بعض المتاعب، حيث يدعي البعض أنه جاء في موعده تمامًا، ولم يتأخر، ويُعْزِي ذلك الخطأ إلى تلك الماكينة البلهاء،

والبعض الأخر يتحجج بأن التأخير سببه باص المدرسة، وأن لا ذنب له في ذلك؛ فهو يحمل تصريحًا بركوبه، وليس مسئولًا عن أي تأخير يحدث.

هناك أيضًا "مدحت" ذلك المحاسب البالغ البدانة، الذي يُضَيِّعُ معظم الوقت في تناول الشطائر، وأكواب الشاي والقهوة. من الواضح لكل ذي عينين أنه كسول متقاعس يزيح كل الأعمال المرهقة عن كاهله، ويلقيها بين ذراعيَّ أنا أو "نورا"؛ لكن لا أحد يهتم بذلك، لا مدير الحسابات المتجهم "ممدوح"، ولا النائبة "هيام" الحسناء الغاضبة، وكأنهما يدركان أنه لو قام بواجبه كما آمُل، ستخرج من بين أصابعه عشرات الأخطاء الحسابية، والأرقام المشوهة؛ لذلك يسعدان أيما سعادة عندما يدركان أن العمل بين أيدي أمينة.

أما عن "نورا" فهي مثال الموظف المنضبط، ممن ينالون لقب الموظف المثالي.. لا أخطاء.. لا تأخير.. لا شيء يمكن أن يؤخذ عليها.. رقيقة للغاية بصوتها الحنون، وبشرتها الناعمة البيضاء.. متزوجة ولها طفلتان تخاف عليهما كثيرًا، وتحاول حمايتهما باستمرار.

تحميهن مِن مَن؟

من كل شيء و أي شيء على ما أعتقد، حتى أنها تصاب بالذعر الشديد إذا داعبهما غريب لا تعرفه؛ فهي تؤمن بأن الغرباء يحملون عدوى شديدة كافية لإصابة الكون بمرض فتاك.

انطلقت بسيارتي أقطع شوارع مدينة نصر الداخلية، في طريقي إلى العمل.

الصباح مشرق بأشعة الشمس الدافئة، التي تتسلل عبر السماء، وتفرش الموجودات أمامي. ثمة شحوب ما أصفر اللون، يخيم على البنايات والشوارع. شحوب غامض حزين لا تعرف من أين يأتي؛ لكنه يميز فصل الخريف دائمًا عن باقي فصول السنة.

التلاميذ يقطعون الطرقات في طريقهم إلى مدارسهم، والسيارات تمرق بجواري زاعقة؛ كأنهم في مهمة كونية لإنقاذ كوكب الأرض.

عبرت شريط الترام القديم الذي تم إلغاءه، بدون سبب مقنع، وأخذت طريقي عابرًا شارع مصطفى النحاس، الممتلئ برتل السيارات، والمحلات التجارية الكبيرة، التي لم تفتح أبوابها بعد.

الهواء له رائحة شاحبة هو الأخر، ولا أعرف كيف؛ لكنها رائحة ترسل عقلك إلى عالم ذكريات الطفولة، حيث لعب كرة القدم بعد انتهاء اليوم الدراسي، وأغطية زجاجات المياه الغازية، التي كنا نصنع منها ألعابًا عديدة، أغاني الأطفال المبهجة الباعثة على السعادة، والقصص الصغيرة القطع، التي كنا نقرأها بشغف، ونتبادلها مع بعضنا البعض. هناك أوقات كنا نقرأها خلسة داخل الفصل، وكان عقابنا وخيمًا إذا تم الإمساك بنا. كما كان هناك بعض الطلبة الأوغاد يبادلون القصة الواحدة بقصتين، مستغلين لهفة الضحية إلى عدد بعينه، كانت تعتبر من فئة الألغاز النادرة، ثم أدركنا بعد ذلك مدى سذاجتنا، عندما عرفنا مكان تلك المكتبة التي تقع في وسط البلد، وبها جميع الأعداد التي كنا نبحث عنها، ونظنها غير موجودة في أي مكان.

اقتربت المدرسة التي صرت محاسبًا يعمل بها الآن، وكأن حياتي دائمًا يجب أن تحيطها أسوار ما.. توقفت بسيارتي بمحاذاة الرصيف المقابل للبوابة، وترجلت مقتربًا من عم ياسين العجوز، الذي كان جالسًا يحتسي الشاي كدأبه كل يوم منذ أن عرفته، بذات الملابس الزرقاء المهندمة على قدر المستطاع، ووجه متغضن ممتلئ بالأخاديد والأحافير التي تركها الزمن كتذكار لا رجعة فيه.

من الداخل تعالت الموسيقى، ودقات الطبول المميزة للطابور الصباحي عابرة الأسوار، وصاعدة إلى أعلى لتمتزج بأثير الكون.

صافحني ياسين كعادته كل صباح، وقال باسمًا وهو يقرب كوب الشاي مني:

- شاي يا أستاذ أحمد.

صافحته بدوري، وأنا أحاذر من كوب الشاي؛ كي لا يلوث ملابسي، وقلت:

- لا شكرًا يا عم ياسين.. هل جاء جميع العاملين في الـ HR؟

(الموارد البشرية، أو كما كانوا يطلقون عليها سابقًا شئون العاملين)

حك رأسه كأنه يستدعي شيئًا من الذاكرة، وقال:

- أعتقد هذا.. هناك فقط مس نورا لم أرها بعد.

شكرته بهزة من رأسي، وعبرت البوابة المعدنية إلى فناء المدرسة، وقد شعرت بالتعجب.

"نورا" لم تأت في موعدها!

هذا أغرب شيء سمعته اليوم.

الطلبة والطالبات ما زالوا مصطفين في صفوفٍ متوازية، وهناك طالبة متحمسة تعتلي المنصة تهتف بكلمات، تبدو كأنها بيوت من أشعار أحد ما، وبعد أن انتهت تعالت أصوات الصفير، والتصفيق الملتهب؛ كأن صفية زغلول نفسها هي من ألقت عليهم الشعر.

وقفت أراقبهم برهة متأملًا الحياة والحيوية التي تموج داخلهم.

وجوه درجات ما بين الأبيض والقمحي والأسود.

ملابس مهندمة في أناقة، وملابس نصف مهندمة.

تجعل المرء بشيء من الخيال يرى بعض الأمهات الفرحات، اللاتي تشعر بأن ابنها سيصير ضابطًا يتعقب المجرمين، ويحمي الوطن، أو طبيبًا يكافح المرض، ويهتم بعلاج الفقراء؛ فتهتم بهندامه في أناقة، وتصفف شعره، تزيل الأتربة عن حذاءه ليعود جديدًا مصقولًا، وتغرقه بالعطر كي يفوح جسده برائحة زكية تملأ الأجواء.

ترى كذلك بكثير من الحسرة بعض الأمهات اللاتي لا تهتم بشيء من هذا، تترك ولدها بقميص متجعد كوجه القرد، وحذاء كالح اللون متقشر الجلد، وشعر كأشواك القنفذ.

هؤلاء بالذات لا أريد أن أتخيل مستقبلهم؛ لكنه على ما يبدو مظلم مخيف باعث على الاكتئاب.

obeikandl.com

توجهت إلى درجات بعيدة عن صفوف الطلبة، تقود إلى داخل المبنى الخلفي، الذي يقع فيه مكتبي.

المدرسة لم تكن تحتوي إلا على ثلاثة أبنية، وجميعهم متصلين بعضهم البعض، حتى تشعر كأنه مبنى واحد ملتف. المبنى الأول يقع في مواجهة الطلبة، والثاني يجاورهم من جهة اليمين، أما الثالث والذي توجهت نحوه فيقع خلفهم.

هناك كذلك أدوار سفلية تحوي عدد من المكاتب الإدارية، وأماكن لأطفال الحضانة، ومصلى صغير، ومخازن توزيع الكتب الدراسية، وماكينات لتصوير الأوراق.

عالم غريب ومتكامل تحتويه تلك الأسوار، التي تحجب من بالداخل عن العالم الخارجي.

لا أعلم حقًا أهو الشجن الذي تحمله أوراق الخريف المتطايرة، أم رؤيتي لهؤلاء الطلبة، هو ما جعلني أسقط مرة أخرى في بحر الذكريات المتلاطم.

***

اليوم الدراسي الأول لي على الإطلاق.

لا أعلم لما كان في منتصف العام الدراسي، ربما لمولدي في شهر ديسمبر علاقة لم أكن أعرفها في حينها.

لم يجعلني أبي أذهب قبلها إلى الحضانة أو الروضة كما يطلقون عليها، لم أتعلم أي شيء ولا أعرف أي شيء، مجرد صفحة بيضاء خالية من أي نقطة حبر.

لم يكن لي أية أصحاب قطّ، أو أي شخص أعرفه من قريبٍ أو من بعيد، وهذا ما جعلني أشعر بالغربة الشديدة التي لا يمحوها إلا عودتي مرة أخرى إلى منزلي، لكن هذا الخيار لم يكن مطروحًا للأسف.

ملابسي مهندمة، وقد اعتنت بها أمي جيدًا، لكنني لم أحب أبدًا ارتداء تلك الملابس الشبيهة بفساتين الفتيات، والتي يطلقون عليها مريلة، شعرت بالحرج الشديد منها، فوضعتها داخل بنطالي مدعيًا أنها مجرد قميص، وارتديت فوقها سويتر من الجلد كان والدي قد أتى به من محافظة بورسعيد، في تلك الأيام السعيدة التي كانت فيها الأسواق هناك تعرض المنتجات المستوردة بأسعار زهيدة للغاية.

الأصوات تتعالى من داخل الفصول، ووالدي يسير بجواري كعملاق أتى من العصور الغابرة، وما هي دقائق إلا ووجدت نفسي جالسًا داخل فصلٍ ما، بجوار صبي مشاكس رطب الأنف.

لم أكن أعلم في البداية ما الذي يجب عليّ فعله، ومتى يجب أن أتناول تلك الشطيرتان التي وضعتهما لي والدتي داخل حقيبتي الخالية تقريبًا، إلا من كراسة على غلافها رسمه كرتونية، وقلم رصاص حاد السن كأنه رمح أحد مقاتلين طروادة.

الطفل المشاكس بجواري يرمقني بنظرات فضولية، وبدا كأنه متحمس لفعل شيءٍ ما، لولا دخول تلك المُدرسة فجأة.

كانت هي مُدرستي الحبيبة فيما بعد "سارة"، ذكرتني فور أن وقعت عليها عيناي بفاتن حمامة في ذلك الفيلم الذي لم أعد أذكر اسمه؛ لكنها تماثلها تقريبًا في كل شيء.

نفس الطول، وتصفيفه الشعر، والجمال الهادئ الذي يفوح من وجهها، ومن أعماق روحها.

نظرت لي وكأنها تعرفني منذ أمد طويل، وقالت وهي تشير إلى (دكة) تقع في الصف الأول:

- تعال ...اجلس هنا.

لا أعلم حقيقة ما سبب طلبها هذا؛ لكن على ما يبدو كانت تريد إبعادي عن ذلك الطالب المشاغب، وما أكد لي ذلك ملامح الطالب الهادئ الخجول الملتزم الذي انتقلت إلى جواره.

بدأ الدرس الذي كان عن عُمَرْ يذهب إلى المدرسة، وأمل تفعل شيئًا ما، وعلى الرغم من صوتها الهادئ، وابتسامتها الجميلة المشجعة؛ لكنني ما زلت أحمل بعض الرهبة في أعماقي، بينما عقلي يفر بعيدًا إلى منزلي بين والدتي وأشقائي، وعلى ما يبدو أنها لاحظت ذلك فقالت لي برقة:

- ما اسمك يا صغيري؟

قلت بكلمات متعثرة:

- أحمد.

صفقت بكفيها، وهي تقول:

- لنحي معًا الطالب الجديد أحمد..

صاح الجميع:

- أهلًا بك يا أحمد.

نظرت لي وقالت وهي تشير إلى أخر الفصل:

- والآن يمكنك أن تذهب إلى الوراء، وتختار لنا قصة كي أحكيها لكم.

تأملت تلك القصص المعلقة فوق خيط من الدوبارة في أخر الفصل، وبدأت أتحرك بخطوات خجله مترددة. القصص مبهجة للناظرين، تحمل أغلفتها صورًا طفولية ملونة لأرنب وسلحفاة، ثعلب ودجاجة، حذاء أحمر اللون، وأشياء عديدة لا أتذكرها.

لا أتذكر تحديدًا ما حدث بعد ذلك؛ فباقي الأحداث تتوارى خلف ضباب باهت داكن اللون، عجز عقلي عن اختراقه.

لكنني كنت سعيدًا، وبدأت أشعر أن المدرسة صارت منزلي الثاني، والسبب في ذلك بلا شك، هي مُدرستي الرقيقة الحسناء.

***

obeikandl.com

حجرة المكتب كانت خاوية، إلا من "مدحت" الذي كان جالسًا، يلتهم عددًا ضخمًا من الشطائر، تفوح منها رائحة الطعمية الساخنة لتملأ الفراغ.

أشار لي بنصف شطيرة، وهو يقول بفم ممتلئ:

- تعال أفطر.

هززت رأسي شاكرًا، وأنا أشير إلى المكاتب الخاوية:

- أين ذهب الجميع؟

أصاب وجهي بعض الفتات، وهو يجيب بمرح لم أجد ما يبرره:

- ذهبوا في اجتماع مع المدير المالي والإداري.

يبدو أنه لمح أثار قلة النوم على وجهي؛ فسألني بحيرة:

- ماذا بك؟ هل أنت متعب؟
- لا.. لم أنل قسطًا كافيًا من النوم فقط.
- وما الذي أقلق مضجعك؟ هل هي قصة حب يائسة؟

ثم انفجر ضاحكًا بطريقة مُنَفِّرَة، وكأنه قال نكتة ما.

لم أعقب، وجلست خلف مكتبي دقائق مفكرًا. هل سأستطيع أن أمارس عملي الحسابي بهذا العقل المشوش المكدود؟

إذا كانت الإجابة لا؛ فما الذي جعلني أحضر من الأساس؟

هل هو شيء تقريري بحت من كثرة تعودي الذهاب يوميًا إلى العمل، أم كنت أحتاج عقلًا أخر يبحث معي ذلك اللغز المعقد الذي أواجه؟

لو الحال كذلك فلا يوجد هنا من يصلح للمهمة.

لذلك فعلت أغرب شيء منذ ممارستي العمل، غادرت المكتب متوجهًا إلى منزلي.

ودون أن أخبر أحدًا.

حتى ذلك السمج الشبيه بفرس النهر "مدحت"، لم أوجه له أية كلمة، أو ألتفت إلى سؤاله المندهش:

- أحمد.. إلى أين أنت ذاهب؟!

هبطت الدرجات مسرعًا، خشية من أن يراني مديري المباشر، أو نائبته العصبية.

لا أعلم حقيقَّة ما الذي جعلني أُقدِمُ على شيء كهذا ربما يهدد حياتي المهنية؛ لكنني بدأت أدرك السبب سريعًا وهو يتنقل بين جنبات عقلي.

إنها "سارة" ولغزها الفريد من نوعه.

لقد صار حل اللغز بالنسبة لي أهم من حياتي ذاتها.

ولم أكن أعلم وقتذاك أنه سيسقطني إلى أسفل درك.

***

(5)

دلفت من باب المنزل إلى الصالة الهادئة الباعثة على الإرتياح.

والدتي على ما يبدو قد سبقتني في الدخول منذ لحظات. كانت تفرش أرغفة الخبز الطازجة ذات الرائحة المحببة على المائدة، و تضع أقراص الطعمية الساخنة الشهية، وكيس من الفول الفاتح اللون من أثر الخلطة والطحينة الممزوجتان به.

نظرت لي مندهشة وقالت:

- خيرًا يا ولدي، لماذا لم تذهب لعملك؟

قلت لها وأنا أرتمي على أحد المقاعد بالقرب من المائدة:

- أشعر ببعض الإرهاق يا أمي.

تحسست جبهتي وهي تقول:

- ربما أُصبت بالبرد.

ابتسمت:

- نحن في فصل الخريف يا أمي.. لا.. إنني فقط لم أنل كفايتي من النوم.

توجهت للمطبخ ووهي تقول:

- حسنًا يا ولدي.. هيا لتتناول إفطارك، ثم اذهب بعد ذلك لتنام قليلًا.

obeikandl.com

لم أُجِبْهَا فهذا ما كنت سأفعله بالضبط.

***

جاء استيقاظي وقت المغيب، وقد تعالى أذان المغرب من المسجد القريب للمنزل، وتعالى معه صوت عواء جروٍ صغيرٍ يقبع في شرفة أحد المنازل، وبدا لي كأنه يردد الأذان مع المؤذن.

رددت داخلي (سبحان الله) الذي تسبح كل المخلوقات باسمه.

تأملت هاتفي المحمول بأعين ناعسة.. أربعة اتصالات تزين واجهته المضيئة.. ترى مِن مَنْ؟

اتصال واحد من صديقي "حسان" الذي بالتأكيد يرغب في معرفة كيف صارت الأمور مع مُدرستي الغامضة، ولغزها العجيب. ثلاثة اتصالات من زميلتي "نورا"، ولا أعلم ما السبب الذي يجعلها تفعل ذلك؛ فنادرًا ما تهاتفني، ناهيك عن محادثتي أصلًا. ربما قلقت عليّ وتريد سؤالي عن صحتي. لا أعتقد.

ضغطت رقمها منتظرًا ردها، و:

- آلو.. نورا كيف حالكَ؟ لقد...

قاطعتني بلهجة معتذرة:

- آسفة جدًا يا أحمد.. لقد أصيبت ابنتي أروى بمغص شديد؛ فذهبت بها إلى الطبيب، واتصلت بك لتحل محلي في العمل؛ لكنني عرفت أنك أيضًا لم تذهب.
- نعم.. لقد كنت متعب قليلًا.. كيف حال أروى الآن؟
- بخير حال يا أحمد.. شكرًا لسؤالك.

يبدو أن "مدحت" الوغد لم يخبر أحدًا بذهابي من الأساس، صبرًا حتى أراه غدًا.

غادرت حجرتي إلى حمام المنزل كي أتوضأ للصلاة.. المياه تنساب في نعومة، وتنسل من بين أصابعي مطلقة صوتًا رقراقًا محببًا إلى النفس، وقد اختلطت مع قطراتها مشاعر السكينة والهدوء.

عدت مرة أخرى إلى حجرتي الغافية في ضوء شحيح شاحب آت عبر النافذة، جالبًا معه نسمات الليل الوليد.

بدأت أبدل ملابسي استعدادًا للخروج والصلاة في رحاب المسجد القريب؛ كي أنطلق بعدها إلى منطقة المقطم، التي ربما تحمل داخلها حل اللغز الذي يؤرقني..

وداخلي أخذ ينمو السؤال كأغصان شجرة اللبلاب.

تُرَى ماذا سأجد هنا؟

***

كم تبدلت منطقة المقطم، من مدينة غافية صامتة شبه موحشة، إلى مدينة تضج بالحركة والضجيج والأنوار.. تملأها الأسواق والمحلات التجارية.. تعج طرقاتها بالبشر الذين يتماوجون كقوافل النمل، وتتحرك في شوارعها السيارات والحافلات والميكروباصات بسرعة مكوكية.

توقفت بسيارتي مُرغَمًا بسبب الزحام، والسيارات المكدسة أمامي التي لا تجد شبرًا واحدًا إلا وقد احتلته كما يفعل الجنود في أرض المعارك..

شغلت نفسي بتأمل ما حولي حتى يبدأ الطريق في التحرك مرة أخرى.

ثمة سور مدرسة قديم يلوح من بعيد، ويتبدى لي من بين العمائر بلونه الكالح، وطلاءه المتساقط. مَدرستي الأثيرة القديمة التي طالما كرهتها، ولا أعلم حتى الآن لم كان المعلمون والمعلمات يفرطون في القسوة، وإثقال التلميذ بما لا يطاق من الواجبات المدرسية التي تلتهم كل وقته تقريبًا حتى يحين موعد النوم؛ ليستيقظ في الصباح ويعاود الكرَّةَ في دائرة محُكمة تتكرر يوميًا في رتابة وملل لا يتبدلان.

بدأ الطريق يتحرك شيئًا فشيئًا؛ ليخرجني عن تفكيري الذي انسحب من الماضي تدريجيًا، ليعود إلى نقطة الحاضر التي ما زالت تؤرقني، وما زلت أفكر فيها بطريقة أكثر عقلانية، بادئًا بسؤالٍ يطرق عقلي بإلحاح

لماذا كل هذا الانشغال بمُعلمتي؟

هل حقًا التمست منها بعض الحنان المفقود في صغري؟

أم لأنني لا أجد شيئًا مثيرًا يشغل حياتي المملة الكئيبة؟

أم أن الأمر أكبر وأعقد من هذا؟

صحيح أنني لم أعش قصة حب أبدًا؛ لكن هل من المعقول أنني أنبش عن ذلك في الماضي؟ ولو كان مجرد ماضي لِمَ كنت أفكر فيها طوال حياتي، ولِمَ لَم أنسها كما نسيت زملاء الدراسة، أو جيران مسكني القديم؟

هل تعلق قلبي الصغير بها، وطبع هيئتها وملامحها كفتاة أحلامي، وظل عقلي طوال تلك السنوات يبحث عمن تشبهها، وعندما لم يجد بعثها من ذكريات شبه منسية؟

لا أنكر أنني عند رؤيتها بالأمس انتفض قلبي بخفقاتٍ متسارعة؛ لكن هل هذا بفعل الحب، أم المفاجأة؟

أم كلاهما؟

هل رأيتها حقًا أم تمنيت هذا؟

أكثر ما أخشاه أن حياتي القاسية قد أصابتني بعُقَدٍ نفسية لا شفاء منها، وأن رؤيتها هي بداية النهاية لعقلي، الذي ظل يعمل بانتظام لما يقارب الخمسة وثلاثون عامًا، ثم اكتفى بما عانيته وبدأ طريق الانهيار.

لكن لا.. لا أعتقد هذا؛ فحياتي كما هي لم يَجِدُّ عليها جديد، كي يفقد عقلي قدراته، ويبدأ في صنع الهلاوس والضلالات.

لا بد أن ما رأيته حقيقة لا شك فيها، وسأثبت هذا الآن عندما أعثر عليها مجددًا.

سأثبت أن هذا واقع لا خيالات أو وهم صنعه عقلي، وأن هناك تفسير منطقي لما رأيته.

***

واصلت طريقي حتى وصلت إلى منطقة شبه مقفرة، تتناثر على أطرافها مجموعة من الفيلات المتفرقة، بعضها يغرق في السكون والظلام، والبعض الأخر يشع بالأنوار التي تحاول جاهدة دفع كتل الظلام بعيدًا عنها، ونجحت بالكاد في جعلها تقف على استحياء خارج حدود الضوء.

الطريق يزاد ظلامًا وسكونًا وقسوة.

السيارة تجاهد أثناء عبورها فوق الحصى والرمال، والصخور التي تفترش الطريق.

النجوم في السماء تزداد تألقًا كأنني في قلب صحراء قفر.

لمحت الفيلا المنشودة تقبع في هدوء على مبعُدَةٍ، وقد كساها الليل بلونٍ أسودٍ مدلهم.

توقفت على مقربة من باب الحديقة الحديدي التي بدت عليه علامات القِدَمِ وعلاه الصدأ. أطفأت المحرك ودقات قلبي تتعالى في تصاعد؛ حتى صارت في أذني كقرع الطبول.

المكان ساكن ومظلم دلالة على أن لا أحد هنا منذ زمنٍ طويل.

غادرت السيارة ببطء وحذر، وأنا لا أعلم ما الذي يجب عليّ فعله الآن؟ هل أقتحم المكان هكذا دون خوف من أن يراني أحد؟ أم أبحث عن شخص يعلم تاريخ الفيلا، وما قد يكون حدث فيها.

رأيت أن أفعل الشيئين معًا.

أدخل إليها ربما وجدت دليلًا، أو معلومة ما تنير لي الطريق، وإذا لم أجد فعليّ البحث عمن يعرف، ويمدني بالمعلومات. ربما بواب قديم أو أحد عجائز المنطقة.

البوابة الحديدية كئيبة مُقْبِضَة، تُذكرني بلونها الأسود، وتلك الأسياخ الحديدية التي تزينها بأبواب المقابر، التي يسكن الموت خلفها برائحته المخيفة، وأشباحه الغامضة التي تتجول ليلًا.. لولا أن هذه حياة واقعية لتخيلت مستذئب يمرح هناك، ويعوى في ضوء القمر، منتظرًا فريسته الغافلة حتى تتقدم إليه غير منتبهة أنها ستُمسِي وجبة عشاء في لحظات قلائل.. أو جثة تغادر قبرها لتشارك الأشباح في حفلتهم الساهرة.

نفضت رأسي بعنف كي أبعد عنها تلك الأفكار الخيالية المخيفة، وتقدمت أكثر من البوابة التي تَدَلَّى نصفها الأيسر بفعل تحطم أحد مفصلاته التي تربطه بالإطار الحديدي، المثبت في جدار سور الحديقة.

وعبرت مرتجفًا إلى الداخل.

الحشائش مرتفعة للغاية، وقد ضربتها يد الإهمال؛ فصارت كأعشاب الغابات المَطِيْرَة، حتى أنني تخيلت للحظة أن هناك نمر ما جائع، يختبئ في

مكر، حتى يستعد للانقضاض الوحشي على فريسته، التي هي أنا بالمناسبة.

هناك عدة حفر متناثرة في أرجاء الحديقة، مخلفة الكثير من أكوام الطمي الجاف.

ثمة نافورة شبه محطمة، وقد غزتها الحشائش بدورها، وعلتها الأتربة محيلة لونها إلى شيءٍ كالح غير محدد، لكن الشبه بينها وبين الترع والمصارف صار كبيرًا، وهذا ما جعلني أتساءل في حيرة..

إذا كنت رأيت "سارة" حقًا؛ فلماذا لا يوجد من يعتني بالمكان؟

أم كنت أتوهم بالفعل؟

الفيلا تتبدى لي كوحش خرافي، يقف في صمت مراقبًا أي دخيل؛ كأنه يحرس المكان بأعين يقظة.. لكن عند اقترابي وجدتها صارت خَرِبَة، وربما مأوىً للخفافيش والكائنات الليلية، كما هو الحال مع باقي المكان، إلا أنها كانت أسوء بكثير، بتلك الجدران الشبه متهدمة، واللون الأسود الذي يظلل أعلى النوافذ المهشمة المحترقة.

كأن المكان قد تعرض لحريقٍ هائل دمره.. لكن لا.. تلك الجدران المهدمة، وقطع القرميد الأسود المتناثر على أرضية الفيلا الخارجية المبلطة، تدل على شيء أكثر قوة وفاعلية، وأعنف بكثير من مجرد حريق.. الحريق لا يؤذي الصخور بهذه الطريقة.

هذا انفجار بكل تأكيد..

شيء ما انفجر بالداخل ممزقًا أرجاء الفيلا.. انتزع بعض الجدران وأسقطها، وقذف بقطع القرميد المشتعلة إلى الخارج، ثم تكفلت النيران بالتهام ما تبقى في الداخل، فعلى ما يبدو أن النجدة جاءت متأخرة كثيرًا، أو أن ما حدث كان سريعًا للغاية.

ترى ما الذي حدث هنا؟

عبرت أحد الفجوات التي خَلَّفَهَا الإنفجار إلى الداخل، ربما وجدت ما يفسر لي حقيقة ما حدث. المكان يسبح بشدة في بحر من الظلماء.. ظلام خام.. بِكر.. كثيف.. كأن الضوء لم يخلق هنا.

سلطت الضوء المتصاعد من مصباح هاتفي المحمول، بعد أن أشعلته، وأدرت شعاع الضوء الشحيح في المكان.. آثار الحريق ممتدة إلى كل شيء بالداخل؛ لكن ما لفت نظري كان ذلك الشيء العجيب الذي تم بناءه في منتصف الصالة بأيدي نحاتٍ مُختل.

بدا لي أشبه بكهف أحد الدببة، أو عرين لأحد الوحوش الضارية.. الفرق الوحيد أنه لم يكن من صنع الطبيعة.

شخص ما قام ببناء هذا الشيء العجيب!!

لكن لماذا؟

هناك شيء أمامه يشبه البِركة، لكنها كانت جافة تمامًا من المياه.

جئت كي أبحث عن حل لغز واحد؛ لكن على ما يبدو سأعود ومعي لغزان، وهذا ما جعلني ألعن نفسي في سري، وألعن حماقتي التي جعلتني أتوغل كثيرًا في هذا المستنقع المخيف..

ماذا كنت أظن أنني سأجد هنا حقًا؟

اللعنة على كل شيء.. سأنصرف من هنا، ولتذهب "سارة" بأسرارها إلى الجحيم.. ما شأني بكل هذا.

هنا سمعت ذلك الزئير الذي جمد الدماء في عروقي.

وما زادني رعبًا هو تلك العينان المخيفتان.

زوج من الأعين الحمراء تلمع في قلب الظلام، لا أريد أن أتخيل هيئة صاحبها.

***

obeikandl.com

أواخر الثمانينات..

استيقظ "عماد" متعجبًا من أنه لا زال على قيد الحياة، وليس على الجانب الغيبيّ الأخر.

الظلام يكتنف المكان، والألم يفتك برأسه وينتشر على جسده. حاول الاستناد على كفيه كي ينهض؛ لكن تلك الزمجرة جعلته يتصلب على نفس الوضع، متسائلًا في أعماقه، هل هو إنذار بعدم الحركة، أم مجرد زمجرة لا شأن لها به؟

أدار رأسه وهو يتلفت بحذر، الظلام ما زال يفترش الموجودات، لكن عينيه بدأتا تعتادان على الرؤية قليلًا.

أين ذلك الشيء الجحيمي؟

لمح مسدسه ملقى في إهمال فوق الصخور؛ فمد أصابعه بحذر كي يستعيده.

المسدس خالٍ تقريبًا من الرصاصات، لكنه يحمل داخل طيات ملابسه خزينة رصاص أخرى، لمواجهة أي خطر إضافي محتمل.

ماذا ستفعل الرصاصات ضد هذا الشيء؟ لقد قام بالتجربة فيما سبق، وأغرقه بوابل من الرصاصات، ولم تكن تجربة ناجحة بأي حال.

النيران.

نعم لقد تذكر الآن، يجب أن يحرق هذا الشيء، ويضع القرار النهائي بين يدي الله، وبين يدي ألسنة اللهب الذي ستلتهم جسدها وتبيدها كما يأمل.

لكن من أين سيأتي بالنار؟

أغلق عينيه مفكرًا، أي مكان في الفيلا به أشياء قابلة للاشتعال؟

المطبخ بالتأكيد، ربما يحوي بعض الكحول أو الكيروسين، ناهيك عن اسطوانات الغاز المتصلة بالموقد، هذا ما هداه تفكيره إليه.

حرك رأسه بحذر ليعلم أين يقع المطبخ تحديدًا، يجب أن يُنَفِّذَ كل شيء بسرعة بالغة، بحيث لا يدع مجالًا لهذا الشيء بمنعه أو قتله، قبل أن ينفذ خطته.

كل ما عليه أن يركض مسرعًا إلى مكان المطبخ، ويحاول أن يُشْعِلَ النيران في أي شيء، وإذا لم تساعده سرعته عليه أن يطلق النار على اسطوانات الغاز، ويفجرها تفجيرًا.

يعلم أن في هذه الخطة نهايته لأن الإنفجار سيمزقه معها، لكن ماذا أمامه غير ذلك، هي لن تتركه حيًا بالتأكيد وستلتهمه في أية لحظة بدئًا من الآن، ليقضي عليها وليكن ما يكون، ويخلص المنطقة من شرورها، وربما سيخلص العالم بأكمله كذلك.

لمح حجرة في زاوية البهو، بدت له كالمطبخ. لا يستطيع تبين كنهها الآن؛ لكن يأمل في أعماقه أن تكون هي.

بأصابع متوترة حذرة أخرج خزينة الرصاص من ملابسة، وبحذر أكبر وضعها داخل كعب مسدسه بعد أن سحب الفارغة.

بقى فقط أن يدخلها إلى النهاية؛ لكنه عند فعل هذا سيصدر المسدس تكة معدنية، سيتردد صداها داخل المكان الساكن كقرع الطبل، وستنتبه تلك الشيطانة له. للأسف هو مجبر على ذلك فلا توجد أي طريقة أخرى يعرفها لتعمير المسدس.

على بركة الله.

قالها بصوت خافت، وهو يضرب طرف الخزينة من أسفل، وبسرعة البرق جذب الأجزاء المعدنية؛ ليصير السلاح القاتل معدًا للإطلاق.

***

وجد جسده يطير فجأة ويضرب الصخور، هكذا بلا مقدمات. لم يسمع زئيرًا أو صوت خطوات تعدو نحوه، كل ما شعر به هي تلك الضربة العنيفة التي بدت له كضربة مقارع من حديد، كادت أن تحطم عموده الفقري، وبأوصاله المتفككة بعد أن سقط أرضًا.

حرك رأسه بصعوبة لينظر إليها، وهو يقول بأنفاسٍ لاهثة:

- هذا ليس عادلًا أيتها الشيطانة.. أتهاجميني على حين غرة؟

خرجت كلماته لاهثة متقطعة كأنه يعاني الغرق، أو كشخص مصاب بالفواق؛ فعرف أن سقطته لم تمر بسلام، وأن هناك إصابة شديدة إن لم تكن قاتله، قد أصابت حجابه الحاجز.

آلامٌ رهيبة لا قِبَلَ لأحد بمجابهتها، انتشرت داخل أعضاءه الداخلية من ناحية الصدر والبطن؛ فعلم أن استنتاجه صحيحًا، وليت الأمر اقتصر على هذا، هناك كذلك نزيف داخلي يتسرب داخل أعماقه، وما هي إلا دقائق ويغرق في دمائه.

حاول النهوض من سقطته لكن الآلام كانت رهيبة بحق، آلام تنتشر بسرعة، وتتصاعد إلى رأسه كالنار في الهشيم، حاول احتمالها قدر المستطاع، محاولًا أن يؤجل موته حتى يصرعها وينتهي منها تمامًا.

بخطواتٍ بطيئة تحرك في اتجاه ركن البهو، وتلك المخلوقة المخيفة تراقبه بفضولٍ وحشي، يشبه مراقبة الطيور الجارحة إلى فرائسها.

سعل بشدة ليشعر بعدها بنارٍ حارقة تنتشر داخل رئتيه، وبالدماء اللزجة ذات المذاق الصدئ، تندفع إلى الخارج ليتناثر رذاذها في الهواء، ويغرق شفتيه ورقبته.

رمقها بنظرة حادة غاضبة، وهو يقول بصوت متهدج مرتعش:

- سأقتلكِ حتى ولو كان هذا أخر شيء سأفعله في حياتي.

ارتسمت على شفتيه ابتسامة مريرة بمذاق الدم، بالفعل هذا أخر شيء سيفعله في حياته، هذا إذا استطاع الصمود لينفذ خطته، التي صارت بعيدة جدًا كبعد الأرض عن السماء.

ألمٌ رهيبٌ ينتشر على صدره بلا مقدمات أو سبب منطقي، جعله يتنبه بذهولٍ عارم إلى مخالبها التي مزقت لحم صدره في قسوة وبشاعة، وإلى شيءٍ أخر أغرب بكثير.

ربما أعجب شيء يمكن أن يراه بشري في حياته على الإطلاق.

شاهد قلبه مازال ينبض بين مخالبها، والدماء تتقاطر منه بعد أن انتزعته عنوة من داخل قفصه الصدري.

وما هي إلا لحظات حتى سقط أرضًا جثة هامدة، بملامح تعكس مدى الألم والرعب الذي عاناه، وبأعينٍ متسعة ومتصلبة، كأنها ما زالت تراقب قلبه الذي توقف تمامًا عن النبض.

***

obeikandl.com

(6)

الآن أدرك الحقيقة المجردة.

"سارة" لم تجعلني قط أحب المَدرسة؛ لأنني ظللت حتى تخرجي أكرهها كما لم أكره أي شيءٍ أخر في حياتي، بمدرسيها الغاضبين الباعثين على الرهبة، وعِصِيِّهِمُ التي لا تكاد تترك أيديهم، كأنها عضوٌ جديد نبت في أجسادهم، يزعقون ويضربون بسببٍ وبغير سبب.. وبالطلبة المشاغبين الذين لا يجدون شيئًا أخر يفعلونه، إلا تحويل حياتي إلى تعاسة، وجحيم مُسْتَعِرّ.

"سارة" جعلتني أحبها هي.

قد يكون هذا في مرحلة الطفولة حبًا بريئًا، كما يحب المرء والدته.

وربما حدث بالفعل بسبب بثها الحنان المفقود مرة أخرى إلى روحي المعذبة، وإزالة بعض الرهبة مني، ومَدِّي بالأمان المنشود، وبعض المشاعر الجياشة التي لم يكن يعلم عقلي الصغير ماهيتها.

ربما هذا ما حدث حقيقة، وأُقِرُّ وأعترف به.

لكن هذا كان في السابق، وفي مرحلة عمرية محددة، لكنني الآن فقط أعلم أنني أحبها بالفعل. قد يكون هذا مجرد وهم صنعه عقلي بألاعيبه النفسية، لكنني لا أعلم هذا، كل ما أدركه هو الحب الذي نمى وترعرع طوال سنواتي العمرية.

لماذا لم أحب أية فتاة طوال فترة مراهقتي وحتى الآن؟ بل لماذا لم أنسها أبدًا؟

أعتقد أن حبي لها هو إجابة هذا السؤال، وكل ما أستطيع تفسيره هو أنني في الصغر كنت أحبها بالفعل حب طفولي أخوي؛ لكنني كبرت الآن، وتحول ذلك الحب إلى شيءٍ واضح وأكبر وأكثر نضجًا. شيء لم يستطع الطفل الذي كنته أن يفهمه.

صحيح أنه توارى بعيدًا في غياهب الحياة اليومية، لكن عند رؤيتها عاد مجددًا ليطفو على سطح فؤادي، ليذكرني بفتاة أحلامي الفريدة من نوعها، والوحيدة التي احتلت قلبي بهيئتها الملائكية طوال ما يقرب من ربع قرن.

أدرك عقلي الحقيقة الآن، وكأنه يرغب في مَدّي ببعض السكينة، وأنا في مواجهة ذلك الشيء المخيف، بزئيره الوحشي، وعيناه الحمروان كالدم.

تجمدت في مكاني متصلبًا كتمثالٍ حجريٍ يقف في واجهة أحد المتاحف، بينما قشعريرة باردة أخذت تتسلق ظهري كخنفساء ثلجية. قلبي يرتجف، وينقل ارتجافه إلى سائر جسدي، و شعيرات ساعدي تنتصب كالأشواك.

الظلام لا يُظْهِرُ إلا زوجٌ من الأعين المخيفة المحدقة بي، لكن بعض الضوء الباهت المتسلل من الخارج أعطاني لمحة سريعة زادتني رعبًا.

رمقته بهلع وأنا أتساءل عما يكون، وأنا أشاهد حدود جسده التي تحيط به الظلال.

مجرد كتلة من الظلام المقبض المخيف تتخذ هيئة أقرب إلى الجسد البشري، ويملك عينان حمراوان تومض في الظلام. أقرب ما يمكنني وصفه به أنه يبدو كشبح أحد الموتى، أو شيطان مريد قادم من أعماق الجحيم.

لم أملك شيئًا بطبيعة الحال إلا الفرار وبسرعة.

الفرار كأن الشيطان ذاته يعدو في أَثَرِي.

تراجعت إلى الخلف بحذر، ثم على حين غرة أطلقت ساقيّ للريح، وكأنني عدَّاء في سباق ماراثون، يرغب في احتلال المركز الأول.

جدار الفيلا الداخلية يقترب مني في شدة، وبقفزة واحدة صرت في الخارج، لكن حظي السيء جعل بنطالي يشتبك في أحد الأسياخ الحديدية البارزة.

وقعت كالفأر في المصيدة، وأنا أراقب ذلك الشيء يقترب. لا.. حاولت التملص بعنف فأدى ذلك إلى تمزقه بعنف. لا بأس بنطال ممزق لهو خير من جسد ممزق.

سقطت على وجهي في قلب الحديقة بسبب رد الفعل، لكنني أسرعت بالنهوض، وواصلت العدو بسرعة محمومة.

لا أعلم حتى الآن كيف نجوت بحياتي؟

كل ما أذكره هو قفزي داخل السيارة، والإسراع بها وسط عاصفة ترابية صنعتها العجلات الزاعقة.

***

لا أنكر أن منظري كان مضحكًا للغاية، وأنا أغادر السيارة ببنطالٍ ممزقٍ من جهة اليسار، وقد ظهر فخذي عاريًا، كساق راقصة ترتدي ملابس رقص فاضحة، هذا إذا كانت تملك ساقًا خشنة مُشْعِرَة.

صعدت درجات السلم في حذر، متلفتًا حولي كاللصوص، لا أرغب أن يشاهدني أحد الجيران على هذا الوضع المخجل.

باب الشقة يظهر أخيرًا.

أين المفتاح؟ ترى هل سقط عندما كنت...

حمدًا لله.. ها هو.

شكرت الله وأنا ألوذ بجدران منزلي الآمن، سعيد أنني ما زلت على قيد الحياة، وأن أحدًا لم يراني و...

- ما هذا؟!

كان هذا صوت والدتي المندهشة مما تراه، والتي لن تصدق بطبيعة الحال أنني كنت أهرب من شبح، يسكن فيلا خربة في منطقة قفرة بالمقطم.

***

غادرت المنزل بعد أن بدَّلْتُ ملابسي، وبعد أن أقنعت والدتي أن التمزق حدث من جراء اشتباك ساق بنطالي بباب السيارة.

الساعة تقترب من العاشرة مساء، والجو معتدل في انسجام، تتخلله نسمات رقيقة ناعمة، تتلاعب بوجهي وتداعبه في حنوٍ بالغٍ.

عبرت نفق الأزهر متجهًا إلى ميدان العتبة، ومنه إلى أحد شوارع وسط البلد الشهيرة، حيث ينتظرني أصدقائي هناك في ذلك المقهى الجانبي، كي نتجالس ونتسامر كعادتنا كل أسبوع، كنت أكثر رغبة اليوم في محادثتهم،

وقص عليهم ذلك اللغز، وتلك الأحداث الرهيبة التي مرت بي منذ قليل. صحيح أنني حكيتها لصديقي المقرب "حسان" – الذي سيجالسنا أيضًا- لكنني كنت أحتاج إلى آراءٍ أخرى، وعقول مختلفة أكثر تفتحًا أو أكثر انغلاقًا، فكل رأي سيفتح لي بابًا جديدًا، ورؤية أكثر شمولًا.

ثلاثة هم بخلاف "حسان"

"عمر" الطبيب الميكانيكي، طبيب لأنه يعمل كطبيب أمراض باطنه، وميكانيكي لأن هيئته شاذة جدًا عن هيئة أي طبيب، بملامحه السمراء الشبيهة بملامح الهنود في الأفلام، وجسده الفارع الضخم كأجساد الصعايدة، وملابسه التي تنم عن عدم اهتمام، فتجدها مجعدة ومهملة بشكلٍ مُبالَغ فيه، كأنه لم يسمع أبدًا عن لفظة كَوَّاء، لكن هذا لا يمنع أنه شديد التفاني في عمله، ويملك حِسَّ دعابة عالٍ، قادر على انتزاع الضحكة من أفواه أكثر الناس شقاءً.

"خالد" طبيب أيضًا لكنه متخصص في أمراض النساء، نحيف بعض الشيء، وأنيق في ملبسه، الشيء الوحيد الذي يؤخذ عليه هو حبه الشديد للحلوى بكافة أنواعها، حتى أن بعض أسنانه قد تساقطت بفعل التسوس الشديد. عاقل. متزن. يكسب حب الناس له بكل سهولة.

الشيخ "حسن" وهو أكثرهم ظُرفًا وثرثرة، نحيف أيضًا له بشرة شديدة السمرة، ويملك لحية سوداء خفيفة، خريج كلية الأزهر، ويعمل بوزارة الأوقاف، وعلى خلاف كل شيوخ الأرض؛ فهو الوحيد الذي يهوى وبشدة مشاهدة أفلام الكونغ فو، خاصة الكوميدية منها، والتي تعتمد على الحركات الضاحكة. طيب القلب، عازف تمامًا عن الزواج دون إبداء

الأسباب، إلا سبب وحيد لا يُقنع طفل صغير، وهو أنه لا يستطيع فهم الأنثى ناهيك عن العيش معها ومعاشرتها.

هذه هي شلتي الصغيرة من الأصدقاء، الذين على الرغم من اختلاف أهواءهم ومشاربهم، يجتمعون على صفة واحدة أحبها، وأعتبرها كنزًا من كنوز الدنيا، وهي طيبة القلب، ونقاء الضمير.

المقهى يقترب، وعيناي تنبش مقاعدها في سرعة بحثًا عن شلتي الصغيرة. ها هم هناك يحتلون الرصيف، ويتضاحكون في انسجام.

غادرت سيارتي مبتسمًا بدون أي سبب يدعو إلى ذلك، وتقدمت منهم بهدوء قائلًا:

- السلام عليكم يا رجال.

تعالت صيحاتهم مرحبة كما هي عادتهم، ووقفوا جميعًا كي نتبادل العناق والمصافحات المصرية الشهيرة، بما يتخللها من قبلات، وضربات على الكتف.

جلست بينهم متسائلًا:

- لماذا لا تلعبون الطاولة كعادتكم؟

أجاب "عمر" بسخريته المرحة:

- كنا ننتظرك حتى تسألنا لماذا لا تلعبون.

ثم انفجر يضحك بقوة، جعلتنا جميعًا نصاب بعدوى الضحك.

أشار "خالد" إلى مقاعد المقهى الممتلئة عن أخرها، وقال:

- المقهى ممتلئ على غير العادة، وجميع علب الطاولة تم أخذها.

أضاف "حسن" وهو يحرك يديه بحركات شبيهة بالكنغو فو، قائلًا في حماسة:

- هل ترغب في أن أضرب لك أحدهما، وأجلب منهم الطاولة عنوة؟

فعقب "عمر" في سخرية لاذعة:

- احذر فقط حتى لا يجذبك أحدهم من لحيتك.

صاح "حسن" في جدية شديدة لا يوجد ما يبررها:

- ومن هذا الذي يستطيع فعلها معي؟

ثم أشار إلى أنحاء المقهى، وأردف:

- أنا بعون الله أستطيع ضربهم جميعًا، ولن يقدروا على التغلب عليّ، حتى ولو كان عددهم مئة.

قلت له مهدئًا:

- قلبك أبيض يا شيخ حسن، لماذا ستفتري على الخلق، وهم لم يفعلوا لك شيئًا؟

أجاب وقد بدأ يهدأ:

- لأنكم تظنونني أمزح.. وأريد أن أثبت لكم قوتي.. أنا أتدرب يوميًا على مشاهد الأفلام، حتى صرت مقاتلًا لا يُشَقُّ له غبار.

عقب "عمر" بسخرية:

- مقاتل لا يشق له جلباب.. هع هع هع هع.

صحت بهم في سأم:

- دعونا أرجوكم من هذا المزاح؛ فهناك شيئًا عجيبًا حدث لي.. وأريد أن أعرف رأيكم فيه.

يبدو أن كلماتي كان لها تأثيرًا عظيمًا، لأن الجميع صمت مرة واحدة عن الكلام، وتوجهوا لي بنظراتهم متسائلين عما يكون هذا الشيء.

أخذت نفسًا عميقًا، ثم بدأت أحكي لهم كل شيء من البداية، علاقتي بسارة، ولغز رؤيتي لها وهي ما زالت على هيئتها التي لم تتبدل، حتى ذهابي إلى تلك الفيلا، ومواجهتي لذلك الشبح أو أيًا كانت ماهيته، ونجاحي في الهروب منه بمعجزة.

عندما انتهيت تمامًا، غمرني شعورٌ كبيرٌ بالراحة لا أعرف له سببًا، وإن كنت أُرَجِّحُ أن إلقائي بمشكلتي في ملعبهم، ساعدت كثيرًا من تخفيف آثار تلك الحيرة والتوتر والقلق الذي أعاني منهم، ويضربون أعماق عقلي.

نظرت إلى وجوههم منتظرًا ردود أفعالهم في صبر، وتعلقت عيناي بأفواههم في انتظار ما سيقولون.

ثم تنهت إلى غياب "حسان" فجأة؛ فقلت متعجبًا:

- ألم يأتي حسان اليوم؟

***

(7)

أتاني صوته من خلفي قائلًا:

- ها أنا ذا.

نهضت لأصافحه بحرارة، وأنا أقول:

- لماذا تأخرت هكذا؟ كنت أريدك هنا كي تمهد لهم ما سأقول، ولتستمع معهم لمغامرة الليلة.

جلس متسائلًا:

- وهل حدث شيء الليلة؟
- نعم.. واجهتني مغامرة مرعبة.

بدأت أقص عليه مجددًا ما قابلته منذ سويعات في تلك الفيلا المهجورة، وظل هو منصتًا باهتمام دون أن يعقب، وما أن انتهيت حتى صاح مناديًا النادل، قائلًا لي:

- هل شربت شيئًا؟

هززت رأسي نافيًا، وقلت:

- لا.. لم أطلب شيئًا بعد.

أتى عامل المقهى بخطى سريعة، استمع إلى طلباتنا لحظات، ثم انطلق كي يلبيها، بينما قال " حسان" في هدوء:

obeikandl.com

- أرجح أن ما رأيته الليلة داخل الفيلا، مجرد كلب شارد اتخذ المكان مأوى له.

هتفت وأنا غير مقتنع بتبريره الواهي:

- كلب؟! هذا مستحيل، لقد كانت له تضاريس شبه بشرية.

قال عن غير اقتناع محاولًا هدم ما تفوهت به:

- هل تعتقد أنه لو كان بشريًا كما تَدَّعِي، ستكون له أعين متوهجة في الظلام، ويصدر من حلقة زمجرة؟

أجاب "خالد" بحكمة:

- الأرجح أنه متشرد، انعكست على عينيه ضوء البطارية.

سألته متعصبًا:

- وماذا عن تلك الزمجرة؟

قال ببرود أعصاب:

- الحل بسيط.. هذا متشرد أبله لا يعي، ولا يستطيع النطق.

أصدقكم القول أنني الآن فقط بدأت أخرج فكرتي، التي تكونت عن ذلك الشيء المتوحش من رأسي، وأقتنع شيئًا فشيئًا بما يقول، فالعناد لم يكن من طبعي، وأساطير الكائنات الليلية المخيفة، لم تكن من الأمور المنطقية التي أصدقها.

لا بد أن تفسير ما حدث هو ما فسره لي الآن بكلمات قليلة، أضف إلى ذلك خوفي الغريزي من المجهول، وذلك الظلام الذي كان يعم الأرجاء، الذي لم يجعلني أتبين ما أرى، وجعل عقلي يمارس ألاعيبه من الأوهام والأفكار الغير معقولة.

أطرقت برأسي وقد اقتنعت تمامًا؛ لكن هذا لم يبعد عن عقلي لغز "سارة" بعد، فسألته وقد هدأت أعصابي تمامًا:

- وماذا عن تفسير مُدرسة الابتدائي التي لم تَشِيخُ حتى الآن؟

أجاب "عمر" هذه المرة:

- ربما تَتَّبِعُ حِمْيَةً ما.

رمقته بنظراتٍ غاضبة، وكدت أعلق على سخريته؛ لكنه قاطعني مهدئًا:

- أنا لا أمزح صدقني.. هناك العديد من نجمات السينما عندما تراهن تظنهن في ريعان الصبا والشباب، على الرغم من عبورهن حاجز الستين.. ألم تسمع عن عمليات التجميل، والحمية التي تعيد النضارة إلى البشرة؟

رأي منطقي آخر يحطم الحجر الأخير في جدار أفكاري المسبقة، يبدو أنني كنت أحمق بحق، وأنا أعتقد أنها ما زالت في نفس السن، التي كانت عليه من ربع قرن. لا أعلم لماذا حقًا؟ هل كنت أرغب بالفعل أن تكون شابة وجميلة كما عهدتها؟

الأمر إذن له أبعاد نفسية معقدة كما قال "حسان"، وهذا يعني أنني في أمس الحاجة إلى علاج نفسي مكثف.

نظرت إلى الشيخ "حسن" منتظرًا أن يدلو بدلوه فيما نقول، فبادلني النظرات وكأنه فهم ما أرمي إليه، وقال:

- أحترم أرائكم جميعًا، وأجدها منطقية للغاية؛ لكنني لا أفهم لماذا تستبعدون الغيبيات، وأن هناك احتمال لا بأس به، أن ما رآه أحمد حقيقة لها تفسير ما.. هل لأن عقولكم قاصرة، ولا تؤمن بالجن والشياطين وما شابه ذلك؟

انفجر "عمر" يضحك حتى دمعت عيناه، وقال:

- لقد انقلبت الآية يا شباب.. المفترض أن نكون أكثر اقتناعًا بمواضيع الأشباح ومخلوقات الليل، وأن الشيخ هو من يعترض مدعيًا أن هناك تفسير عقلي أو ديني ما.

أجابه الشيخ في حكمة:

- لا يوجد فرق بين شيخ أو رجل الشارع في مثل تلك الأمور، وليس لأن تعليمي ديني سأُكَفِّرُ من يقتنع بها.
- لماذا إذن تُكَذِّبُون العرافين، ومن يدعي فك المس والسحر وطرد الجن وما شابه ذلك.
- إيماني بها لا يعني أن أقتنع بكل شيء، مثل أمور الدجل والشعوذة، هناك الكثير من الأحاديث والآيات القرآنية تثبت أن

الكثير منها ادعاء، وأن القليل منها حقيقة لا مراء فيها، وإلا ما كان هناك الدعاء الذي نقوله قبل ولوجنا إلى الحمام، ونستعيذ به من الخبث والخبائث، أو من شر الطريق وما إلى ذلك.. أو سُوَرٍ كالناس والفلق نستعيذ بها من شر ما خلقه الله عز وجل.. نعم هناك أمور غيبية مقتنع بها تمامًا، ليس لأنها في القرآن والسنة فقط، بل لأنني واجهت بعضها بنفسي أيضًا.

حملقت به غير مصدق، وقلت:

- أنت؟! أنت واجهت أشياء خارقة؟
- ليست أشياء خارقة كما ترون في أفلام الرعب الرخيصة، أو تقرأون في المجلات والكتب الرخيصة؛ لكنها أشياء غير بشرية على كل حال.
- مثل ماذا؟

نقل نظراته بين أعيننا الفضولية، ثم ابتسم وقال:

هناك حادثة مخيفة حدثت لي سأقصها عليكم، واقسم بالله أنها حدثت كما هي، ولن أغير فيها حرفًا.

صمت قليلًا ثم قال ضاحكًا:

- لكن بعد أن أتعشى لأنني أكاد أسقط من شدة الجوع.

تعالت صيحاتنا المعترضة؛ لكن "حسان" أوقفنا بإشارة من يده وقال:

- هذه (العزومة) كلها عليّ.. من منكم يرغب في تناول طعامه أيضًا؟

قال "عمر" متلمظًا:

- أنا بالتأكيد.

بينما قال "خالد":

- إذا مررت بجوار أي محل للحلوى فأتني بما تجود به.

نظر لي "حسان" متسائلًا:

- وأنت؟

نهضت من جلستي قائلًا:

- لست جائعًا؛ لكنني سأذهب معك ربما وجدت شيئًا يفتح شهيتي.

***

ترجلنا في شوارع وسط البلد الدافئة بصحبة الناس، الذين لا يبالون بأي شيء في العالم، وكأن كل مشاكل الوطن قد تلاشت، وصرنا دولة من دول العالم الأول.

البعض يتابع برنامج ساخر على شاشات التلفاز في المقاهي المجاورة، والبعض الأخر يلعب النرد أو الدومينو ضاحكًا في مرح. آخرون يترجلون مستمتعين بجو المساء الخريفي المعتدل، يتسامرون ويثرثرون في أشياء

obeikandl.com

تبدو مهمة بالنسبة لهم. ثمة من يراقب واجهات المحال الزجاجية، وكأن مشاهدة الملابس والأحذية المعروضة تمثل متعة في حد ذاتها.

وقفنا أمام أحد المطاعم المكدسة بالجائعين، نتأمل قائمة المأكولات، ونستمتع برائحتها الشهية المتصاعدة من الداخل.

لم أكن يومًا أكولًا؛ لكنني مع ذلك أحب الطعام كثيرًا خاصة لو كان شيئًا جديدًا، بعد أن سأمت معظم الأكلات المتعارف عليها، والتي صارت مجرد شيءاعتيادي لسد الجوع لا أكثر. أطعمة المطاعم لذيذة حقًا وبها نكهة مختلفة، والأكثر متعة هو استكشاف أكلات لم أَذُقْهَا أو أسمع بها من قبل.

سألني "حسان" في اهتمام:

- هل ستأكل من هنا؟

تأملت اللوحة العملاقة المصنوعة من الجلد الصناعي، بما تحمله من صور وأسماء أكلات تبدو شهية. أخذت أقرأ الأسماء متسائلًا عن مكوناتها، التي لا تظهر بوضوح، ما لفت نظري فقط هو الأرز البسمتي المخلوط بالحبهان. كنت أعشقه كثيرًا خاصة لو تم صنعه بعناية.

وقفت حائرًا لا أعلم ما الذي سأطلبه؛ فصاح صديقي بنفاذ صبر:

- ليس أمامنا الليل كله كي تختار.. أم أتركك هنا، وأذهب وحدي؟

شعرت ببعض الغضب فقلت:

- تذهب! إلى أين؟

ضحك في مرح وقال:

- هل تظن أننا سنأكل من هنا؟! نحن وحوش يا صديقي، وهذه الأكلات لا تسد رمق طفلٍ صغير.

سألته متعجبًا:

- ماذا ستأكلون إذن؟

حدجني بنظراته دقائق كأنه يفكر في شيءٍ ما، ثم أجاب:

- أمعقول أنك لا تعلم حقًا؟! نعم هذا صحيح.. على الرغم من أننا نتقابل كثيرًا على هذه المقهى، لكنك دائمًا تأتي بعد أن نكون قد انتهينا من الافتراس.

قلت بخجل:

- ليس هذا السبب فقط؛ لكنني كنت آكُلُ شيئًا وأنا قادم في الطريق.
- وما الذي اختلف اليوم؟ لا تقل لي موضوع سارة والفيلا.. لقد سأمت هذا.
- لا يوجد موضوع غيره.. لقد جعلني لا أتناول أي طعام اليوم إلا الفطور، حتى أنني كنت قد نسيت جوعي تمامًا مع اندماجي في محاولة فهم ما يحدث.

obeikandl.com

- لا عليك يا صديقي.. هيا بنا إلى الشارع الخلفي وسترى بنفسك.

واصلنا سيرنا مبتعدين عن ذلك المطعم، ودخلنا في أحد الشوارع الجانبية، لأجد نفسي في زقاق ضيق، وإن كان يعج أيضًا بالحركة، وهذا جعلني أفكر جديًا في العيش هنا، حيث الصحبة الآدمية المستديمة على مدار الساعة، بعيدًا عن هدوء حي مدينة نصر، بشوارعه الواسعة، وصمته الشبيه بصمت القبور. هناك صحيح بعض المناطق الشعبية التي تعج بالمارة والباعة الجائلين، و شوارع تجارية شهيرة لا تكاد تخلو من موطئ قدم؛ لكن منطقتي السكنية بالذات هادئة هدوءًا يكاد يصيب المرء بالصمم، ثم إن وسط البلد أكثر حيوية، وأكثر نشاطًا وحرارة.

توقفنا بعد أن قطعنا شوطًا لا بأس به من الأمتار، أمام عربة مأكولات شعبية تشهد إقبالا شديدًا، كأنها توزع الطعام مجانًا.

قال "حسان" لي متحمسًا، وهو يشير إلى العربة:

- أفضل صانع شطائر كبده إسكندراني، وسجق في المنطقة.. ستأكل أصابعك بعدها.

ثم صاح بحماسة أشد:

- ثلاثون شطيرة كبده وسجق.

صحت به غير مصدق:

- ثلاثون؟!

أجابني وهو يرى سذاجتي:

- الشطائر هنا صغيرة، وزهيدة الثمن؛ لكنها مع ذلك شهية للغاية.

صمت قليلًا ثم أردف:

- سترى كل شيء بنفسك.. أقصد ستتذوق.

***

تأملت أصدقائي الأعزاء، وهم ينسفون جبل الشطائر بأسنانهم، ويلوكونها في تلذذ وشهية هائلة تكفي لابتلاع عربة مأكولات كاملة. الطعام لذيذ بالفعل لكن نكهته حريفة بعض الشيء، من أثر الفلفل الأخضر الموضوع بكثرة؛ لكنني كنت مستمتعًا حقًا كما لم استمتع من قبل، والسبب ليس في الطعام فقط، بل أيضًا لتناوله في وسط الصحبة الآدمية، التي تضفي على العشاء حيوية وبريقًا.

وضع أحدهم علبة بلاستيكية بيضاء أمامي قائلًا:

- هممم.. مخلل.

وجدت عدة أيدي تدخل بمعجزة خارقة في قلب العلبة الصغير، وقطع المخلل تتلاشى داخل أفواههم، بينما يتساءل أخر:

- أين الباذنجان؟

بينما قال ثالث:

- أحتاج إلى بعض الماء.

صحبة مؤثرة حقًا، أكاد أبكي من فرط حبي لهم.

أم أن هذا من أثر الفلفل؟

***

دارت أكواب الشاي الأحمر الثقيل، بعد الانتهاء من تناول تلك الأكلة الممتعة.

شد "حسان" نفسًا من النرجيلة، بينما أشعلت أنا سيجارتي، سحبت منها الدخان في استمتاعٍ بالغ، وقد تناسيت كل شيء مؤقتًا عن كل ما يشغل عقلي من حيرة، وألغاز مبهمة لا حل لها.

بينما نظر الباقون إلى الشيخ "حسن" كأنهم يقولون "أين حكايتك التي وعدتنا بها"

رماهم بنظرات متعالية، وقد شعر بمدى أهميته؛ فلكزه "عمر" بمرفقه، وقال بصبر نافذ:

- ألم تشبع بعد؟ هيا احكي.

نقل نظراته بين الوجوه العطشى الفضولية، ثم أخذ نفسًا عميقًا، وبدأ يحكي لنا أغرب واقعة حقيقية سمعتها حتى الآن.

***

(8)

قال الشيخ "حسن" جدية:

- **حدث هذا منذ عشر سنوات، كنت ما زلت طالبًا بالسنة النهائية، أذاكر باجتهاد وكد حتى أحقق درجات عالية، تؤهلني أن أكون معيدًا بالجامعة، وهذا ما لم يحدث كما تعلمون.. ساعات السهر تمتد إلى ساعات متأخرة من الليل، والإرهاق يبلغ بي مبلغه، وأنا أشعر أن رأسي صارت تعج بالدماء المحتشدة، ومعلومات الدروس التي يجب عليّ حفظها.. وفي أحد الليالي، وبينما كنت غارق في أحد كتبي الدراسية الضخمة، تناهى إلى سمعي أصوات أقدام تعتلي درجات السلم، لم يكن هذا غريبًا بأي حال من الأحوال، فالجيران يصعدون ويهبطون دائمًا؛ لكن هذا كان غريبًا بالنسبة لي، ومرعب للغاية، ليس لأن الوقت متأخر للغاية، لكن لأنني كنت أقطن الطابق الأخير، ولا يوجد طابق بعدي، والشقة التي تقع أمامي خاوية من أصحابها لسفرهم لأحد دول الخليج.**

من إذن الذي يقطع السلم، وإلى أين هو صاعد؟

هل هو زائر قادم إليَّ في تلك الساعة المتأخرة؟ أم أنهم الجيران وقد عادوا من السفر؟

نظرت عبر العين السحرية لأرى من هذا، ومع أني كنت أسمع صوت خطواته بوضوح، تتجول أمام الطرقة الخارجية للشقة، لكنني لم أره.

شعرت بالخوف الشديد يتملكني، وأنا أتساءل عمن يكون صاحب هذه الخطوات الليلية، ولم أملك الشجاعة الكافية وقتها؛ كي أخرج وأتحرى الأمر عن قرب.

كانت هذه الليلة الأولى التي أسمع فيها هذه الخطوات الليلية المريبة، وبدأ الأمر يأخذ طابعًا مرضيًا، يؤرقني ويشعل عقلي كمرجلٍ بخاريٍ مشتعلٍ، لكنني نسيتُ أو تناسيتُ الأمر برمته، وعدت مجددًا لأغرق في مذاكرتي حتى النخاع، ولا أعلم كم مرت من أيام؛ لكني كنت قد انتهيت من أداء الامتحانات، وتفرغت تمامًا، للسهر أمام التلفاز لأتابع تلك الأفلام القتالية التي أعشقها، مع عدد لا بأس به من أكياس اللب والتسالي، التي تكدست مخلفاتها كأكوام الرمال.

صمت قليلًا، وهو يتناول كوب الماء من أمامه، ويرتشفه بالكامل في جوفه دفعة واحدة، ثم تنحنح وبدأ يواصل:

- فتحت الباب في تلك الليلة كي ألقي مخلفات ما تناولته من أطعمة وتسالي، داخل سلة المهملات القابعة أمام باب الشقة الخارجي، وبينما كنت ألقيها بحذر كي لا تتناثر على أرضية الْطرقة، رأيت ذلك الظل المرتسم على الحائط.

احتبست أنفاسنا من فرط الإثارة، بينما أكمل هو قائلًا:

- كان ظلًا منحنيًا قليلًا إلى الأمام، وكأن أحدهم يتنصت على الشقة الخاوية المقابلة لي، ويبدو أنه لم يلحظ وقوفي بالخارج؛

فتقدمت بحذر كي أمسك به، لكن ما رأيته كان مخيفًا بحق، فالظل لم يكن له صاحب.

حدقت في وجهه وقد أقشعر جسدي، وقلت فزعًا:

- ماذا؟

قال بنبرات متوترة:

- أقسم بالله العظيم أن الظل لم يكن منعكسًا عن أي جسد بشري.. كان مجرد ظل مرتسم على الحائط بلا جسد.. شعرت بالفزع الرهيب يَرُجُّ أعماقي، وتعوذت بالله من الشيطان الرجيم.. هنا وجدت الظل ينتصب واقفًا كأنه أدرك أخيرًا وجودي، وبدأ يهبط الدرجات مسرعًا، مع صوت خطوات واضحة مجهولة المصدر.

تملكني الخوف الشديد، وأغلقت عليّ باب شقتي، وهرعت أحتمي بفراشي، وأندس أسفل الأغطية، وقد تملكتني رجفة كأنها الحمى. لا أعلم هل هو الغباء البشري، الذي جعلني بعد عدة أيام من الواقعة، أوهم نفسي أن ما حدث لم يحدث حقًا، وأن هناك شخص ما كان يتنصت بالفعل ولم أره؛ لذلك فعلت ما يفعله أبطال أفلام الرعب الرخيصة، تسلحت في أحد الليالي بعصا المكنسة، منتظرًا سماع تلك الخطوات المخيفة، كي أستكشف أمرها بنفسي، ويبدو أنني انتظرت كثيرًا، لأن ليالي عديدة مرت دون أن أستمع إلى أي شيء، حتى أتت الليلة الموعودة.

أزدرد ريقه الذي جف من كثرة الحكي، ثم واصل:

- الخطوات تعتلي درجات السلم في وضوح، وتتجول أمام باب شقتي، وبالطبع لم أرى أي شخص عبر العين السحرية؛ لكنني تلوت بعض الآيات القرآنية في أعماقي، وفتحت الباب دفعة واحدة، وأنا ألوح بعصا المكنسة في يدي، كسيف عنتر ابن شداد في مواجهة الملك النعمان. هنا حدث أكثر ما واجهته في حياتي من رعبٍ وفزع. شعرت وقتها كأن الريح تندفع من داخل نفق ضيق نحو جسدي، والظل الذي كان مرتسمًا على الحائط صارت له أبعادًا عجيبة، وهو يقف أمامي مباشرة، بالضبط كورقة تم قصها بأبعادٍ شبه بشرية. لا أعلم ما حدث وقتهًا تحديدًا، أو أنني أعلم ولا أستطيع وصفه، كل ما أدركه أن معركة ما نشبت بيني وبين ظِلٍّ، وكنت فيها الطرف الأضعف؛ لكن الله عز وجل بث في قلبي شجاعة، جعلتني أصمد ببسالة، وأخنق رقبة هذا الشيء، حتى بدأ يتملص مني كما يفعل العصفور الذي سقط في الشَرَك. تركته لأجده يفر مبتعدًا إلى عالمه الغامض المظلم، ولم أره أو أسمع خطواته بعد ذلك قط، ولم أعرف طبيعته مطلقًا؛ لكن عند بحثي وجدت داخل مجلد أجنبي مهتم بالخوارق، شيئًا يسمونه في الغرب أصحاب الظلال، ووجدت أنها ظاهرة معروفة من ظواهر ما وراء الطبيعة.

من هم أصحاب الظلال، وما هي ماهيتهم؟

من أين جاءوا، وماذا يريدون؟

لا علم لي بذلك على الإطلاق.

خيم علينا الصمت التام، بعد تلك الحكاية العجيبة المخيفة، ولولا أنها جاءت من صديقٍ مقربٍ أثِقُ في كلماته تمامًا ما صدقتها قط، وهذا يجعلني أحمق متصلب الرأي لأنني كنت أرغب بشدة أن يصدقوا ما حدث لي، غير عالم بوقع كلماتي عليهم، كوقع كلمات الشيخ " حسن" علينا.

لقد وضعني دون قصد في أماكنهم، لأرى بنفسي وأستشعر مدى صعوبة تصديق ما حكيته.

قال "حسان" بتوتر:

- حادثة مخيفة لن تجعلني أستطيع النوم الليلة، وأنا أتخيل تلك الخطوات تجول أمام باب شقتي.

نسمات الخريف اللطيفة المحملة بروائح أدخنة المعسل، والبن والشاي، تحولت إلى رياح باردة، تضرب وجهي وتبعث في جسدي رجفة، مما أنبأني أننا على أعتاب فصل الشتاء، الذي سيأتي قارصًا شديد البرودة كما يَدَّعِي خبراء الأرصاد الجوية، بسبب الاحتباس الحراري، أو بسبب شيءٍ ما أخر لا أذكره.

رواد المقهى ما زالوا يتابعون شاشة التلفاز العملاقة، ويتضاحكون وهم يتحادثون أو يلعبون شيئًا ما يسلي وقتهم، وكأن ليس هناك ما يشغل بالهم، بينما تعبث حفنة من القطط وتعدو هنا وهناك، باحثة عن فتات تسد به رمقها، وقد تعالى صوت مواءها بين الحين والأخر.

قال "خالد" بتوترٍ قَلِقْ، وهو يراقب وجوهنا؛ ليستشف منا مدى قبولنا لما سيقوله بعد قليل:

- هناك حادثة حدثت لي أيضًا أثناء تأديتي الخدمة العسكرية في شرق العوينات.

قال "عمر" ساخرًا:

- احكي كما يحلو لك يا عزيزي؛ فيبدو أن سهرة الليلة ستتحول إلى حلقة رعب.

ثم انفجر ضاحكًا كعادته، فشعر "خالد" بالغضب قليلًا من طريقته المستفزة، وقال:

- حسنًا.. لن أحكي شيئًا من أجل خاطرك.

تعالت صيحاتنا المعترضة، وقال "حسان" مقاطعًا كي يهدئ من الأمر قليلًا:

- أنت تعلم أن عمر يمزح طوال الوقت، ويظن نفسه مضحكًا.. دعك منه أرجوك، واحكي لنا نحن فقط؛ لأننا مهتمين حقًا بسماع قصتك، ونعلم يقينًا أنك لن تبتكر شيئًا من خيالك، وأن ما تقوله قد حدث لك حقًا.

هتف "عمر" بجدية:

- دعك من عمر؟ هل أجلس معكم كجوال من البطاطس.. أنا أيضًا أريد سماع ما سيقول، وإن كنت لا أفهم سبب ما يحدث الآن، وتحويل السهرة إلى حكايات مرعبة.

أجاب الشيخ "حسن" بحكمة وهدوء:

- ما حكيت لكم قصتي إلا لغرض ما في نفسي، هو رغبتي في تأكيد أن هناك عالم غامض ومخيف من الغيبيات، ومحاولة تحرير عقولكم من جمودها، ومحدودية ما تقدمونه لأحمد من استنتاجات، حاولتم بقدر الإمكان أن تجعلوها عقلية، تاركين التفسير الخوارقي جانبًا؛ كأنه كَمٌ مُهْمَلٌ لا يفيد، مع أن هذا يتعارض مع أبسط قواعد التفكير المنطقي؛ فالاستبعاد لا يحدث إلا بعد التأكد من الشيء أولًا، ومعرفة أنه تفسير خاطئ.. هنا نقفز إلى استنتاجٍ أخر ونبحثه، ثم نستبعده أو نقتنع به طبقًا للدلائل التي سنتوصل إليها.

تساءلت في حيرة:

- وكيف سنفعل هذا؟

أجاب بمنطق أكثر؛ ليؤكد ضحالة تفكيري:

- يجب أن نتقصى أولًا عن تاريخ تلك المُدرسة.. ماذا حدث لها، وأين ذهبت؟ وكذلك نتقصى تاريخ تلك الفيلا، وما الذي أدى إلى انفجارها بتلك الطريقة؟ ولماذا لم يعد يقطنها أحد؟ أين ذهب الورثة، ولماذا أهملوها حتى الآن؟

هذا ما يجب أن نستكشفه بأنفسنا إذا أردنا حقًا الإجابة عما واجهته، لا أن نجلس واضعين أرجلنا فوق بعضها البعض، نحتسي الشاي، ونلتهم الطعام، ونضع استنتاجات قد تخطيء أو تصيب.

استحسنت ما قاله، وأنا أعقب:

- هذا هو التفكير السليم حقًا، وهذا ما كنت سأفعله من الغد بالتأكيد.. لقد فكرت فعلًا في سؤال أحد عجائز المنطقة عن تاريخ الفيلا؛ لكن هروبي المتعجل أطار ذلك من عقلي مؤقتًا، وتركني حائرًا.. خائفًا.. متذبذبًا.

ربت "حسان" على كتفي قائلًا:

- لماذا لا تشركني معك في تلك المهمة.. دعنا نذهب معًا يوم الجمعة بعد الصلاة إلى منطقة المقطم، ونجمع كل ما نستطيع من معلومات.

وافقته بإيماءة من رأسي، بينما قال "عمر" متحسرًا:

- ألن نسمع قصة خالد؟

ضحكنا جميعًا من كلماته، وموقفه الذي تبدل، من اعتراضه على تحول الأمسية إلى حكايات رعب مخيفة؛ لكن "خالد" كان رائق البال، ولم يمانع في قص تلك الحادثة المرعبة.

انتبه الجميع إليه، وقد بدأ يحكي ملوحًا بيديه تارة، ومقطبًا جبينه تارة أخرى. لم أكن معه بكامل تركيزي، ولم أسمع كل ما قاله، إلا بعض العبارات المتناثرة عن شبح رآه يجول ليلًا، ويختفي داخل حمام مظلم مهجور. فعقلي كان مشغولًا بما سألاقيه بعد غدٍ، من تلك المغامرة المنتظرة. وداخل أعماقي أخذ الأمل ينمو في أنني أخيرًا، ربما وجدت حلًا مقنعًا لذلك اللغز المستغلق الذي سيحيل عقلي إلى شظايا خربة متناثرة؛ كحُطام الفيلا.

***

(9)

في العمل بدأوا يرتابون في أمري، وأنني لست على ما يرام؛ فالمحاسب النشط الذكي الذي لا يخطئ أبدا لا بد أنه ليس بخير على الإطلاق، عندما يخرج من بين أصابعه ناتج جمع تسعمائة مع خمسة ألاف وأربعون؛ لتصبح تسعة آلاف و خمسمائة جنيه فهو بالتأكيد في مشكلة ما.

قالت "هيام" وقد تنافرت العروق على جبهتها:

- بالأمس تتغيب دون سببٍ واضح.. ودون أن تخبر أحد، واليوم تخطيء بهذا الشكل الذي لا يفعله أي مبتدئ، ماذا يحدث معك؟

أجبتها وأنا أشعر ببعض النفور في طريقتها، متسائلًا لماذا لا تفعل هذا مع "مدحت"، لكنني أجبت بهدوء كي أمتص غضبها:

- أعتذر.. فأنا متعب بعض الشيء.. ثم إنني أخبرت مدحت بهذا.

"نورا" ترمقنا بنظرات فضولية، بينما أخذت ابنتها "أروى" تمرح بين جنبات المكاتب، بزيها الوردي، الذي تزينه زهرة حمراء بدت متنافرة مع تلك المساحة من اللون الأخر. لا أفهم كثيرًا في مواضيع الموضة والألوان؛ لكنني أعتقد أن الأحمر مع الوردي (دونت ميكس).

يبدو أن "هيام" قالت شيئًا ما؛ لأنها رمتني بنظرات حارقة، وكأنها منتظرة إجابة ما.

قلت وقد استنتجت بعضها:

- أعدك أنني سأبذل قصارى جهدي، ولن أجعل شيئًا يشغل تفكيري مرة أخرى.

زفرت بحرارة، قبل أن تنصرف إلى مكتبها، بينما ذهب عقلي رُغمًا عنه وعنها إلى نقطة غريبة، لم أفكر فيها مسبقًا، وسؤال حائر أخذ ينهش عقلي، كحيوان القندس الذي يحفر لنفسه خندقًا في قلب الأرض الترابية.

لماذا لم أتزوج حتى الآن، وأنا على مشارف الثلاثين من عمري؟

ربما بدا السؤال عسيرًا للبعض، يسيرًا للبعض الأخر، هذا يحتاج إلى تحليلٍ نفسيّ من نوعٍ ما، لابد أن للأمر عقدة ما مترسبة من أيام الشباب أو الطفولة، عقد لا أستطيع الإمساك بها كي أحلها، وتُحَلُّ معها مشكلتي إلى الأبد.

خاصة وأن طوال حياتي كان هناك نقطة تماس، بيني وبين الجنس الأخر، سواء في المرحلة الجامعية، أو العمل أو الأقارب والجيران.

الفتيات في كل مكان تقريبًا، متباينات الصفات والمشارب، مختلفات كالخطوط السريالية التي تشكل بصمات أصابع اليد. إذا رغبت في صفات الرقة والحنان فهناك الآلاف ممن تحملن تلك الصفتان، ولو أردت الأنوثة الطاغية المثيرة، أو التحفظ والاحتشام فهناك الآلاف أيضًا.

المعضلة فيَّ أنا وليست فيهن، لكنني لا أستطيع أن أدركها بعقلي الواعي المستنير، السبب يتوارى هناك داخل تلافيف عقلي الباطن، وقد أوصد عليه ألف باب، على كل باب ألف قفل، وهذا يجعلني هش ضعيف لا

يملك من زمام نفسه شيئًا، كطفل صغير لا يعي لماذا عوقب على شيء لا يدرك كنهه.

هل لحبي لـ"سارة" علاقة ما؟

هل أضعت سنوات عمري في عدم الإرتباط؛ لأنني كنت راغبًا فيها؟

بل إن السؤال الصحيح هل أحبها فعلًا، أم أنها مجرد ألاعيب نفسية؟

من المؤكد أنني لم أكن لأتذكرها لولا مصادفة رؤيتها الغير متوقعة، أم أنني كنت أتذكرها ولا أتذكر هذا؟ أسئلة أشبه بمن جاء أولًا الدجاجة أم البيضة؟ وهذا يجعل الإنسان ضعيفًا حقًا، بالغ الهشاشة، عاجز عن فهم مكنون نفسه، مجرد دمية تتلاعب بها أمواج المحيط الهادر، تغوص به إلى القيعان تارة، وتقذف به إلى عنان السماء تارة، لا يوجد شيء تستطيع التشبث به، إلا الضياع في قلب بحر الجنون الأعظم.

***

المنزل الرحيب بعد ساعات العمل الطويلة الكئيبة، التي كانت من أطول الساعات في حياتي كلها، وكأن رغبتي في قدوم الغد بأسرع ما يمكن، كانت هي نفسها السبب في تمدد الزمن بطريقة بشعة، وهذا ما جعلني أفكر جديًا في الذهاب الآن إلى المقطم، أستفسر عن الأمر بنفسي، وما سبب ذلك إلا تعجلي الشديد في معرفة كل شيء.

رائحة صنوف عديدة من الأطعمة الشهية تتصاعد من داخل المطبخ، يبدو أن والدتي تعد وليمة ما.

رأيتها تخرج من المطبخ، وهي منهمكة في تجفيف يديها، وروائح البصل والطماطم تتصاعد منها، وما أن لمحتني حتى قالت بسرعة:

- اذهب كي تغتسل وتغير ملابسك؛ فشقيقك الأكبر قادم اليوم للغداء معنا.

شعرت بالحنق فلم يكن ينقصني هذا ليزيد من تعطيلي، قلت بلهجة حاولت أن أجعلها هادئة:

- أعتذر يا أمي؛ فلديَّ موعدٌ مهم جدًا بعد قليل.

وضعت المنشفة جانبًا، وهي تقول بلهجة أمرة:

- أي موعد يمكنه أن يؤجل.. أنت لن تترك أخوك قادمًا لزيارتنا وتخرج.

قلت محتدًا:

- أمي.. أنا لست صغيرًا لتعامليني بهذه الطريقة.

قالت بلوم:

- ستظل صغيرًا بالنسبة لي حتى مماتي.

وخزني ضميري بشوكته مؤنبًا؛ فقلت بأسف:

- بعد الشر عليكِ.. لا تقولي هذا.

obeikandl.com

قالت مبتسمة وهي تلوح بكفها:

- لا تجادلني إذن.. ونفذ ما قلت.

أطرقت رأسي مستسلمًا، وأنا أقول:

- حسنًا يا أمي سأفعل.

***

بعد الغداء جلسنا جميعًا نحتسي الشاي الساخن في صالة المنزل. "غادة" الصغيرة ذات السبعة أعوام تقفز عليّ، وتجذبني من أصابعي كي ألعب معها قليلًا، أحبها كثيرًا لكني لست أملك البال الرائق لها الآن.

نهرها شقيقي "محمد" عن فعل ما تفعله معي؛ فقلت له لائمًا:

- اتركها تلهو كما يحلو لها.

قال لي وقد تشكلت على وجهه ملامح الغضب:

- لقد صارت شقية جدًا، تحطم الأشياء، وتشاكس أخيها الصغير، ولا تتركه إلا عندما تجعله يبكي.

ربتُّ على رأسها، وأنا أحاول تهدئته:

- ما زالت صغيرة وتحب اللعب، ماذا تريد منها أن تفعل؟

تسلقت ظهري فجأة؛ فصاح بها والدها بلهجة حادة:

- ماذا قلت لكِ يا غادة.. هل تحبين أن تنالي علقة ساخنة؟

انكمشت الصغيرة في رعب، فاحتضنتها وأنا أقول له:

- لا تفعل هذا؟ هل تريدها أن تكرهك كما كنا نكره والدي بسبب قسوته الغير مبررة؟

رمقني الجميع في حدة، وكنت أعلم السبب. أسرتي من النوع الذي لا يذكر موتاهم إلا بكل خير؛ فعلى الرغم من قسوة والدي المعروفة، لكنه الآن في ذمة الله، ولا يجب إلا أن نعد حسناته فقط، وكأن عدم ذكر ما نكره كفيل بأن يجعلنا ننسى غِلْظَتَهُ.

أفكارٌ عديدةٌ تدور في رأسي، أتنقل بينها بسرعة كي أختار منها شيئًا يصلح لتغيير موضوع والدي، وعجبًا لما وجدت؛ لقد كانت "سارة" مرة أخرى.

حسنًا.. هو القدر إذن؛ فشقيقي كما أسلفت الذكر يعيش بمنطقة المقطم، وربما سمع شيئًا هنا أو هناك.. لأستغل الفرصة إذن ما دمت لم أستطع الذهاب اليوم بسبب زيارته لنا.

سألته باهتمام:

- قل لي يا محمد: ألم تسمع شيئًا عن فيلًا أصابها انفجارٌ ما؟

أجابني بعدم فهم:

- انفجار؟! هل تقصد حوادث الإرهاب الأخيرة؟

حركت رأسي نافيًا، وقلت:

- لا.. تلك الفيلا انفجرت على ما أعتقد من عشرات السنين.. ربما من عشرة أو عشرون عامًا.

ضَيَّقَ عينيه مفكرًا، ثم صاح فجأة:

- أه.. تقصد فيلا تلك المُدَرِّسَة.

خفق قلبي بسرعة مكوكية حتى كاد أن يحطم قفصي الصدري، لقد كانت ضربة حظ موفقة أصابت هدفها تمامًا.

***

النسمات الرقيقة تداعب أطراف الستائر؛ فتتماوج قليلًا، وتنتفخ كقنديل البحر، ثم تعود مجددًا إلى الخلف، وقد استعادت هيئتها الطبيعية. سواد الليل يُطِلُّ من خلفها، وأصوات صفير الحشرات الليلية يتصاعد من قلب السكون.

عقارب الساعة تقترب من منتصف الليل، وعقلي مشغول بتلك المعلومات القليلة التي أخبرني بها شقيقي، معلومات مختلطة بخيال قائليها على ما يبدو، وعليّ أن أستجمع منها بعض الحقائق.

والدتي كدأبها تجلس بين جدران حجرتي، تتابع بأعين نهمة ما يبثه التلفاز من صور حية ملونة. تدمع عينيها تارة، وتضحك تارة، وقد اندمجت تمامًا مع كل مشهد. ربما يذكرها كل موقف بشيءٍ ما حدث في حياتها الطويلة، ربما ستتذكر الآن مع مشهد وفاة البطلة، موت صديقة طفولتها المقربة، تلك الصديقة التي أخبرتني بحكايتها مئات المرات، وكيف أنها ذات يوم

ذهبت لشراء بعض حوائج المنزل؛ فشاهدت والدة صديقتها تبكي في حرقة. سألتها بابتسامة ساذجة عما يُبكيها، فأخبرتها بالخبر المؤلم أن ابنتها – صديقة والدتي- قد لقيَت ربها.

شعرت والدتي وقتها بالحيرة الشديدة؛ فصديقتها كانت معها أمس في أتم صحة وعافية، نظرت لها غير مصدقة، وعندما تأكدت من الأمر بكت كما لم تبكي في حياتها من قبل، وعادت إلى أمها في حالة يرثى لها. سألتها والدتها بذعر عما حدث؟ وهل سقطت من بين أصابعها النقود؟ فأجابتها بحزنٍ عميق لا، بل توفيت صديقتي وفاء يا أمي، توفيت ولن أراها مجددًا.

لا أعلم تحديدًا لماذا أتذكر تلك القصة المؤلمة الآن؟ ربما لأن ما أخبرني به أخي بث داخلي مشاعر مختلطة من الخوف والقلق، الخوف من أنني ربما لن أرى "سارة" مجددًا.

لن ألمس كفها الرقيق، ولن أحتويها بين ذراعيّ.

هذا لأنها قد لقيت مصرعها منذ ما يزيد عن عشرين عامًا.

لقيت مصرعها في ذلك الإنفجار، التي كانت ورائه قصة غريبة للغاية.

النسمات تزداد برودة أقشعر لها جسدي، والليل يزداد ظلامًا، بينما عقلي يكتنفه الضباب ببطء؛ لأسقط في دوامة نعاس عميق.، تخلله حلم ما. لا. بل هي ذكرى ما.

ذكرى من ترسبات الطفولة.

***

ساحة المدرسة مكتظة بالتلاميذ، كما يجب أن تكون وقت الفسحة، التي تتخلل منتصف اليوم الدراسي.

جالسًا في أحد الأماكن الظليلة تحت شجرة ما قريبة من الأسوار، أقضم شطيرة البطاطس المحمرة التي أعدتها لي والدتي في استمتاعٍ بالغ، وعقلي مشغولًا بمُدَرّسٍ ما.. بالتأكيد وقت حصته سيحيل حياتي إلى جحيم لسبب ما من اختراعه.

على حين غرة وجدت "جمال" ذلك الصبي المشاكس، وهو يبتسم ابتسامة كريهة تظهر سنته الناقصة، بعد أن أسقط شطيرتي في قلب الأتربة؛ فنهضت وقد احترقت أعصابي من الغضب. لا بد أن ألقن هذا المعتوه درسًا لن ينساه.

وجدته يتقافز مبتعدًا كالقرد عن يديّ، وحواجبه تتلاعب في محاولة لإثارة غيظي أكثر وأكثر، لكني ظللت أحاول الإمساك به، ولم أنتبه لخطته إلا عندما وجدت حقيبتي الدراسية بين يديه، وفي حركة يستحق أن يقتل من أجلها، وجدته يقذف بها عبر أسوار المدرسة؛ لتسقط بالخارج.

كدت أبكي من فرط القهر، وأنا لا أعرف ماذا أفعل؛ فالخروج من داخل المدرسة أثناء الوقت الدراسي مسألة مستحيلة تمامًا، ناهيك عن أنني سأتلقى عقابًا شديد القسوة من والدي، لأنني أضعت الحقيبة، وعقاب أخر من المدرسين عندما يعلموا أنني أضعت الكُتب الدراسية، وكراسات الواجب.

هذه خسارة فادحة من كل الجوانب بكل تأكيد.

هنا وجدت "سارة" واقفة كالحلم، والغضب يرتسم على مُحَيَّاهَا الجميل.

أخذت تنهر الصبي المشاكس في حزم، وهي تؤكد له أنه سيتلقى العقاب المناسب من الناظر.

شحب وجه الفتى بشدة، بعد أن وجد هزاره الثقيل ينقلب إلى حقيقة ستطيح به بالتأكيد.

المُدرسة الحبيبة تربت على رأسي في رقة، قائلة:

- لا تخشى شيئًا يا صغيري.. سأعيد حقيبتك مجددًا.

يا الله. لقد أنقذت عنقي بفعلها هذا.

احتضنتها في تأثر؛ فاحتوتني بحنانٍ هائل، شعرت معه بكل أمان الكون.

انسحبت الذكرى بعيدًا، وعدت مجددًا إلى أرض الواقع الأليم، وقلبي يخفق في لوعة.

أمعقول أنني لن أراكِ مجددًا يا حبيبتي؟!

رددتها لنفسي وأنا أتذكر ما قاله شقيقي الأكبر.

حدث هذا في ثمانينات القرن الماضي. زوج "سارة" يختفي في ظروف غامضة، ولم يترك خلفه أدنى أثر. أصابع الاتهام تشير إلى الزوجة، والتحريات لا تجد خلفها أي دليل؛ فيتم الإفراج عنها لعدم كفاية الأدلة، لتختفي تمامًا بعد ذلك دون سببٍ واضح.

بعد عدة سنوات تنفجر الفيلا في دويّ يهز أرجاء المنطقة، وتكتشف الشرطة مفاجأة قاسية، الفيلا وحديقتها ممتلئة بعشرات الجثث، وهناك ضابط ما يتم العثور على جثته مع جثة "سارة" المحترقة.

لا يعلم أحد تقريبًا ما الذي حدث بالضبط؛ لكنهم شكوا في أن للضابط يد في قتل الزوج، وأنه المسئول عن اختطاف عشرات الأطفال، وقتلهم بوحشية وسادية.

ترى ماذا حدث هناك حقًا؟

وهل سأستطيع معرفته؟

أشعر بفتور ما بدأ ينمو داخلي، لا أعلم سببه تحديدًا.

ربما لمعرفتي بوفاة "سارة"؛ لكن هناك سؤال حائر ظل ينقر عقلي كغراب أسود قبيح، باحثًا عن إجابة مختبئة هنا أو هناك.

لو أنها لقيت مصرعها حقًا؛ فمن التي رأيتها إذن؟

***

obeikandi.com

تدور الأحداث التالية في منتصف الثمانينات

"سارة" الجميلة.. "سارة" الرقيقة.. "سارة" الحنونة.. "سارة" الوحيدة.

تلاشت كل الأصوات الباعثة على البهجة، وصارت الفيلا خاوية تقريبًا من الأنفس.

لم تبق إلا أنفاس "سارة" الثقيلة، التي شعرت أن كل حياتها قد انتهت بوفاة والدها، ورحيله إلى عالم الغيب.

لم يترك لها إلا صورة يحيطها شريط أسود كي تؤنس وحدتها.

ولم يتبق من الأصوات إلا صوت المقرئ المتصاعد من قلب المذياع.

كل ما بعد ذلك فراغ هائل من الوحدة والألم، ينتشران داخل أرجاء الفيلا الموحشة الكئيبة.

ألم يكفها أنها عانت الحرمان وهي صغيرة بفقدها والدتها.. أتفقد والدها الآن أيضًا.

لقد كان لها كل شيء في الدنيا.. يخاف عليها من كل شيء وأي شيء.. يذهب معها أينما رحلت، ويساعدها في كل ما تحتاجه، ويجلب لها كل ما ترغب، حتى ولو لبن العصفور كما يقولون.

لذلك هي لا تتخيل الحياة بدونه.

ماذا تفعل؟ ومن تستشير؟ ولم يتبق لها أحد.

لو كان لها أخوة لهان الأمر؛ لكنها وحيدة منذ الصغر كزهرة في قلب الجبل.

صديقاتها؟

وأين هن من والدها ذو الحكمة والخبرة في كل جوانب الحياة؟ أين هن منذ أن صارت وحيدة منذ ما يقارب الخمسة أيام؟

أم أن صداقتهن لها كانت من أجل النفاق و (المصلحة)

حتى أقاربها الأعزاء لم يكن حضورهم، ووقوفهم بجوارها إلا طمعًا فيما تركه لها والدها.

الميراث.

حتى أنهم لم يخفوا صدمتهم عندما علموا أن والدها ترك لها كل شيء، وحسرتهم وهم يقرأون اسمها وهو يزين عقود الفيلا والسيارة، وذلك الحساب المتوسط في البنك.. لقد تعجبت كثيرًا.. هل كانوا يتخيلون أن والدها سيتركها عارية في الدنيا، ولا شيء يسترها من طغيان أقاربها وجشعهم؟

حتى ولو لم يكن قد فعل، هل كانوا سيستحلون مالها، ويتركونها تعاني الوحدة والفقر؟ أليست ابنتهم أيضًا، ووجب عليهم جميعًا أن يساندوها في محنتها ووحدتها.

ما أقسى قلوب البشر التي صارت لا تبحث إلا عن المادة.

أين ذهب الود والحب والوفاء من قلوبهم؟ ولماذا أبدلوه بالطمع والقسوة؟

صحيح أنها كانت تعاني أشد آلام الحزن لفقدها أبيها؛ لكنها الآن تعاني وحدة أشد بعد أن عرفت أنها فقدت الجميع في ضربة واحدة.. لم يتبق لها أحد يخاف عليها حقيقة لا إدعاءً.

لا أحد مطلقًا.

وها هي الآن تتعلم أول درس في الحياة.. لا يجب أن تثق في أحد، وأن معظم البشر لا يهتم إلا بشأنه الخاص فقط.

لا أحد يساند أحد أو يقف بجوار أحد.

الدنيا قاسية حقًا.. لكنها أقسى بكثير عندما تتضح لها الرؤية أكثر.

***

استيقظت "سارة" في الصباح الباكر. كان كل شيء ساكنًا إلا صوت زقزقة العصافير التي تعبث في أرجاء الحديقة.

كان قد مر شهران على وفاة والدها الآن.

الألم قد خف بداخلها قليلًا، وصارت لحظة الوفاة أشبه بذكرى داخل كابوس باهت.

نهضت من فراشها وهي تفكر في الذهاب إلى المَدرسة التي تعمل بها، على الأقل هناك ستتخلى عن الوحدة والفراغ مؤقتًا، وستأنس بوجود الأطفال حولها.

كانت بحق تستمتع وهي تمدهم بمعلومات الدرس، وتشعر بالفخر أنها ساهمت في تعليم من سيصبح منهم ذو مركز مرموق.. مهندس أو طبيب.. محامي يدافع عن الحق أو ضابط يدافع عن الوطن.

نهضت وهي تفتح خزانة ملابسها لتنتقي ذلك الفستان الذي لن تغيره أبدًا مهما حدث.. فستان أسود مقفول الرقبة طويل الكمين.. كان أبسط تعبير لديها عن حزنها على والدها، ولا تعتقد أبدًا أن ذلك الحزن سيزول مهما كانت المؤثرات والمبررات، ومهما مضى بها الزمن، وحفر بمعوله على ملامح وجهها.

صحيح أنها لم تبلغ الثلاثين بعد؛ لكن الحزن بدأ يخط على ملامح وجهها الجميل خطوطًا شاحبة رقيقة مثلها.. خطوط كفيلة بأن تزيلها السعادة في لمح البصر.. لكن أين هي من تلك السعادة المفقودة الآن؟

ترى هل ستشعر بها قريبًا؟ أم ذهبت بعيدًا عنها إلى غير رجعة؟

تأملت الفستان الذي صار فاتنًا على جسدها الضئيل، ولولا الحزن لصارت باهرة الجمال كعادتها قديمًا، حتى أنها اكتفت بغسل وجهها بالماء فقط، دون أن تضع رتوشًا من المساحيق وأحمر الشفاه.. الحزن كفيل أن يضع رتوشه بنفسه.

غادرت حجرتها المؤثثة بأفخر أنواع الأثاث، ولم تنس أن تلقي نظرة أخيرة على فراشها المهمل، وهي تتذكر كيف فتنها عند رؤيتها له في معرض بيع الأثاث، بلونه الوردي، وتلك الستارة المخملية التي تنسدل على جوانبه،

وتمنحه مظهر فِراش الأميرات في الحكايات الخيالية.. وكيف ترجت والدها أن يشتريه لها.

في الواقع لم تكن تحتاج إلى أي رجاء؛ فوالدها ينفذ رغباتها دائمًا حتى من قبل أن تتفوه بها، وهذا ما جعله يمثل لها الدنيا وما فيها.

ترقرقت عينيها بالدموع، وهبطت درجات السلم الداخلي إلى البهو، وهي تتحاشى مجرد النظر إلى حجرة والدها المغلقة.

الحديقة تبدو صاخبة مقارنة بجو الفيلا الصامت كالقبر؛ بأشجارها الباسقة، والعصافير التي تصطخب بين أغصانها، وزهورها التي يتصاعد أريجها في أنحاء المكان، وتلك النافورة التي تتوسطها، وقد تصاعد من داخلها صوت المياه الرقراقة.

تحتويها سيارتها ببرودة قابعة داخلها منذ الليل، سرعان ما بدأت تتلاشى بفعل سخونة المحرك، الذي دار بهدوء ينم عن حداثة إنتاجه، ثم بدأت تتحرك مبتعدة عن المكان، مقتربة من نهر الطريق.

تأملت السيارات التي تمرق بجوارها، والمحلات التي بدأت في العمل في تلك الساعة المبكرة. البشر في كل مكان حولها.

لماذا تشعر إذن بالوحدة الشديدة؟

***

استقبلتها زميلاتها بعبارات العزاء المألوفة.

(شدي حيلكِ)

(كلنا لها)

(البقية في حياتكِ)

(ادعي له بالرحمة)

وعبارات أكثر معقولية وصدقًا.

(البقاء لله)

(غفر الله له، وأسكنه فسيح جناته)

لو كانوا يعلمون أن كلمات العزاء، لا تخفف عنها؛ بل تزيد من حزنها، لما نطقوا بها.. كانت ترغب في أن يعاملوها كما كانوا يفعلون سابقًا، كأن شيئًا لم يحدث.

لا ترغب في أن يُذَكِّرُوهَا ببؤسها ووحدتها، بل ترغب في دفء صحبتهم دون أن ينطقوا بكلمة.. أن يمنحوها حضنًا دافئًا يحتويها، وينسيها أنها صارت يتيمة للأبد.

هنا وكأن ما تحلم به قد تجسد على أرض الواقع.

يَدٌ حانية تصافح كفها في رفق، وتبث فيها دفء لا نهائي التوحد.

لم ينطق صاحبها بحرف؛ بل نظر فقط في عينيها نظرة حنونة، منحتها روح جديدة، وحضن دافئ.

obeikandl.com

ترى من هو؟

هذا ما فكرت فيه، ورغبت في معرفته بشدة.

****

"محمد حسن"

يبدو اسمًا عاديًا، لا يحمل ذلك البريق الذي يدل على صاحبه.. لكن ماذا يهم في هذا؟ يكفي أنها قد عرفته.

مدرس لغة عربية، في الثلاثين من عمره، منقول حديثًا من الأسكندرية.

لا يبدو وسيمًا؛ لكنه –وهذا مؤكد- يبدو حنونًا كوالدها.

في الأيام التالية كان يمر عليها كالحلم، مخلفًا وراءه همسات رقيقة، وكلمات حنونة تنم عن شخصية محترمة مهذبة بالغة الشهامة.

شعرت بعدها أنها لم تعد وحيدة، وأن الله عوضها خيرًا عن فقدها والدها.

لكنها ظلت تفكر في حيرة أقلقت مضجعها.

ترى ماذا يريد من مواساتها، ووقوفه بجوارها هكذا؟

هل هو انجذاب عاطفي نحوها؟ أم مجرد شعور بالشفقة نحو مخلوقة صارت يتيمة؟

ماذا عن شعورها هي نحوه؟ هل هو الحب، أم مجرد شخص استطاع أن يملأ فراغها النفسي والعاطفي؟

الحيرة تضرب جوانب رأسها؛ كالعاصفة التي تلهو بمركب خشبي صغير.

لتدع الآن كل شيء جانبًا، وتترك الأيام كي تقوم بهذه المهمة بدلًا عنها.

***

الحب ينمو داخلها ويتفتح كأزهار الربيع، الذي بات على الأبواب؛ كأنه أتى ليشاركها سعادتها التي تنتشر على أديم جسدها الناعم، وتتوغل داخل روحها المتقافزة، كطفلٍ نال هديته التي كان ينتظرها طويلًا.

لا تعلم متى بدأ في التمكن منها بهذه الطريقة، ولا كيف تقاربت مع زميلها الحنون بهذه السرعة، لقد ملأ أرضها القاحلة بينابيعه المتدفقة حتى أصبحت واحة خضراء، تنتشر على أرضها الخضرة النضرة، المترفة بالأشجار والنباتات والزهور، والأريج الذي يعبق الأجواء، تتقافز بين جوانبها الفراشات، والقطط الناعمة الناعسة، تظللها خيوط الشمس الدافئة، وقد انعكس داخلها شتاتًا من ألق الألوان.

ضمت دميتها الأثيرة إلى صدرها في حنان، وخيالها يبعث بها إلى مشهد نابض بالحيوية والفرحة، تجلى لها بين جوانح تلك اللحظة، ما بين زوج مبتسم يحتويها، وأطفال فرحين يتقافزون في أرجاء المكان.

استلقت على الفراش بملامح ملأها الأمل، لقد أن الأوان كي تنتزع الوحدة من حياتها إلى غير رجعة، ستنجب عشرة أطفال على الأقل؛ كي يمدوها بصحبة دافئة لا نهائية.

فرحت بتلك الفكرة، ونامت وعلى شفتيها ابتسامة.

***

السعادة مدهشة حقًا تغير المرء من النقيض إلى النقيض، وبعد أن كان يخيم على روحها ضباب اليأس الرمادي، الذي لا يمطر ولا ينقشع، أتت شمس البهجة لتبدده إلى غياهب المجهول.

ها هو يبوح لها بحبه، وهو يحتضن كفها بين أصابعه القوية، تائهٌ داخل أعماق عينيها الفيروزيتان. قلبها يخفق بين ضلوعها كعصفورٍ منتشي، يرغب في التحليق حول حبيبها، ويقبع بين ضلوعه لا يبرحه أبدًا. لقد اقترب الحلم كثيرًا، بعد طلبه لها بالزواج، لن تعود وحيدة مجددًا، بعد أن وجدت من سيملأ عليها حياتي اليابسة من جديد.

سينبض منزلها بالحركة الدءوبة مجددًا، سيملؤه صخب المهنئين والمباركين، وصوت أطفالها القادمين، ستسكن بين أركانه حياة رائعة جديدة، وسيتحول من كهفٍ مهجور إلى مركز حب يشع بالفرحة إلى أطراف الكون.

السعادة أيضًا تلتهم الزمن بلهفة، وتعجل بمروره كثيرًا، لدرجة لا تجعلها تصدق مرور تلك الأيام في لمح البصر، ما بين تقدمها إليه، والانتهاء من

التجهيزات، وحتى ارتدائها للأبيض في حفلٍ مَرِحٍ صاخبٍ، ملأها حبورًا وعشقًا.

لا تصدق أن الزواج قد تم، واحتواهما مكان واحد. تشعر بالخجل قليلًا لكنها ستتغلب عليه حتمًا، وبمرور الأيام سيصيران جسدًا واحدًا، ينبع منه العديد من البنين والبنات، كما في حكايات الجدات القديمة.

قلبها يبث السعادة مجددًا داخل كيانها كله، تتوغل عميقًا لتبقى طويلًا، حتى أصبح من العسير انتزاعها منها بأي حال من الأحوال.

نظر لها بعينين تشع دفئًا زادت وجهها حمرة، وقال:

- أحبكِ.

أطرقت برأسها كي تهرب من الخجل الذي يعتريها، وأجابته بنبرة هامسة حرجة:

- وأنا أيضًا.

أطراف أنامله ترفع ذقنها كي تواجهه بنظراتها، ليقول لها في حيرة مصطنعة:

- أنتِ أيضًا ماذا؟

ابتعدت عنه إلى طرف الحجرة، وقالت بهمس أشد:

- أحبك.

اقترب منها، وأشار إلى أذنيه:

- ماذا؟ لم أسمع ما قلتيه.

رفعت نبراتها وقد تملكتها بعض الشجاعة، وقالت:

- أحبك. هل سمعتها؟

ابتسم في سعادة:

- نعم سمعتها.. حتى ولو لم تقوليها بصوتك؛ فقلبي سمعها.. ألا تستشعرينه؟

ابتسمت في سعادة أشد:

- بلى.. لكنه من اليوم صار قلبي أنا.

اقترب منها وهمس:

- قلبينا معًا أمسيا قلبًا واحدًا.

لم تملك ما تقول؛ فهزت رأسها علامة الموافقة، وشعورٌ طاغٍ يهز كيانها.

شعور رائع لا تملك اسمًا له؛ لكنه أشبه بالسعادة إذا تمت مضاعفتها آلاف المرات.

***

obeikandi.com

الأيام تمر سريعًا، وشعور بالقلق يتكاثر داخلها كحبات الفشار، عندما لم تستشعر أعراض الحمل مطلقًا. ما الذي يحدث معها تحديدًا؟ وما الذي أخَّرَ قدوم طفلها الأول الذي انتظرته طويلًا؟

لم تملك شيئًا إلا أن تطلب من زوجها الذهاب معًا إلى الطبيب؛ لإجراء بعض الفحوصات، كي تتيقن أن كل شيء على ما يرام؛ لكن أدهشها رفضه العجيب، بل وإصراره على ذلك بدون مبرر مقنع.

سألته ببعض الحدة:

أنا لا أفهم.. ألا ترغب في طفل مني؟

نظر إلى الجهة الأخرى من الحجرة، ولم يعلق على سؤالها؛ فبدأ الشك يتوغل داخلها كشباك العنكبوت.

قالت وهي تمسك كتفيه بحدة لتجبره على النظر إليها، وقالت بحيرة:

- ماذا بك، ولماذا لا تجيبني؟ هل عرفت شيئًا؟ هل ذهبت للطبيب؟

تأمل عينيها بنظرة مشفقة، وقال بصوت خفيض:

- سارة...

زاغت عيناه، وشعر بالعجز عن النطق؛ لكنه حاول إجبار نفسه على الحديث؛ فقال بلهجة متعثرة:

- هناك شيئًا في حياتي يجب أن تعرفيه.

أحنى رأسه، وهو يتأمل تلك النقوش الإيرانية المغزولة فوق السجادة، وواصل:

- - لقد كنت...

هنا ألقى قنبلته غير مكترث بما ستسببه من دمار:

- لقد كنت متزوجًا فيما سبق.. ليس هذا فقط.. بل لدي طفلة أيضًا.

اخترقت المفاجأة كيانها؛ لتصيبها بزلزال مدمر أصاب أعماقها بشقوق عميقة لا شفاء لها، وفقد جسدها القدرة على الاتزان؛ فهوت على طرف الفراش كيمامة اخترق قلبها سهم حاد. بأنفاسٍ لاهثة كالغريقة، أخذ عقلها يتساءل في جنون.

أمعقول هذا؟

ألن أصبح أمًا أبدًا، لديها أطفال كما حلمت دومًا؟ أي عذاب هذا؟

صرخت بألم، وهي تتخيل ضياع حلمها إلى الأبد.

الحلم الذي عاشت من أجله طويلًا.

لاااا.

صرخت بها حتى كادت أن تتمزق حنجرتها، ومن عينيها سالت العَبَرَات لتغرق وجهها، وتدمي قلبها.

***

متكورة كقطتها البيضاء الأليفة.

تحتضن ساقيها بألمٍ نفسيٍ يكاد يمزق روحها تمزيقًا.

الدموع تترقرق في عينيها، والحنين يُدْمِي فؤادها.

تَجْتَرُّ أحزانها في أرجاء الفيلا الخاوية، وتضفرها كما كانت والدتها تجدل لها ضفائرها الصغيرة، وتنهي أطرافها بفراشة حمراء تهتز وتتطاير خلفها عند عدوها بمرح بين زهور الحديقة، محاولة الإمساك بذلك العصفور المغرد، الذي كان يحلق مرفرفًا بأجنحته الصغيرة، مبتعدًا عن أناملها الدقيقة كما تبتعد أحلامها الوردية عنها الآن.

ترمق ذلك المهد الصغير الملاصق للفراش، والتي تمنت أن يحوي صغيرها المنتظر.

حتى ملابسه المنمنمة الدقيقة الزاهية الألوان، وألعابه الساحرة التي اختارتها عن ذوق وحنكة، كانوا يتكومون هناك في ركن الحجرة ينتظرون مجيئه.

تأملت إحدى المجلات التي تحتوي على حكايات مسلية للأطفال، وتحسست الغلاف الجذاب الذي يمتلئ برسومات ملونة فاتنة. قرأت العنوان "سامر والجنية الطيبة"، أخذت تقلب الصفحات التي تحكي حكاية مشوقة عن ذلك الطفل اليتيم الذي كان يشعر دومًا بالتعاسة، واضطهاد أقرانه له، حتى ظهرت له تلك الجنية لتحقق له أمنية واحدة.

لم يطلب قصرًا أو مالًا على الرغم من فقره وبؤسه الباعثان على الشفقة.

كل ما طلبه هما أبوان يحبانه ويحسنان تربيته.

لقد أعدت نفسها كي تُعَلِّمَ صغيرها المنتظر قيمة الأبوان في حياته، وكيف أنهما أهم ألف مرة من كل كنوز الأرض.

الأبوان اللذان فقدتهما، وتركا لها إرثًا من الوحدة الهائلة التي بدأت تلتهم عالمها، جعلتها تحلم بمملكتها الخاصة الممتلئة بعدد كبير من البنون، تحلم بتنشئتهم على إدراكهم لقيمتها في حياتهم.

انحدرت الدموع من عينها، وهي تتذكر اليوم الذي ذهبت فيه لابتياع تلك القصة، وقصص عديدة غيرها، كانت تتخيل ابنها القادم بشغف، وهو يحمل أحداهن إليها بكفه الرقيقة، وخطواته المضحكة كي تقرأها له؛ لكن كل تلك الأحلام المطوية بين جوانح الذكرى تلاشت في قلب الظلمة، وحالت الكوابيس بينهما كجدار هائل لا نهائي.

لقد ظلت تنتظره في شوق ولهفة، حتى أنها تخيلت هيئته الصغيرة الفاتنة، واختارت له اسمًا مناسبًا جذابًا. ظلت ترص هرم أحلامها ليزدادَ علوًا، حتى سقط فجأة فوقها ليسحق أحلامها وينثرها في غياهب المجهول، ويمزق روحها إلى أشلاء متوارية داخل جسدها الضئيل، الذي صار أشبه بجثة حية تمشي على قدمين.

الجميع ينظرون إليها في شفقة، وهم يرون فيها الأنثى التي فقدت أهم ما يميزها.

مع مرور الشهور لم يعد لديها أدنى شك الآن أنها عاقر، ولن تنجب أبدًا.

***

ظهرت زوجته السابقة في الصورة.

بعد أن كان يزورها سرًا ليرى ابنته، صارت هي الآن التي تزوره في المنزل مع ابنتها ذات الستة أعوام. لا بد أن زوجها أخبرها، وهي تحاول الآن أن تنسج خيوطها حوله ليعود لها مجددًا، لم لا وقد ثبت أن زوجته الجديدة غير قادرة على منحه أبناء، كما منحته هي ابنة جميلة.لم تعلم "سارة" بعد لم خدعها وأخفى عنها زواجه السابق، المؤلم أنها الآن لا تستطيع الإعتراض قط، وهي التي لا تستطيع منحه شيئًا.

أغلقت عليها حجرتها، وقد أخذت قطتها بين أحضانها. لقد صارت لها الابن الذي تفتقده، وأمست لها كل عالمها، حتى أتى اليوم الذي لم تجدها فيه.

تلاشت فجأة بلا أدنى أثر، تاركة خلفها طبقًا من الطعام لم يُمَس بعد.

***

هائمة في تلك الأمسية الخريفية كروحها المثقلة بالشجن. تتحرك مبتعدة لا تعلم إلى أين تقودها قدماها بين دروب المقطم. تائهة- بإرادتها الحرة- بين الشجيرات الهالكة العارية، وبين النسمات الشفيفة الحزينة، التي تشاركها لحظات تعاستها. تتوقف منهكة بعودها النحيل كزهرة رقيقة مبللة بقطرات الندى، وتبحث بعينيها الفيروزيتين الدامعتين عن قطتها الصغيرة، التي أمست تمثل لها كل شيء في هذا العالم البارد.

تجلس فوق صخرة كبيرة أشبه بقلوب البشر الجامدة، وقد أعياها البحث.

تقودها قدماها دائمًا إلى ذات البقعة المهجورة، وكأن هناك شيئًا غامضًا يناديها كي تأتي ليلًا؛ لكن هذه المرة النداء كان مختلفًا، حيث حمل إليها مقاطع حروف اسمها بوضوح شديد "سارة"، ذلك الإسم الذي لا يمت لها بصلة. أين هي من السرور، وماذا تعرف عنه؟ منذ شهور زواجها الأولى لم تعد تشعر بأية مشاعر إلا التعاسة الخالصة، والحزن الدامي. لم يعد اسمها يمت لها بأي حال من الأحوال، ربما تغير إلى تلك اللفظة التي تراها تتقافز من بين نظرات كل من تراهم "عاقر"

الصوت آت من تلك التبة القريبة، من قلب تلك الفجوة المظلمة كقلب زوجها، التي كانت تظنه –لسذاجتها- مليئًا بالحب. تتحرك كالنائمة بخطوات آلية، وعقلها يطمئنها أن الموت في حالتها ليس سيئًا؛ بل ربما له أبلغ الأثر في صحوة ضمير كل من ظلمها. حين يرون جثتها الضئيلة الخابية سيشعرون بالندم حقًا، وستنسكب دموعهم كالأنهار وهم يتمنون رؤيتها على قيد الحياة مجددًا.

جاءها ذلك الصوت التي تحمل نبراته حنو ودفء لم تعتدهما منذ فترة؛ لكنها لم تسمع المقاطع جيدًا. تقدمت بحذر حتى عبرت الفجوة. في الداخل كهف مظلم لا يدري أحد بوجوده.

قالت بصوتٍ مرتجف:

- مَن؟ مَن هنا؟

أتاها ذلك الصوت قائلًا:

- أنا هنا يا ابنتي. أرجوك أنقذيني.

تملكها الفزع الشديد، ولم ترغب في أي شيء في تلك اللحظة أكثر من فرارها بعيدًا عن ذلك الكهف المخيف. انحنت كي تعبر الفجوة عندما جاءها ذلك الصوت مجددًا يقول متوسلًا:

- سأمنحكِ ما ترغبين. سأمنحكِ ولدًا.

تصلبت "سارة" مكانها، وقد تملكتها تلك المشاعر العاصفة. قالت بصوت منتحب:

- من أنتِ؟ ولماذا تفعلين بي هذا؟ أنا عاقر لا أستطيع الإنجاب أبدًا.

أتاها الصوت مجددًا، يحمل الشفقة في باطنه:

- أنا قادرة على منحكِ ما تريدين إذا قمتي بإنقاذي.

سألتها "سارة" بشك:

- وكيف ستفعلين هذا؟

قالت بسرعة:

- ستعرفين كل شيء في حينه.. نفذي فقط ما سأقوله لكِ.

***

obeikandl.com

(10)

شعائر صلاة الجمعة القادمة من المسجد القريب تتردد في المنطقة، مع رائحة لا تنسى من أعواد البخور التي أشعلتها والدتي، أضافت إلى أعماقي مزيجًا لا أستطيع وصفه من العشق الروحاني.

مياه الوضوء تتخلل أطراف جسدي، وتطهرني في نعومة، وتمنحني سعادة إيمانية لا أستطيع وصفها.

أدلف إلى حجرتي وابدأ في ارتداء الجلباب الأبيض، مع رائحة المسك كما تعودت من الصغر، أقبل يديّ والدتي المعروقتان، بينما صوت الآذان يتردد بصوتٍ ملائكي عذب؛ ليطهر روحي كما طهرت جسدي.

خطواتي ترتقي درجات السلم إلى الأسفل بهدوء، حتى خرجتُ إلى الطريق الذي تفترشه شمس الظهيرة الدافئة، أترجل مستمتعًا بالأجواء المشبعة ببركة يوم الجمعة.

تقدمت في هدوء إلى المسجد، وسكنت في رحابه بخشوع، بعد أن انتهيت من صلاة ركعتيّ تحية المسجد.

الخطيب يعتلي المنبر، ويبدأ في بث خطبته إلى الجموع المحتشدة أمامه، بينما عقلي وأذنايّ يتابعانه في نهم.

***

نظر لي "حسان"، وسألني بلهفة:

- هل أنت مستعد؟

لاحظ بعضًا من فتوري؛ فسألني متعجبًا:

- ماذا حدث؟

أخبرته بكلماتٍ قليلة عما حكاه لي شقيقي؛ فهز رأسه وقال:

- لا تتعجل الأمر، وانسَ كل ما سمعته، لأننا سنبدأ من الصفر.

انطلقت بسيارتي متخذًا طريقي إلى المقطم، وعقلي يعاود التفكير في كل شيء.

ماذا لو تأكدنا من موتها؟ أو حتى وجدناها على قيد الحياة؟ ما هي الخطوة القادمة؟

أسئلة كثيرة تعبث بعقلي، ولا أجد لها ردًا مناسبًا كي أسكته. حقيقة لم أفكر مطلقًا في الخطوة التالية؛ وكأن كل همي هو حل لغز رؤيتي لها، وهي ما زالت شابه، وتلك المقابلة المخيفة التي حدثت معي داخل أطلال الفيلا المظلمة.

لكن ماذا بعد حقًا؟

هل سأنسى كل شيء محاولًا الإنخراط في حياتي السابقة من جديد؟

سؤالي هذا لا يعني إلا شيئًا واحدًا، أن تلك الواقعة قد أعادت المياه الراكدة إلى حياتي، وأن بانتهائها سأفقد كل ما منحتني إياه من حركة

وتفكير ونشاط، ومحاولات دءوبة لحل اللغز، وهذا ربما يدل على شيء خطير لم أتبينه إلا الآن.

ماذا لو أن عقلي اختلق كل هذا كي يعيدني إلى دنياي، التي فقدتها منذ أمدٍ طويل، بعد أن أصابني منها السأم واليأس، وصرت شخصًا لا مُبَالي، فاقدًا لأي شعور إنساني.

هذا إن صح لا يعني إلا شيئًا واحدًا.

أنني في طريقي إلى الجنون.

***

توقفت بسيارتي على مقربة من أطلال الفيلا، وعيناي تجوبان المنطقة بحثًا عمن نسأله.

التفت "حسان" إليَّ قائلًا:

- هل سنظل داخل السيارة.. هيا تحرك يا أحمد.

غادرنا السيارة مترجلين على الأرض الترابية، نتلفت حولنا، وقد بدت لي المهمة عسيرة الآن على عكس ما كنت أعتقد.

أشار "حسان" إلى فيلا قريبة، وقال:

- هيا بنا إلى هناك.

اقتربنا منها محاولين تبين أي شخص يقف في حراستها؛ لكن لم يكن أحد هناك. التففنا حولها مستكشفين أي علامة تدل على أنها مأهولة.

لمحت قطعًا من الملابس معلقة أمام أحد الشرفات، تعبث بها نسمات الهواء كأشرعة المراكب النيلية؛ فقلت لصديقي:

- حسان.. انظر.. هذه الفيلا مأهولة بالتأكيد.

أومأ برأسه مؤكدًا كلامي، واندفع بخطواتٍ سريعةٍ نحو الباب الحديدي، مصفقًا بيديه، وهو يصيح:

- يا أهل الله.. هل يوجد أحد هنا.

نسمات الهواء جافة كئيبة، والسكون يطغى على كل شيء بطريقة عجيبة؛ كأننا في قلب صحراءٍ قاحلة.

وجه شاب ممتلئ بالقوة يُطِلُّ من خلال النقوش الحديدية التي تزين الباب، وقد تعالى صوته صائحًا:

- من؟

أجابه "حسان":

- أنا.

ابتسمت ساخرًا من رده، وكأن ما قاله إجابة مناسبة تفسر للرجل كل شيء.

اقترب الشاب كثيرًا ليصير في مواجهتنا مباشرة، لا يفصلنا عنه إلا البوابة، وقال:

- ماذا تريد؟

قلت في تعجل:

- نريد الاستفسار عن تلك الفيلا.

وأشرت بإصبعي تجاهها. نظر الشاب إليها، وقال وهو يهز رأسه:

- لا أعلم عنها شيئًا.. ماذا تريدون منها؟
- مجرد استفسار بسيط؛ فأمرها يهمنا.
- كما قلت لكما أنا لا أعلم عنها شيئًا.. منذ أن عملت هنا، وأنا أرى حطامها كما هو.
- ألم تلمح أحدًا يدخلها؟
- لا.. لا أعتقد أنني رأيت شخصًا يقترب منها.. هل تودون شراءها؟

أجبته كاذبًا:

- نعم.. هل تعرف من قد يستطيع أن يفيدنا؟

هز رأسه قائلًا:

- لا.. أنا لست على اختلاط بأيِّ أحدٍ هنا.

شكرته وأشرت بعيني إلى "حسان" أن يتبعني. قلت له ونحن نبتعد:

- لقد بدأت أشعر بالسأم.

حدَّقَ في وجهي بنظرات تملأُها الدهشة، وقال:

- بهذه السرعة.. لابد أنك تمزح.. هل ظننت أن الأمر سيتم بسهولة؟ ثم إن هذا أول مكان نذهب إليه.. اصبر قليلًا ربما وجدنا ضالتنا هنا أو هناك.

نكست رأسي، ولم أعقب بأي كلمة.

أشار إلى بناية عالية، وقال:

- انظر.. أشعر أننا سنجد من يدلي لنا بمعلوماتٍ هناك.

البناية تبدو قديمة، وربما عاصر أحد قاطنيها ما حدث؛ لكنها تبدو بعيدة بمسافة كبيرة عن مكان الفيلا؛ فقلت بيأس:

- هل تعتقد هذا حقًا؟

ابتسم قائلًا في حماس:

- بالتأكيد.

ليتني أعرف من أين له بهذه الثقة؛ لكن الغريب في الأمر أنه كان على حق، لقد وجدنا بوابًا عجوزًا متغضن الوجه، يعرف الكثير عن تاريخ المنطقة، كما كان يعرف أكثر عن الفيلا و"سارة"، وبعض الحكايات المتناثرة التي

جمعها من هنا وهناك، وأضافت إلى ما نحمله الكثير والكثير. لقد كان بالنسبة لنا منجم ممتلئ عن أخره.

***

انعكست ألسنة اللهب على سطح البراد الفضي، الذي أطلق صفيرًا متقطعًا مع تصاعد أعمدة البخار الساخن من جوفه، وبدت النيران التي تغذيه من أسفل باهتة مع شمس الأصيل القوية، وإن كانت حرارتها اللافحة أقرب.

شيخ إذا أردنا الدقة؛ فكلمة عجوز لا تطلق إلا على المرأة.

شيخٌ احتفظ شعره بسواده محاربًا الزمن في بسالة، كما احتفظ ببعضٍ من قوته، وصحته البادية على جسده، وجهه فقط الذي لم يستطع النجاة؛ فحمل العديد من التجاعيد والعروق الزرقاء النافرة.

مد أصابعه لنا بأكواب الشاي، وراح يرتشف من كوبه بنهمٍ، غير مبالي بسخونته الحارقة. نظر إلينا بعينين شبيهتين بأعين ضبعٍ عجوز، وبدأ يحكي:

- انتقلت إلى هذه البناية منذ أوائل الثمانيات تقريبًا، عملي كبواب أتاح لي معرفة الكثير عن تاريخ المنطقة، خلال تعاملاتي مع باعة الخضر واللحوم، وتجار المنطقة القدماء؛ لكن هذه الفيلا بالذات عاصرت كل ما حدث فيها، منذ أن جئت من بلدتي إلى هنا؛ لأن صاحبها كان يعتمد عليَّ كثيرًا في تلبية بعض طلباته، أو تشذيب حديقته البديعة.

مهندسًا هو توفت زوجته بعد ولادة ابنته الوحيدة بأشهرٍ قليلة، أصابه الحزن الشديد، وراح يدفنه في مراعاة ابنته وتدليلها، والاهتمام الهائل الذي كان يغرقها به، حتى آتى اليوم الذي رحل فيه عن عالمنا، وتركها وحيدة تعاني ألم الوحدة القاتلة.

قاطعته متسائلًا:

- ماذا كان اسمها؟

أجاب سؤالي دون تردد:

- سارة.

رمقت "حسان" بنظرة جانبية كأنني أقول له نحن على الطريق الصحيح، لا أعلم لماذا كنت أخشى بعد أن ينتهي من حكايته، أفاجأُ بأن ما يقصه كان عن أشخاصٍ آخرين لا علاقة لهم بنا؛ لكن حمدًا لله، لقد كانت "سارة" حقًا.

واصل حديثه قائلًا:

- كانت مُدرسة للمرحلة الابتدائية في أحد مدارس المنطقة القريبة.. تعطف على الصغار، ويحبها الجميع كأنها اختٌ لهم، حتى أتى اليوم الذي تزوجت فيه من مدرس زميل لها.

شعرت بخنجرٍ حادٍ يطعن قلبي ويدميه. الإنسان غريب حقًا، على الرغم من معرفتي بزواجها قديمًا، وإخبارها لي بعدم قدرتها على الإنجاب؛ لكن

obeikandl.com

خبر زواجها بدا لي كأنه حدث من أيام قلائل، نفضت الفكرة عن رأسي، وإن ظل سؤالٌ حائرٌ يجوب عقلي. أين هو زوجها الآن؟

الشيخ يواصل:

- لا أحد يعلم ما حدث تحديدًا، لأننا لم نكن معهم في قلب الفيلا بالتأكيد. كنا يومًا بعد يوم نسمع أصواتًا تتعالى من هناك، وبدا للجميع أن شجارًا ما نشب بين الزوجين، حتى أتى اليوم الذي اختفى فيه الزوج فجأة. لم نشك في شيءٍ سيءٍ قد يكون حدث له، وبررنا اختفاءه بحدوث حالة طلاق أو ما شابه ذلك، حتى رأينا الشرطة تقبض على الزوجة، وتتركها بعد عدة ساعات.

ارتشف أخر ما في الكوب بصوتٍ مسموعٍ، وواصل:

- معرفة الأحداث من بعيد لا يجعلك تُلِمُّ بكل شيء، وستترك بعض النقاط الغامضة لخيالك وللتكهنات؛ لذلك ما سأقوله الآن مجرد محاولة للتفسير لا أكثر. ما اعتقده أن الزوج مع كثرة الشجار شعر بعدم الإستقرار لإقامته في فيلا ملك زوجته، تستطيع طرده منها في أي وقت؛ فغادر محاولًا أن يجد حلًا ما. أما عن قدوم الشرطة فهذا سهل، غياب الزوج أدى إلى قلق البعض؛ فقاموا بإبلاغهم، أتوا وعرفوا الحقيقة وانصرفوا. هذا كل شيء. لكن الحقيقة المخيبة لآمال البعض جعلتهم يشطحون بخيالهم، وينسجون قصصًا وهمية عن قتل الزوجة للزوج، وإخفاء جثته وما شابه ذلك. أما ما حدث بعد ذلك بعدة سنوات ليس له تفسير واحد لدي.

شعرت بالفضول يأكلني من الداخل، وتساءلت هل سيحكي ما قاله شقيقي لي، أم أن هناك ثمة اختلاف؟

نظر لنا بخبث كأنه أدرك مدى لهفتنا لمعرفة باقي الحكاية، وأراد أن يزيدنا تشويقًا؛ فقال مغيرًا حديثه:

- قلتم لي لماذا ترغبون في معرفة ما حدث؟

أجبته بصبر نافذ:

- لأننا نرغب في شراء أرض الفيلا.

عاد يتساءل في خبث أشد، كاد أن يحرق أعصابي:

- وبماذا ستفيدكم تلك المعلومات؟

أجاب "حسان" هذه المرة:

- نريد معرفة كل شيء، حتى لا نقع في شَرَكِ شخصٍ ما يَدَّعِي أن له حقٌ في الإرث.

أومأ برأسه متفهمًا، وكأنه اكتفى بتلك الدقائق التي زادتنا تشويقًا، وواصل:

- حدث هذا في أواخر الثمانيات على ما أذكر. في أحد الليالي المظلمة الكئيبة دَوّى انفجارٌ هائلٌ، هز المنطقة، وأطاح ببعض جدران الفيلا. هَرَعتُ مع سكان المنطقة لنعرف ماذا حدث؛

obeikandi.com

فوجدنا النيران تلتهم الفيلا من الداخل، تتخللها أصوات تهشم النوافذ الزجاجية بفعل الحرارة العالية. ماذا حدث تحديدًا؟ لا أحد يعرف؛ لكن المكان انقلب رأسًا على عقب، وجاءت عربات الشرطة والمطافي، وبعد الانتهاء من عمليات الإطفاء ومحاولات الإنقاذ تم العثور على جثة شبه محترقة، عرفنا بعد ذلك أنها لمأمور قسم المقطم، ليس هذا فقط بل تم العثور على جثثٍ عديدةٍ مدفونة في أرض الحديقة، وبعض العظام المتناثرة في الداخل.

صمت برهة ليلتقط أنفاسه، ثم واصل:

- من أين أتت الجثث ولماذا؟ وما الذي جاء بمأمور القسم هناك؟ هذا ما لم يعلمه أحد، وإن كانت قد تناثرت الإشاعات أن المأمور قام بقتل الزوج، وهدد الزوجة حتى لا تفضح أمره، وكان يقوم ببعض عمليات التعذيب الوحشي للمجرمين أو المتهمين داخل الفيلا، ويدفن من يلقي مصرعه من جراء القسوة المتعمدة، والتعذيب المفرط.

سألته باهتمام:

- وما رأيك أنت؟

أجاب وهو يتأمل تلك الحمامة، التي هبطت تلتقط شيئًا ما من بين الرمال:

- **كما قلت لكما، هذا شيء يصعب التكهن به؛ لكنني أعترف أن حتى هذه اللحظة، لم أجد علاقة منطقية ما تربط المُدرسة الشابة بمأمور القسم، وتلك الجثث المدفونة. هذا أشبه بجمع ساعة حائط مع برتقالة وخلة أسنان. ما هي العلاقة التي تربط الثلاثة ببعض؟ لا يوجد أي رابط، وهذا ما يثير حيرتي.**

****

obeikandl.com

(11)

الغروب يسدل عباءته على الطريق، أثناء عودتنا من مغامرتنا القصيرة، وعقلي منشغل بما سمعت، يحاول أن يربط الخيوط كلها؛ ليستخرج منها قصة منطقية تتناسب مع المعطيات. لم أسمع عن موت "سارة" في حادثة الإنفجار، لكن كان هناك العديد من الجثث، ربما تخصها إحداهم، لكن يبقى السؤال، جثث وعظام من؟ وما الذي جاء بها إلى هناك؟ وما حكاية هذا الضابط أيضًا؟

أشياء غير مترابطة كما قال لنا الشيخ، ومن العسير استنباط شيء ما، هذا يحتاج أن نعرف حقيقة ما حدث من "سارة" نفسها، وهو ضرب من المستحيل.

لكن ما الذي يجعله مستحيلًا؟ ألم تبدأ الأحداث عند رؤيتي لها بعينيّ هاتين؟

لا أرى شيئًا أخر أفعله إلا البحث عنها، هذا ما يجب، وهذا ما سيكون، هي الوحيدة القادرة على الإجابة، لكن هل هذا ما أريده حقًا، أم أنني أريدها هي فقط بغض النظر عما حدث حقًا؟

أشعر أن رأسي صارت حافلة مكتظة بالركاب، تكاد أن تنفجر من فرط الضغط.

أشعلت سيجارة وأنا أراقب الطريق، وقلت لـ"حسان":

- لماذا لم أتزوج حتى الآن؟

لمحته بطرف عيني يُحَدِّقُ فيَّ مدهوشًا، وقال:

- وما أدراني؟
- ألست طبيبًا نفسيًا؟
- بلى.. لكن هذا يحتاج إلى الكثير من التحليل النفسي.
- لكنك تعرفني منذ الصغر.
- هذا صحيح، لذلك أؤكد أن لديك عقدة ما أصابتك في أحد مراحل حياتك.
- عقدة؟ من أي نوع.
- من النوع الجيد.. بالله عليك هل هذا سؤال؟ إنها عقدة وكفى.. لا أعلم تحديدًا متى أصابتك، وربما لن تتذكرها قط، لكنها هناك متوارية داخل أعماق عقلك الباطن.
- هل لوالدي دخل بها؟
- كلا بالتأكيد.. هذه عقدة لن تصيبك إلا بسبب فتاة.
- سارة مثلًا؟
- لا أعتقد هذا.
- لماذا؟
- لأنك تحبها.

أدهشني جوابه بشدة، وأدركت أن حبي لها حقيقة لا مراء فيها، ظهر جليًا على ملامحي، وفي تصرفاتي. سألته وأنا لا أفهم ما يقصد من تعارض حبي مع عقدتي:

- لماذا لا تكون هي سبب العقدة، وما دخل حبي لها بالموضوع؟

obeikandl.com

تحرك على المقعد ملتفتًا لي وقال شارحًا:

- لنتخيل أن هناك طريقٌ طويل، تخترقه هوة عميقة، تصيب من يحاول عبورها بجروحٍ دامية. النصف الأول به سارة وأنت معها سليمٌ تمامًا، ثم تركتها وعبرت الهوة لتصاب بالجروح والكدمات. الهوة هي عقدتك التي حدثت معك بعد أن عرفت سارة وتركتها، لو كانت هي المتسببة لما أحببتها قط. بمعنى أدق عقدتك تُبْعِدُكَ عن أية فتاة إلا هي، وهذا يعني أن لا دخل لها بالموضوع.

سألته وقد بدأت أفهم:

- وكيف أحل تلك العقدة؟

ابتسم قائلًا:

- لقد بدأت بالفعل في هذا.

لم أفهم ماذا يقصد تحديدًا، لكنه شيء جيد على كل حال.

***

المقهى مرة أخرى، صحبة الأصدقاء الدافئة، وابتسامتهم الصافية النابعة من القلب. مع الأحاديث الجانبية لرواد المقهى. لم أرغب في العودة للمنزل وحيدًا، كي أسجن نفسي بين جدرانه، كل ما أرغب فيه الآن هو إيجاد من أحادثه، وأفضفض له بمكنونات عقلي، وليس هناك أفضل منهم بالتأكيد، يكفي أنهم على علمٍ كاملٍ تقريبًا بما أواجهه، هذه نقطة بالغة الأهمية بكل تأكيد تصب في صالحهم.

ضحك "عمر" كعادته وقال:

- ذهبتما للإجابة على سؤال، وجئتما بحفنة من الأسئلة. هذا يجعلكما تصلحان للتجارة؛ لأن البضائع ستتضاعف بين أيديكما.

أجبته بغيظ:

- ليس هذا وقتك الآن يا عمر.

بينما قال الشيخ "حسن":

- دعك منه فهو أبله.

صاح "عمر" بغضب مفتعل:

- من تقصد بالأبله؟

فهتف "حسان":

- دعك من سخريتك هذه يا عمر.. هذا ليس وقتها.

تسائل "عمر" بعبث:

- إذن متى الوقت المناسب؟

نهضت غاضبًا وأنا أقول:

- لقد أخطأت عند مجيئي إلى هنا.

obeikandl.com

أمسكني "خالد" من ذراعي، وأعادني مجددًا وهو يقول:

- اهدأ يا صديقي.. هذه ليست أول مرة يمزح فيها.. إنه صديقنا وأنت خير من يعرفه.

شعر "عمر" بمدى خطأه فقال:

- أعتذر يا أحمد.. أنا لم أقصد إلا تلطيف الجو.

أتى عامل المقهى؛ فطلبت منه قدحًا من القهوة المركزة؛ لتعيد التركيز مجددًا إلى خلايا عقلي، ظللت منتظرًا إياه قليلًا أهدئ من روعي، حتى أتى بها، والأبخرة الساخنة تتصاعد من سطحها. أشعلت سيجارتي لتزيدني تركيزًا كما أتوهم، وقلت وأنا أزفر دخانها عاليًا:

- لديكم الآن كافة المعطيات.. فكروا بها بهدوء، وامنحوني ما قد تتوصل عقولكم إليه.

أجاب "عمر" بهدوء:

- أعتقد مما سمعت أن...

صمت برهة وهو يتفرس في وجوهنا، ثم انفجر ضاحكًا وهو يقول:

- أن الأهلي هو من سيأخذ الدوري.

تجاهلته و لم أعره انتباهًا، ونظرت إلى الباقين منتظرًاآراءهم.

قال الشيخ "حسن" متعجبًا من غبائي:

obeikandl.com

- الأمر واضحٌ تمامًا.. أنت فقط الذي لا تراه.

سألته وأنا لا أفهم ما يرمي إليه:

- وما الذي لا أراه؟

أجاب بسرعة وهو يعبث بلحيته:

- الزوج والزوجة يتشاجران يوميًا أليس كذلك.. لنتخيل معًا الأتي.. الزوجة تبلغ قسم الشرطة بمعاملة الزوج السيئة؛ فيأتي المأمور ليحقق في أقوالها، وربما أراد القبض على الزوج.. ماذا يحدث بعد ذلك؟

قلت وقد بدأت أفهم ما يرمي إليه:

- الزوج يقتل المأمور ويهرب.

لمعت عيناه بشدة، وهو يواصل متحمسًا:

- بالضبط.. والشرطة تأتي بحثًاً عنه ولا تجده.

سألته وقد بدأ يروق لي تفسيره:

- وما الذي أدى إلى تفجير المكان؟

قال مفكرًا:

- ربما أتى الزوج كي ينتقم، ويحرمها من منزلها.

obeikandl.com

هز "خالد" رأسه نافيًا وقال:

- كلا.. هذا التفسير غير منطقي.. وإلا بماذا تفسرون تلك الفترة الزمنية التي تفصل الواقعتين، والجثث التي وجدوها هناك.

قلت في حيرة:

- هذه النقطة بالذات لا أجد لها أي تفسير.. الحكاية أشبه بقطع البازل التي لا تريد إكمال الصورة بشكلٍ صحيح.

نظر لي "حسان" وقال:

- ربما لأن هناك قطع مفقودة، ويجب البحث عنها.

سألته حائرًا:

- أي قطع تقصد؟

أجاب ببطء:

- القطع التي ستكمل الصورة.. وهذه ليس لها إلا سبيل واحد.

قلت وقد بدأت أفهم:

- هل تقصد أن...

قاطعني وهو يومئ برأسه:

obeikandl.com

- نعم.. أقصد أننا يجب أن نذهب إلى قسم الشرطة لمعرفة ما حدث وقتذاك.

اعترض "خالد" قائلًا:

- لكن هذه الواقعة بعيدة للغاية.. هل تعتقد أنك ستجد معلومات متواجدة عنها حتى الآن؟ وبفرض أنك وجدت.. ما الذي سيجعلهم يمنحونك إياها بسهولة؟

أطرقت برأسي مفكرًا وقلت:

- لا أعلم.. لكن لا ضير من المحاولة.

ران الصمت على الجميع، وكأنه لا يوجد ما يقال بعد ذلك.

***

صباحٌ غائم قليلًا يلفه ضباب هش، منذرًا بليلة باردة على عكس المتوقع، كأن الطقس يشاركني كآبتي، ويحث أبواب الشتاء أن تُفتح على مصراعيها.

(قسم شرطة المقطم) مكتوبة على تلك اللوحة الخشبية بطلاء كالح، يدل على أن كتابتها جاءت في فترة زمنية غابرة، ولم يتم تجديدها بعدها قط.

التردد يعتريني محاولًا منعي مما أنا مقدم عليه، وكأنني أحد المجرمين الذي لن يرى نور الشارع مجددًا، بينما عيناي ترمق الحركة الدءوبة لبعض المواطنين وضباط الشرطة والعساكر، متسائلًا بحيرة عن سبب كل هذا النشاط، والساعة لم تتجاوز التاسعة بعد.

obeikandl.com

اعتليت درجات السلم الرخامية ببطءٍ شديد، وعبرت المدخل متشجعًا لتلطمني رائحة السجائر والعرق، وأعين أفراد الشرطة المتوجسة المنذرة بالخطر.

من المجنون الذي يلقي بنفسه داخل قسم شرطة؟

تلفت حولي حائرًا، لا أعرف ما الذي علي فعله الآن، ولمن أتجه كي يمدني بالمعلومات التي أنشدها؟ موقف سخيف وضعت نفسي داخله؛ كمن يلقي بنفسه في قلب البحر، ويبدأ في التساؤل ساعة الغرق عن كيفية صيد الأسماك. فكرت في التراجع والتخلي عن الفكرة برمتها، لكن صورة "سارة" لا تلبث أن تبتسم لي، وتحثني على العثور عليها، ومعرفة مصيرها. يبدو أنها توغلت داخل أعماقي كثيرًا، حتى أصبحت تملك السيطرة الكاملة على عقلي ومشاعري، وتحركني كالدمية التي لا تملك من أمرها شيئًا، هذا يجعلني أفكر جديًا في مصيري إذا لم أعثر عليها، أو أجد الخيط الذي يقودني لها.

كيف ستكون حياتي بعدها؟

أنا مجرد أحمق، يجري وراء سراب متخيلًا أنه أكسير الحياة، سيضيع معه وقتي وجهدي وحياتي ذاتها، وما هو إلا قبر أحفره بيديّ وأظافري، حتى يزداد غورًا، لأسكن إليه أقرب مما أتخيل.

***

(12)

رمقني ذلك الفراش المسن بطريقة أخافتني، وهو يسأل بحدة حتى يتأكد مما سمع:

- ماذا قلت؟

ملامحه تدل على الطيبة الشديدة، وسنه مناسب لمعاصرة فترة الثمانينات، هذا ما جعلني أستوقفه لسؤاله عن الحادثة، ويبدو أن سؤالي بخصوص المأمور القتيل قد أثار حفيظته، أو شيء من هذا القبيل؛ لأن سحنته انقلبت فجأة دون مبررٍ منطقي، وجحظت عيناه كمن تلقى صفعة على مؤخرة عنقه.

أمسكني من ذراعي كمن أمسك لصًا متلبسًا بالسرقة، محاولًا في الوقت ذاته أن يحافظ على اتزان ما يحمله من مشروبات بذراعه الأخرى، وجذبني إلى الداخل صائحًا:

- هيا معي.

اللعنة عليّ وعلى حماقتي، ما الذي ورطني في كل هذا بحق الله؟

جذبت ذراعي برفق حتى لا أثير حفيظته أكثر، وقلت:

- لا عليك.. لم أعد راغبًا في معرفة أي شيء.

نظر لي نظرة من عينة (ودي تيجي برضو)

تملكني الذعر وجالت بخاطري فكرة أنني أُشْبِهُ مسجونًا ما. حاولت التملص بصعوبة، وقد أدركت الفخ التي قادتني قدماي إليه.

صحت فيه لإخافته:

- ماذا تفعل يا مجنون.. ألا تعرف من أنا؟

لم يبالي باحتجاجي، وهتف مناديًا أحد الجنود:

- نادي سيادة الضابط ممدوح فورًا.

بينما صاح أحد الضباط بلهجة آمرة، وقد أثارت الضجة انتباهه:

- ماذا يحدث هنا يا عم صابر؟

أشار لي كأنه عثر على كنز، وقال:

- إنه يسأل عن مأمور القسم السابق.. عماد بك صالح.

بدت ملامح الإهتمام على وجه الضابط؛ فعاد يقول بحزم:

- هكذا إذن.. هل أبلغت الضابط ممدوح؟

قاطعنا صوت ضابطٍ أخر يقول:

- ها أنا ذا.. ما الأمر.

أشار إليّ وهو يجيب بحذر:

obeikandl.com

- إنه يسأل عن والدك.

***

رائحة السجائر الكثيفة تملأ أرجاء المكتب، وتترك أثارًا سوداء على الحوائط. ثمة آية قرآنية مؤطرة على الحائط بحروفٍ مُذَهَّبَة، يعلوها كشاف يُشِعُّ ضوءًا أصفر شاحب.

قلم فضي يدور بين أصابع الضابط "ممدوح"، بينما ترمقني عيناه بنظرة لم أستطع تبين كنهها. أصابعه تترك القلم، وتنقر سطح المكتب كأنه عازف بيانو محترف. اقترب بوجهه قليلًا وهو يسأل بهدوء لا يعكس حقيقة ما يحتشد في صدره:

- لماذا؟

فكرت في مغزى السؤال المجرد ومعناه، ضابط يجد شابًا مجهولًا يسأل عن والده دون مبرر منطقي، ليس صحفيًا يجري تحقيقًا، وليس بالطبع أحد أقاربه. الأصعب من كل هذا أنني لا أستطيع الإجابة على سؤاله بردٍ منطقي، يجب أن أحكي له كل شيء من البداية، ولو فعلت هذا لوضعني في مستشفى المجانين فورًا.

فكرت كثيرًا في إجابتي، لو أخبرته أنني راغب في شراء الفيلا، سيتساءل بالتأكيد عن دخل والده بموضوعٍ كهذا، لذلك لم أجد ما أقوله إلا:

- صاحبة الفيلا كانت مُدرستي في الصغر، وكنوع من رد الجميل أردت زيارتها والاطمئنان عليها، لكنني وجدت بدلًا من ذلك آثار

انفجار أطاحت بنصف المكان، استفسرت بطبيعة الحال، وعلمت بعض المعلومات وإن ظلت هناك أشياء أخرى غامضة، تثير التساؤل.

عاد يسأل كمحقق محترف:

- ولماذا الآن بعد مرور كل تلك السنوات؟ الحادث مر عليه أكثر من خمسة وعشرون عامًا.

شعرت بالمأزق الذي يريد وضعي فيه، فكرت في إجابة منطقية تخرسه فلم أجد، فقلت مفكرًا:

- لا يوجد سبب معين إلا أنني تذكرتها فجأة.

تراجع بظهره إلى مقعده، وقال:

- هل علمت كيف مات والدي؟

حركت رأسي نافيًا؛ فأجاب بسهولة:

- لقد تم اقتلاع قلبه عن صدره، وأُحْرِقَت جثته.. هل تعلم ماذا حدث بعد ذلك؟

شعرت بالرعب من كلماته، وتساءلت عمن يفعل شيئًا وحشيًا كهذا، رمقته بنظرة حائرة، وأنا أقلب يديّ بمعنى أنني لا أملك أدنى فكرة.

نقر سطح المكتب بأصابعه مجددًا، ثم نهض مديرًا ظهره لي، واقترب من النافذة ببطء،متطلعًا إلى المجهول. زفر بقوة كأنه يستعيد ذكرى مؤلمة، وقال:

- كنت صغير السن وقتها، لا أتعدى الست سنوات، ومع ذلك أتذكر كل شيء كأنه حدث أمس. لم يعد وقتها أبي إلى المنزل مجددًا، ولاحقتنا نظرات الجيران المتهمة في صمت. الجميع يتكلم عن وحشيته، وتلك الجثث التي كان يُخَزِّنُهَا داخل الفيلا، كجزارٍ يملأ ثلاجته بالذبائح؛ لكنني كنت أعلم الحقيقة.

صَمَتَ برهة والتفت لي قائلًا بلهجة مرحة تعاني ألم الانكسار:

- ماذا تشرب؟

شكرته والحزن يخيم عليّ من جراء كلماته؛ لكنه عاد يلح قائلًا:

- أنت ضيفي، ولا بد أن تشرب شيئًا.

لم ينتظر موافقتي، وضغط زر جرس الإستدعاء القابع على سطح مكتبه، دلف بعدها عم صابر متسائلًا؛ فطلب منه كوبين من الشاي، ثم عاد يقول:

- كنت أعلم أن من المستحيل أن يقوم والدي بما يدعون، وأن هناك حقيقة ما خفية وراء ما حدث.

تعالت الطرقات على الباب، دخل بعدها عم صابر، واضعًا كوبيّ الشاي في صمت على المنضدة الصغيرة أمامي، انحنى بعدها باحترام مبالغ فيه، وهو يحتضن الصينية الفارغة كأنها حبيبته، ثم غادر المكتب بسرعة لا تتناسب مع سنه المتقدم.

جلس "ممدوح" قبالتي، مشعلًا سيجارته، وقال وهو يمد لي واحدة أخرى تناولتها منه شاكرًا:

- أعتقد أنك عرفت الآن ما سبب اهتمامي بسؤالك.

يبدو أن القدر جمعني بمن يستطيع مساعدتي بحق، ووضع النقاط فوق الحروف التي يشكلها هذا اللغز العجيب، لأستغل هذه الفرصة إذن أحسن استغلال.

قلت شاعرًا بالحماسة:

- أفهم ما ترمي إليه.. لذلك سأخبرك بكل شيء، ولا أطلب منك سوى أن تصدق ما سأقصه عليك، مهما بدا لك غريبًا، أو غير منطقي.

أومأ برأسه موافقًا، وقال:

- كلي آذانٌمُصْغِيَة.

أخذت نفسًا عميقًا، ثم بدأت أقص عليه كل شيء منذ البداية.

***

انتهيت من حكايتي لاهثًا، وتطلعت إليه منتظرًا خطوته القادمة.

تأملني لحظات مفكرًا بعمق، وكأن خاطرًا ما يجول بعقله، يبدو أن كلماتي بعثتها إليه، وساعدته بشكلٍ ما على استنباط فكرة قد تحمل في طياتها بعض الحلول.

هز رأسه كأنه يستبعدها، لكنها على ما يبدو ظلت متشبثة بخلاياه الرمادية؛ كمصيدة حديدية لا فكاك منها.

فتح الباب مناديًا الجندي الواقف بحراسته، وقال بلهجة صارمة:

- أجلب لي الملف (ط. ف) فورًا.

هرع الجندي ملبيًا أوامره، وما هي إلا لحظات قلائل، حتى أتى بملفٍ أزرق اللون مكتظ بالأوراق، ناوله إياه بعد تأديته التحية العسكرية.

أخذ "ممدوح" يعبث في الأوراق بسرعة، وقال بلهفة:

- يبدو أن ما أفكر به صحيحًا.

وضع الملف أمامي، وقال مشيرًا إلى شيءٍ ما:

- انظر.

أوراق عديدة وصور فوتوغرافيه لا تحمل إلا شيئًا واحدًا.. أطفال مفقودة.. جثث أطفال.. العثور على عظام أطفال، ويبدو من تاريخ الصور أن الأمر يعود إلى الثمانيات.

هتف بحماسة:

- هل فهمت؟

فكرت في حيرة عما يقصد، وما دخل هذه الحوادث بوالده و"سارة"؛ فلم أجد؛ لذلك قلت مترددًا:

- في الحقيقة لا.

نظر لي غير مصدقً لغبائي الشديد؛ فصاح وهو يشير إلى الصور:

- أطفال.. حوادث كثيرة انتشرت وقتها عن اختفاء الأطفال، والعثور على جثثهم بعد ذلك داخل كهف عتيق تملأه الآزيار العميقة.

يبدو أن نظرة البلاهة على وجهي جعلته يستشيط غضبًا؛ فهتف بصوتٍ هادر:

- الجثث التي تم العثور عليها داخل الفيلا، وفي حديقتها جثث أطفال.. معظمها وإن لم يكن كلها.

استعاد هدوءه وهو يشرح ما خفي عليّ:

- هناك رابط ما.. ألا تراه؟ نفس الجاني في الحالتين واحد.

سألته بهدوء محاولًا الفهم أكثر:

- لكنني عرفت أن الأطفال المفقودين، سقطوا داخل تلك الآبار أثناء لهوهم، ولم ينتبهوا إليها، وتم العثور عليهم موتى بعد ذلك.. أين هو ذلك الجاني الذي تتكلم عنه؟

خفض صوته قليلًا، وكأنه سيعلن عن سرٍ خطير:

- ألم تسمع عن المزيرة؟

ضحكت حتى دمعت عيناي، وقلت مستهجنًا:

- لا تقل لي أنها الفاعل.

أومأ برأسه متجاهلًا سخريتي، وقال:

- نعم.. هذا ما اعتقده.

قلت معترضًا:

- لكنها محض خرافة.

نهض مجددًا إلى النافذة، شاردًا فيما وراءها لحظات، ثم ألتفت لي قائلًا بهدوء:

- الخرافة مجرد اسم يطلقه الناس على ما يجهلون.

***

obeikandl.com

تدور الأحداث التالية في منتصف الثمانينات

منظرها مضحك وهي تحمل أوعية المياه، وتتمايل معها كمهرجي السيرك، لا سبيل أمامها الآن كي تنال ما ترغب، إلا تنفيذ ما أمرتها به تلك المخلوقة، التي لا تعلم كنهها حتى الآن؛ لكن ما طلبته كان بسيطًا للغاية، ولا يستدعي القلق، وهو ملء البئر بالماء حتى يفيض.

صحيح أنها تساءلت كثيرًا عن السبب، ولم تعرف أو تفهم حتى الآن لماذا؛ لكن هذا لا يهم في شيء ما دام ليس خطرًا عليها بأي حال من الأحوال، يكفي أن تلد طفلًا حتى تتناسى الأمر برمته، وتغرق مجددًا في حياتها العادية الهانئة، مبتعدة عن كل هذا الغموض الذي يحيط بالمكان، وساكنته العجيبة القادمة من أعمق أعماق المجهول.

أيام عديدة ظلت تنقل فيها الماء داخل الكهف، وتلقي به في أعماق البئر حتى أنهكت قواها؛ فجسدها ضئيل لا يحتمل هذا المجهود، حتى أن زوجها لاحظ تأخرها بالخارج، وعودتها منهكة تجر أرجلها بضعف؛ كأنها كانت تخوض حربًا ضروسًا. لم تجبه بأي شيء إلا حجتها التي تناستها الآن، وهي البحث عن قطتها الضائعة.

كثيرًا ما سألتها لماذا لم تطلب المساعدة من أي شخص سابقًا؛ فكانت إجابتها أنها الوحيدة التي قادتها قدماها إلى هنا. صحيح أن بعض الأطفال كانوا يأتون لِلَّهْوِ؛ لكنهم كانوا يتساقطون كالذباب داخل الآبار المنسية، ولم تستطع إنقاذهم من مصيرهم الأسود.

انتهت من مهمتها أخيرًا بعد طول عناء؛ ليأتي الطلب المخيف الذي هز أعماقها بفزع. لقد طلبت منها أن تأتي بطفل، وحجتها كما قالت أنها ترغب في رؤية هيئة تمثل ما تريده.

هربت وقتها والخوف يتملكها، ويرعش جسدها؛ كأنها قد أصيبت بالحمى، هامت قليلًا بين دروب المقطم، قبل أن تعود ليلًا إلى منزلها، وقد استقر فكرها على إلقاء كل شيء خلف ظهرها، تلك المخلوقة لا تريد طفلًا كما تدعي لتعرف هيئته، الأدق أنه سيكون بمثابة الأضحية البشرية لها، كما تسمع في قصص الجان المخيفة؛ لكن عودتها إلى المنزل حملت لها مفاجأة غير سارة.

مفاجأة هزتها من الأعماق كزلزالٍ مُدَمِّر، قلب حياتها رأسًا على عقب.

***

مجرد حوار دار بين زوجها وزوجته السابقة، سمعته وعيناها تتسعان بذهول، وقد عرفت أخيرًا ما يحاك ضدها.

- إلى متى سأظل أضغط على أعصابها هكذا؟
- حتى تصير المسئول القانوني عنها، ونستطيع التصرف في الفيلا.
- لكن... لكن ضميري بدأ يؤنبني.
- هاهاهاها.. وأين كان ضميرك هذا، وأنت تخدعها باسم الحب حتى تتزوجها؟ أين كان عندما أوهمتها أنها عاقر، وأنت تعلم جيدًا أن إصابتك هي السبب في عدم قدرتك على الإنجاب مجدداً، وأنها سليمة تمامًا من أي علة.

- ألم تكن هذه خطتكِ؟
- بلى.. لكنك تحاول الاعتراض الآن بعد أن اقتربنا أخيرًا.
- لا أعتقد أن إيهامها بعدم الإنجاب؛ كافيًا كي تصاب بأزمة نفسية عنيفة.
- هذا هو الكلام السليم.. معك حق بالتأكيد؛ لذلك أودعت قطتها الحبيبة التي تُعَامِلُهَا كابنتها عند أحد أقاربي؛ لتعاني بعض الحرمان، وسنفكر معًا في أشياء أخرى.

شهقت وهي تسمع تلك الحقائق التي جعلتها تفهم أخيرًا كل شيء. كانت مجرد مُغَفَّلَة تحلم بالحب والأطفال، ولا تدرك مدى قسوة الحياة، التي تلطمها لطمة تلو الأخرى.

هتفت بها ابنة زوجها فجأة بطريقة أفزعتها:

- ماذا بكِ يا طنط؟ ولماذا تبكين؟

مسحت دموعها المنسكبة، وشردت قليلًا وهي تتأمل الطفلة، وفي رأسها تلاعبت فكرة ما.

لقد حان وقت رد الضربة بعنف.

حان وقت الإنتقام.

***

لم تكن قاسية كزوجها، الذي لا يملك ذرة من ضمير؛ لذلك جذبت الطفلة لتغادر معها الكهف، بعد أن أدركت فداحة ما كانت سترتكبه الآن، وقالت:

- لا لن أفعل.. ليس بهذه الطريقة.

أتاها الصوت من أعماق البئر قائلًا:

- مما تخافين؟

أجابت بسرعة:

- أنتِ مخادعة.. تريدينها كأضحية.. لعنة الله عليكِ.

قالت بصوت ناعم:

- من قال لكِ هذا؟ أنا لن أمسها بسوء.. لا أريدها حتى أن تقترب مني.

تعجبت "سارة" من ردها، وقالت:

- ماذا تريدين إذن؟

قالت:

- أريدكِ أن تأخذي هذا السوار.

حاولت أن تخترق الظلام بعينها، وتساءلت:

obeikandl.com

- أي سوار تقصدين؟

تراجعت بهلع شديد، وهي ترى تلك اليد العظمية التي تتحسس حافة البئر، وذلك الصوت يجيبها:

- هذا.

واصل جسدها الإرتجاف؛ بينما أخذت الصغيرة في البكاء قائلة:

- أريد العودة إلى أمي.

تقدمت "سارة" قليلًا، وقد سحرتها هيئة السوار الذهبي المرصع بالألماس، وتساءلت بفضول:

- أي سوار هذا؟ هل سيحقق لي أمنيتي.

أجابتها:

- اخلعيه عن معصمي وستعرفين.

مدت أصابعها بتقزز، وخوف من هيئة اليد العظمية؛ لكنها تشجعت ونزعته بحذر، وهي تقول:

- ها هو ذا.. ماذا الآن؟

لم تجبها هذه المرة؛ بل تعالى زئيرًا مخيفًا من حلقها، أخذ يتردد بين جدران الكهف، قبل أن تندفع المياه إلى أعلى في قوة، كموجة هائلة تكتسح ما

يقابلها، أخذت تتشكل ببطء على هيئة شبه بشرية، لها أعين حمراء مخيفة، تلمع في ظلام الكهف، وتدب الرعب في قلوب أشجع الرجال.

ثم اندفعت نحوها فجأة، تضرب جسدها بعنف كالسياط.

صرخت "سارة" برعب شديد، وهي تحاول التملص والهرب من كل هذا الهول؛ لكن المياه أخذت تندفع إلى حلقها وعينيها وفمها منحدرة إلى الداخل، مياه لها مذاق حمض الكبريتيك المركز.

سقطت أرضًا تتلوى بألمٍ هائلٍ يضرب أعماقها، وأخذت تسعل بشدة، وهي تشعر بالاختناق الشديد من أثر المياه المتدفقة إلى جوفها ورئتها، ودار عقلها بمشاهد عجيبة قادمة من أعماق التاريخ، حقب زمنية لا تعلم مصدرها تحديدًا، سرعان ما تلاشت والرؤية تغيم أمام عينيها، وقد انتهى كل شيء.

نهضت بجسد جاف، وأعين حمراء مرعبة، تتطلع بها إلى تلك الطفلة المنكمشة على نفسها بفزع، وقد طار صوابها مما شاهدته، ولم يستوعبه عقلها الصغير

رفعت عقيرتها إلى أعلى في زئير تردد في ظلام الكهف، وصدرها ينتفخ في راحة شديدة، بعد أن استعادت خلاصها مجددًا، من هذا السجن القاتم الذي استمر مئات السنين.

أدارت وجهها ببطء إلى الطفلة المسكينة، واقتربت منها في هدوء وحذر نمر يستعد للانقضاض على فريسته، هجمت عليها فجأة تفترسها بوحشية

بالغة، تمزق لحمها وتلوكه في تلذذ،والدماء تتناثر ملطخة الصخور بأشكال سريالية شوهاء مخيفة.

لقد عادت مجددًا.

هنا فقط انتبهت إلى ذلك السوار الذي يحيط معصمها، لا ليس مجددًا. تملكها شعور عارم بالمقت والغضب؛ فأخذت تضرب به الصخور بعنف حتى أدمت يدها، لكنه آبى أن يتحرك أو يظهر عليه أدنى تأثير.

تلك الحمقاء وضعته على معصمها بطريقة غريزية، غير عالمة أن هذا سيجعلها سجينة داخل أعماقها إلى الأبد.

***

استيقظت "سارة" متعجبة، لا تتذكر ما حدث. نهضت ببطء، والألم ينهش جسدها. محاولة تذكر الساعات الماضية، لكن عقلها أمسى كصفحة بيضاء خالية من الكتابة، نهضت وهي تشعر بحاجتها إلى حمام دافئ يعيد إليها نشاطها مجددًا، ويساعد عقلها على التفكير بهدوء.

المياه الساخنة تتدفق بغزارة في قلب البانيو، مطلقة أبخرة حارة لوثت سطح المرآة المصقول بطبقة رقيقة غائمة.

أغلقت عينيها وهي تغوص في قلب المياه الناعمة، وشعور عارم بالغرابة يكتنفها؛ كأن هذا أول حمام تأخذه في حياتها، ملأ جسدها بنشوة هائلة، وأمدها بفكرة ما تاهت عن عقلها بعيدًا.

تملكها إحساس لذيذ بالراحة والخدر كمن تلقى منومًا ما، وسرعان ما غرقت في نعاس عميق؛ لتستيقظ بعدها على مشهد خارق بكل المقاييس.

جسدها يسبح إلى أعلى حتى كاد أن يلامس السقف، وشلال من مياه البانيو يتطاير إليها صاعدًا في وضع مستحيل فيزيائيًا، كأن الحمام قد أنقلب رأسًا على عقب.

صرخت بفزع شديد مما تراه؛ فسقط جسدهًا مرتطمًا بألم، وتساقطت خلفها المياه دفعة واحدة؛ لتعود إلى وضعها الطبيعي.

هناك شيءٌ مخيف يحدث لها.

هذا ما تدركه الآن.

***

تعجب زوجها من كمية اللحوم النيئة التي أخرجتها من الثلاجة، وسألها بحيرة:

- هل ستطهين كل هذا الآن؟

جاءت إجابتها بطريقة عملية للغاية، عندما أمسكت قطعة أخذت تمزقها بأسنانها، وتلوكها بتلذذ بالغ.

تراجع الزوج بقلق مما يراه، وشعر أن خطته الحقيرة هي سبب ما يحدث لزوجته الآن من تغير عجيب، ضميره يؤنبه بشدة، ولا يعرف ما الذي عليه فعله؛ ليعيد كل شيء إلى نصابه.

تذكر فجأة ابنته المختفية؛ فسألها بحيرة:

- ألم تري مي؟

حدقت فيه لحظات، ثم انفجرت تضحك بوحشية، وهي تجيب:

- لقد ذهبت إلى هناك؟

اقترب منها بغير فهم، وقال:

- هناك؟ هناك أين؟

أشارت بأصبعها إلى النافذة، وقالت بجزل:

- هناك.. مع قطتي الصغيرة.

حيرة شديدة تداعب عقله، لا يعرف تحديدًا هل أصابها الجنون بالفعل، أم أنها أدركت خطته، وتحاول عقابه بطريقة مستفزة. أمسك بعنقها صارخًا:

- لو أصابها سوء لن أرحمكِ.. هل تدركين هذا؟

دفعته في صدره بقوة غير عادية، وهي تضحك بشدة:

- هل تريد معرفة مكانها حقيقة؟ إذن سأخبرك.

اقتربت منه وهمست في أذنه قائلة:

- لقد تناولتها على العشاء.

obeikandl.com

ثم انفجرت تضحك بسخرية شديدة، وقد راق لها منظره الذي بدا كقطٍ مذعور.

أتت طليقته على صوت الصياح، وهي تتساءل:

- ماذا بكما؟ صوتكما يكاد يهز المنطقة.

أجابت "سارة" بغضب عندما رأتها:

- زوجك يرفض العقاب الذي أنزلته بابنتكما.

حدقت بوجهها في حيرة، ونقلت نظراتها إلى طليقها، وقالت:

- ماذا؟ ما الذي تقصده.

لوح بيديه حائرًا، وقال:

- يبدو أن الجنون قد أصاب عقلها.

هنا لم تتمالك طليقته أعصابها؛ فهجمت عليها تصفعها صارخة:

- ماذا فعلتي بابنتي أيتها الحقيرة؟

أمسكتها "سارة" من عنقها، ورفعتها عاليًا بقوة خارقة، وهي تقول:

- لا تقلقي.. ستذهبين إليها الآن.

obeikandl.com

زادت من ضغط أصابعها على رقبتها، حتى تعالى صوت تحطم مخيف لفقراتها العنقية؛ ثم قذفت بها بعيدًا أمام أعين الزوج الذاهلة؛ لترتطم بعنف بالعامود الرخامي، وتسقط جثة هامدة جاحظة العينين.

التفتت إلى زوجها بأعينٍ حمراء كالدم، وهي تزمجر بوحشية قائلة:

- إنه دورك الآن.

قفزت عاليًا حتى كادت أن ترتطم بالنجفة الكريستالية المتدلية من السقف، وقفزت أمامه وهي تزأر بوحشية كوحوش الغابة، وبضربة واحدة اقتلعت قلبه من صدره، وقالت:

- أنت لا تستحق هذا.

ثم بدأت تلوكه في شراسة و استمتاع بالغ.

***

شعرت "سارة" بالأرض تميد تحت قدميها، عندما رأت برك الدماء المتناثرة داخل أرجاء الفيلا، والجثتان الممزقتان بوحشية بالغة؛ كأن قطيع من الذئاب الجائعة هاجمهما بشراسة. وبدأت تدرك أن الدماء تغرق ملابسها وأظافرها.

ما الذي حدث هنا؟

سقطت أرضًا شاعرة بالغثيان الشديد، ودوار عنيف يعصف برأسها، ويتلاعب بها بقسوة.

obeikandl.com

صرخت فجأة عندما تعالى رنين الباب ليمزق السكون، وينتزعها انتزاعًا من حالة الذهول التي خيمت عليها.

غاب عقلها بعيدًا وعاد مجددًا كمد البحر وانحساره، ومعالم المكان تتبدل بسرعة فائقة كتناوب سطوع الأضواء وتوالي الظلال. الجثث تتلاشى كأنها لم تكن، لتجد نفسها داخل قسم الشرطة حائرة مهتزة التفكير والأعصاب، يتلاشى القسم كالسراب، وتمتد أمامها صحراء المقطم بدروبها الموحشة البشعة التكوين.

أطفال تظهر وتتلاشى، وجثث متناثرة تم التهامها يطويها النسيان.

مياه غزيرة تكاد تغرق فيها، وعرين مرعب ظهر بغتة في قلب الفيلا.

أيام عديدة تتسرب وتمر مرور السحاب؛ لتدرك معها أن شيئًا يحتل جسدها، ويبدأ بتؤدة في السيطرة عليه، حتى أتى اليوم التي ذهبت فيه إلى غير رجعة، ولم تعد تملك من أمر نفسها شيئًا.

يوم سادت المزيرة.

***

مرت سنوات عديدة قبل أن تشعر بالخطر كما حدث اليوم، عندما هاجمها ذلك الضابط، ومزقت صدره شر ممزق. رغبتها العارمة في احتلال جسده باءت بالفشل بسبب ذلك السوار اللعين، وهذا ما يجعلها عرضة للخطر الشديد؛ فحياتها مرهونة على عدم معرفة أي شخص بشأنها، وهذا ما تم خرقه الليلة.

هذا خطأها هي بكل تأكيد، ويجب عليها تداركه.

لكن الوقت لم يسمح لها.

فالمساء التالي كان يحمل لها مفاجأة قاسية.

***

عادت محملة بغنيمتها، التي أتت بها من المقابر القريبة، قتلها للأطفال وغيرهم كاد أن يكشف أمرها؛ لذلك قامت بتغيير طعامها إلى قائمة الموتى، الذين لا يفتقدهم أحد، وهذا لن يكون عائقًا بأي حال من الأحوال، فالمقابر قريبة وتعج بالجثث.

هوت عليها تلك الشبكة المصنوعة من الحبال القوية، وسمعت ذلك الصوت المجهد، وهو يقول:

- أعتقد أنها النهاية.

لمحت ذلك الشيخ، وهو يقترب منها، فزأرت في وجهه بوحشية، وهي تحاول التملص من الشبكة التي تكبلها.

ابتسم في هدوء قائلًا:

- لم أصدق عندما رأيتك أول مرة، لكنني ذهبت مرغمًا إلى القسم للإبلاغ عنكِ، وذهب ذلك الضابط المسكين ضحية خطأي الأحمق.. لقد رأيت كل شيء أمس، وتملكني الجبن الشديد ومنعني

من التدخل؛ لكنني أدركت أن سكوتي سيجعل لكِ ضحايا أخرى من الأطفال المساكين؛ لذلك قررت أن أضع حدًا لكل هذا اليوم.

صمت برهة ليلتقط أنفاسه، ثم واصل:

- أعتقد أنكِ لست من عالمنا.. من أنتِ بحق الجحيم؟

أجابته بزئير وحشي كاد أن يمزق طبلتي أذنه، وقفزت في محاولة يائسة للانقضاض عليه، لكن القيود منعتها عن فعل ذلك.

زادت وحشيتها، وهي تحاول التملص باستماتة، بينما قال وهو يقترب بحذر:

- أعتقد أن كينونتكِ لا تهم في شيء الآن.. أنتِ مجرد مخلوقة مفترسة مثلها مثل ألاف الوحوش الضارية، ويجب الخلاص منها في الحال.

لمعت عيناها ببريق أحمر كالشرر، وهي تحدق في ذلك الشخص، والغضب يكاد يجعلها تحرقه حرقًا، هو يجهل تمامًا أنها منيعة، ولا يوجد شيء في عالمه قادر على قتلها إلا شيء واحد فقط، يرقد الآن في أعماق ذلك البئر، ولا يعرف عنه أي أحد، ولو وجد لن ينعم بحياته كثيرًا.

جمعت قوتها في ضربة هائلة وجهتها نحو تلك الشبكة؛ لتمزقها تمزيقًا ثم قفزت عاليًا في هجمة مفاجأة على ذلك الشيخ؛ لكنها تراجعت عندما لمحت تلك القداحة بين أصابعه، وهو يقول:

- **ليس بهذه السرعة.. لقد عرفت من ذلك العرين أنكِ مخلوقة شبه مائية لذلك...**

لم يكمل عبارته إنما أشعل القداحة بغتة؛ ليشتعل الهواء فجأة، أعقبه دوي انفجار هائل أطاح بالفيلا، وهز أرجاء المنطقة، محيلًا كل شيء إلى جحيمٍ حقيقي.

****

opeikandl.com

(13)

أشعلتُ سيجارتي العاشرة.. ربما.. لم أعد أحصي عددها؛ لكن العلبة كادت أن تفرغ، وصدري صار مشبعًا بالقطران كبئر بترول من الدرجة الأولى، حتى كدت أن أصاب بالسل.

الهواء يزداد برودة، و يتوغل داخل المكان، عابثًا ببعض الأوراق الموضوعة أمام "ممدوح" الذي لم ينطق بكلمة منذ ما يقارب الساعة، قضاها في مراجعة العديد من الملفات، تاركًا إياي أضرب أخماسًا في أسداسٍ، مفكرًا في نظريته العجيبة التي توصل إليها، وتفسر كل شيء من وجهة نظره على الأقل، مما جعلني حائرًا مفكرًا لماذا يعمد الجميع إلى التفسيرات الخرافية؟ ألم يكفنا ما نعانيه من فقر وبؤس وحالة اقتصادية متردية، هل أصبح كل شيء الآن يتم تفسيره بالدجل والشعوذة، وإلقاء اللوم على الغيلان والجان وأم الشعور؟

ألا يوجد طريق أخر نتخذه؟

أنا لا أنكر أن هناك أشياء لا نفهمها تحدث من حولنا، ولا يوجد لها أي تفسير، أقرب مثال ما حكاه لنا صديقي الشيخ "حسن"، لا أستطيع رفض الأمر؛ لكن ليس بالضرورة أن هذا هو التفسير الوحيد.

غول أو شيطان يعمل مُدرسة رقيقة حسناء؟! أي مزاح هذا، ولماذا لم تفعل بي شيئًا، وكانت الفرصة سانحة أمامها تمامًا، في تلك الليلة التي أنقذتني فيها، وأمدتني بمشاعر شتى من الطمأنينة والحنان.

ثم منذ متى تعيش تلك الأشياء بيننا، تتزوج وتقيم حفل عرس، وترتدي الذهب، وتقطن فيلا يحسدها عليها الكثيرين؟

"سارة" وحش يدعى المزيرة؟

تفسير أحمق لا يصدقه عقل طفل صغير.

شعرت بالملل من كثرة الإنتظار، وجسدي يحثني على الحركة حتى تعود فيه الدماء إلى دورتها الطبيعية.

سألته مستفهمًا، وأنا أحك شعر رأسي:

- ألم تنتهي من البحث بعد؟

نظر لي شاردًا لا يعي ما أقول، ونهض يقطع المكان ذهابًا وإيابًا، عاقدًا كفيه خلف ظهره، مغمغمًا بكلمات لا تتسرب إلى أذني جيدًا، ثم انتبه لي وقال:

- ماذا؟

كان قد تركني للبحث والتقصي، عن معظم الملفات التي تعود إلى تلك الفترة التي لقيَ فيها والده مصرعه، يحاول أن يثبت نظريته، أو أن يجد شيئًا غفل عنه الجميع، ينير له الطريق أكثر، ويرشده إلى ما حدث تحديدًا، وبدقة حتى لا يصير كل ما قاله، مجرد فقاعة هواء، لا يوجد عليها أدنى دليل.

قلت وأنا أنهض من جلستي المؤلمة، التي تيبس لها جسدي المسكين:

obeikandl.com

- أنا أعرف أن القواعد تحتم عليَّ وجود دلالات، نستنبط منها تفسيرًا ما، أما أن تفعل عكس الجميع، وتستنبط أولًا على أمل أن تجد ما يؤكد استنتاجاتك؛ فهذا ما لم أسمع عنه من قبل.

ابتسم في هدوءٍ غريب، وكأن ما قلته مجرد حماقة، تؤكد له غبائي الذي لا يعي، ولا يدرك أبعاد الحقيقة التي صارت مؤكدة له على ما يبدو، وقال:

- قل لي: عندما قابلت سارة ليلًا، وحكت لك عن هذا الكهف أو الآبار التي ابتلعت الأطفال، وتسببت في حزنٍ عامٍ خيَّمَ على المقطم لسنوات طويلة.. متى كان هذا بالتقريب؟

ذهب عقلي مفكرًا في تلك الفترة، محاولًا أن يجد شيئًا يعيد التاريخ إلى وعيي، ما أذكره أن الوقت شتاء لأنني كنت أشعر بالبرودة، وأرتدي ملابس ثقيلة، والنسمات الباردة كانت تعبث بشعرها، أعتقد أن هذا بالتقريب كان في شهر يناير، وإجازة منتصف العام الدراسي قد أوشكت على الانتهاء، هذا جيد لكن أي عام هو؟ ربما 85 .. هذا صحيح لأنني كنت في الصف الرابع على ما أعتقد، أجبته بثقة:

- يناير.. عام ألف تسعمائة خمسة وثمانين.

ابتسم أكثر وأكثر وهو يعود إلى مكتبه؛ ليأتي بورقةٍ ما، وضعها تحت أنفي قائلًا بانتصار كمن فاز بجائزة المليون:

- أي تاريخ تراه هنا؟

قرأت بحذر تلك الكلمات الكثيرة التي تملأ المحضر، وشيئًا فشيئًا أخذت التهماها بسرعة البرق:

- حسب بلاغ بعض الأهالي... هممم... تم العثور على... هممم... وقام مأمور قسم... بالتعاون مع... من مباحث العاصمة... تم المحضر في تاريخه وساعته... هم... الخامس من مارس عام ألف تسعمائة خمسة وثمانين.

الأرض تميد بي غير مصدق. شهران أو شهر ونصف سبقت فيه سارة الجميع، وعلمت ما لم يعلمه أحد وقتها. ماذا يعني هذا؟

نقلت السؤال إلى "ممدوح" الذي جلس قبالتي، وهو يقول:

- بالله عليك يا عم أحمد، تستنكر نظريتي، وأنت أعلم الناس بما شاهدته عليها من شبابٍ دائمٍ، ليس هذا فقط بل هاجمتك داخل أطلال الفيلا، وكادت أن تفترسك، ثم تُكَذِّبُ كل هذا، وتحاول أن تجد تفسيرًا عقلانيًا يقبله عقلك، وترفض باستماتة كل الطرق الأخرى التي تؤدي إلى حل معقول، لكنه غريب بعض الشيء.

تذكرت مقولة صديقي، وهو يحثني على طرق كل الطرق قبل وضعها جانبًا إذا ثبت خطأها، وتحرير عقلي من كل ما به من شوائب؛ كي أتقبل الحقيقة مهما بدت خارقة للمألوف.

سألته حائرًا، وعقلي قد صار فارغًا كمنجم قديم نضب على أخره:

- حتى الآن لم أفهم لماذا ذهب عقلك إلى ذلك الحل؟

نهض يشرح نظريته، وطريقة توصله إليها؛ كمدرس يحاول إفهام طفل بليد، قائلًا:

- بداية.. الجثث التي تم العثور عليها داخل الحديقة، معظمها جثث لأطفال اختفوا في ظروف غامضة، ليس هذا فقط بل كانت ممزقة اللحم كأن هناك من قام بافتراسها، وتم كذلك العثور بالداخل على تكوين صخري عجيب يشبه كهوف الدببة، أو عرين أسدٍ ما، وليس معقولًا أن هناك حيوان مفترس يتخذ من المكان مأوىً له؛ فالحيوانات والضواري كما تعلم لا تستعمل الإسمنت في لصق الصخور، هذا إذا كانت تستطيع البناء باستخدام مخالبها.

أجبته بحذر:

- ربما كان هناك من يأوي حيوانًا ما.

ضحك حتى دمعت عيناه، وسألني بخبث:

- قلت لي ماذا يشبه التكوين الخارجي لذلك الذي قام بمهاجمتك؟

تذكرت هيئته الشبيهة بالبشر؛ فقلت مستسلمًا:

- نعم معك حق.. أكمل.

ربت على ركبتي مبتسمًا وقال:

- لا عليك.. ليس بالضرورة أن تملك عقلًا تحليلًا، وذاكرة تستدعي كل جزء لتضعه في مكانه الصحيح.

اللعنة.. ماذا يعني بهذا؟

واصل قائلًا:

- الشيء الأخر كما أدركت أنت الآن، حكاية ذلك الكهف الغامض المخيف..أولًا: إنه قريب بعض الشيء من مكان الفيلا.. ثانيًا: كانت هناك عظام أيضًا تشي بأن هناك من افترس أصحابها، وليس بسبب السقوط كما ظن البعض، صحيح أن هناك من لقي حتفه بتلك الطريقة، لكن ليس الجميع.. ثالثًا: الكهف يحتوي على أبار مياه، والفيلا بها بركة تم صنعها لغرضٍ ما غامض، وكأن هناك شيئًا يحتاج دومًا إلى المياه، وهذا يعني...

قاطعته قائلًا:

- أن من كان يعيش بالكهف انتقل إلى الفيلا.

لوح بأصبعه مصدقًا على كلامي:

- نعم هذا صحيح.

سألته وأنا أشعر ببعض الغباء:

- ولماذا المزيرة؟ لماذا لا يكون شيئًا أخر؟

سألني وهو يقطب جبينه:

- لا يوجد سبب إلا أن أسطورتها كانت منتشرة في المنطقة وقتذاك.. وربما قبل ذلك بكثير.. لا أعلم تحديدًا منذ متى.. لكن العجائز يعرفون عنها منذ مولدهم تقريبًا.

سألته مجددًا:

- وما هي بالضبط؟ ومن أين أتت؟ ومن الذي أطلق عليها ذلك الاسم؟

أجاب بعد برهة من التفكير:

- لا أعلم شيئًا عنها على الإطلاق؛ لكن يبدو أن الإسم مستمد من زئيرها الذي سمعته بأذنيك، وربما لأنها تحتاج إلى وسط مائي.

تذكرت ما قالته لي "سارة" وقتها، وقلت:

- وربما أتى من المزيرة التي كان يحتويها ذلك الكهف، وتم تحريفه.

نهض مجددًا مشيحًا بكفه وقال:

- الاسم لا يفيد في شيء.. الأهم الآن هو العثور عليها.

سألته متعجبًا مما قال:

- ولماذا؟ ما الفائدة التي ستعود علينا من جراء ذلك؟

obeikandl.com

علت وجهه ابتسامة أخذت تتسع حتى كادت أن تلتهم وجنتيه، وقال:

- ألا تريد العثور على مُدرستك الحبيبة؟

اللعنة.. لقد نسيت تمامًا سبب تواجدي هنا.. بل السبب الرئيسي الذي بات يحركني.

هنا بدأت الأسئلة في التبدل؛ بسبب ما توصلت إليه من معلومات، ربما كانت حقيقة.

ماذا لو عثرت عليها، وكانت كما يقول؟

ماذا سأفعل حينها؟

هل سأقتلها، أم أدعها تعيش حياتها الغامضة المخيفة؟

ولو فعلتُ وتركتها هل سيتركها هو؟

سِرُّ حماسته لا يروق لي، ولا أجد سببًا مقبولًا إلا رغبته في الإنتقام ممن قتلت والده، وهذا يجعلني حائرًا لا أعرف كيف التصرف.

هل أضع يدي بيديه، وليكن ما يكون؟

أم أتحرك وحدي، تاركًا لنفسي الحرية الكاملة في التصرف؟

أم أشارك الأمر مع أصدقائي؟

obeikandl.com

لأدع كل شيء الآن، حتى يأتي وقته، ربما ما فكرنا فيه مجرد تفسير أخر؛ لشيء ما سنعرفه في حينه، وربما عثرنا على "سارة" سليمة كمقبرة توت عنخ أمون؛ لينتهي كل شيء نهاية سعيدة ترضي جميع الأطراف.

لم أعلم وقتها أن النهايات السعيدة لا توجد إلا في الأفلام، وأن الكوابيس الحية هي السائدة في هذا العصر المبهم، الذي لا يعرف أحدًا إلى أين يقودنا في طريقه؛ لكنه مظلم على ما يبدو، يلفه ضبابٌ رماديٌ كئيب، يمنع أشعة الشمس من العبور.

***

obeikandl.com

(14)

مستقلًا سيارتي.

أجوب شوارع المنطقة المظلمة الغافية، في ليلة شتوية باردة، يجالسني "ممدوح" كحارس خاص، يتدلى سلاحه الناري على وسطه بواسطة جرابٍ جلديٍ أسود، عيناه كالصقر تجوب الشوارع، وتمسحها بحنكة تدرب عليها كثيرًا من خلال عمله كضابط شرطة محنك، باحثًا عمن لا يعرف هيئتها إلا صورة ضبابية باهتة رسمتها له في مخيلته، لا أعلم كيف سيعثر عليها، وهناك الآلاف اللاتي يتشابهن معها شكليًا وجسديًا، ربما سيكتفي بمن تتشابه معها، وسيطالبني حينها كي أؤكد له أو أنفي شكوكه التي بدأت تحوم حولها.

أيام عديد مرت زاد معها قلقي وسأمي من الأمر برمته، تناوبت فيها البحث بصحبته تارة، وبمفردي تارة أخرى، وتضاءل داخلي أي أمل في العثور عليها، أو رؤيتها تجوب المنطقة كما رأيتها مصادفة أول مرة.

بدأنا بحثنا بطبيعة الحال داخل أطلال الفيلا، الخاوية تمامًا من أي ملمح من ملامح الحياة، أو أثر يدل على أن شيء ما سكنها منذ فترة قريبة، لا جثث أو دماء من أي نوع، مما جعلني أشك في كل شيء، وأن مطاردتي من قبل وحش مخيف يتستر بالظلام محض هراء، خيله لي الخوف وألاعيب الظلال، أوربما كان بالفعل مجرد كلب مسعور يتخذ من المكان مأوىً له.

أما عن ذلك الكهف فلم نعثر على أي أثر له، صحيح أن المنطقة تعج بعدد من الكهوف؛ لكن تاريخ الحادث القديم جعل العثور عليه أمر أشبه بالمعجزة، كأنه تلاشى من الوجود بأزياره، وصخوره وعظامه التي تتناثر في أرجاءه؛ كمقبرة منسية تعود إلى العصور الأولى المظلمة.

لم نجد شيئًا نفعله بطبيعة الحال إلا البحث عنها، بادئين بذلك المكان الذي رأيتها فيه، وبدأت معه قصتي الغريبة، ربما صادفتني رؤيتها مجددًا، وتشبعت عيناي بمُحَيَّاهَا الجميل الذي اشتقت له كثيرًا؛ لكن الأيام بدأت تتسرب بسرعة عجيبة؛ كالأمطار التي تتخلل حبيبات الرمال في الصحراء، حتى بت أشك في كل شيء، وأن ما نبحث عنه محض سراب.

حتى أتى اليوم الذي رأيتها فيه فجأة.

***

لم أصدق عيناي وقت ذاك، خاصة أن الأمطار كانت تهطل بغزار شديدة، لم تعهدها العاصمة من قبل، والرياح تهب بشدة عابثة بقمم الأشجار، ضاربة كل شيء بقبضاتٍ شديدة البرودة؛ ليتناهى إلى مسامعنا بين الحين والأخر، صليل أبواب المحلات الحديدية، وتخبط ضلفتيّ نافذة ما نسي صاحبها أن يغلقها، أو سقوطِ مُدَوٍّ لمصباح إنارة؛ ليسد الطريق مصدرًا ضوءًا لامعًا متقطعًا، يضيء الإسفلت اللامع المصقول من جراء المطر لحظات، ثم ينطفئ تمامًا ليعم ظلام باهت، تتراقص فيه خيالات مبهمة خلف زجاج السيارة الشاحب.

دار المقود بين يديّ عندما كدت أن أدهسها، كأنها قد ظهرت من العدم لتلبي رغبتي الخاصة في العثور عليها.

السيارة تنحرف بحدة، وتعتلي الرصيف مصطدمة في طريقها بسورٍ قديم متهالك من القرميد الأحمر. المخيف في الأمر أنها لم تبالِ؛ كأنني كدت أن أدهس شخصًا أخر تمامًا، حدقت فقط بي في شراسة وحشٍ ضاري، وعينان أكاد أجزم أنهما كانتا مضيئتان في قلب العتمة؛ كأعين حيوان من فصيلة السنوريات ، ثم واصلت طريقها غير مبالية بالأمطار الغزيرة التي أغرقتها، حتى ابتلعها الظلام.

صاح "ممدوح" بحنق شديد:

- ماذا بك يا أحمق.. كدت أن تتسبب في مصرعنا.

حدقت فيه ذاهلًا، وأنا أقول بتلعثم:

- إنها... إنها هي.

لم يحتاج الأمر إلى ذكاء ليعرف من أقصد؛ لذلك سأل بطريقة عملية:

- هل أنت متأكد؟

أجبته دون تردد:

- نعم.

غادر السيارة مشهرًا سلاحه، وبدا مظهره مهيبًا بقامته الفارعة، وخيوط الأمطار التي تتساقط عليه بغزارة، راسمة لوحة تمثل معاني القوة والصمود.

سألني بنفاذ صبر:

- إلى أين اتجهت؟

أشرت إلى الطريق التي توغلت داخله؛ فأسرع راكضًا خلفها كالفهد.

الحيرة تتملكني لا أعرف ما الذي عليّ فعله الآن. هل أركض خلفهما؟ أم أظل هنا محتميًا بالسيارة.

اللعنة.

هتفت بها وأنا أغادر السيارة، محدقًا في الطريق الغامض المخيف، الذي بدا كستار أسود، حجبهما عن ناظري، شاعرًا أنهما سيوديان بي إلى التهلكة، ولم أعلم بعد أي صف منهما أتخذه.

رجل العدالة الذي يتعقب المجرمين، ويدافع عن الأبرياء. أم فتاة أحببتها كثيرًا منذ الصغر، وصارت شيطانًا مريدًا.

فلأجدهما أولًا ويفعل الله بعد ذلك ما فيه الخير للجميع.

اتصلت به على هاتفه المحمول كي يطمئن قلبي.

لا شيء.

مجرد صافرة قصيرة متقطعة يعقبها سكون تام، الأمر لا يحتاج إلى ذكاء لأعلم أن الشبكة قد أصيبت بعطب ما، بسبب الأمطار الغزيرة.

بدأت التحرك، متخذًا طريقي خلفهما غير عالم بما سأجده، وإن كان يبدو مخيفًا تقشعر له الأبدان.

ولا يبشر بأي خير.

***

تقافز قلبي بين ضلوعي في توتر لا مثيل له، وأنا أقطع الطريق الموحل الزلق بأنفاس مبهورة، والرياح الباردة تضرب وجهي بشدة، في محاولة منها إلى إحالتي لتمثال جليدي، محاولًا بحذر تفادي السيارات السريعة التي تومض مصابيحها بأضواء زئبقية، تكاد أن تغشي عينيّ، بينما يتطاير الرذاذ مغرقًا ملابسي، أثر احتكاك عجلاتها بالبرك الصغيرة التي خلفتها الأمطار.

واصلت شق طريقي في تلك الأجواء الغير مسبوقة، وأنا أنبش عن أي أثر هنا أو هناك، يدل على الاتجاه اللذان ذهبا صوبه؛ لكنني لم أجد شيئًا بطبيعة الحال، يستطيع أن يبقى في قلب ذلك الجحيم العاصف.

السماء أمست صافية يملؤها الشجن، وبدأت تتوقف عن بكائها الذي أغرق الكون.

ألمح أضواء مطعم ساهر على مبعدة في تلك الظروف الشتوية؛ فيملئني الأمل في أن ثمة أحد هناك قد رأى شيئًا، أستطيع على ضوءه مواصلة طريقي.

لمحت رجلًا يقف أمام إناء ضخم من الزيت المغلي، يلقي في جوفه أقراص عديدة من عجينة الطعمية؛ فوقفت بالقرب منه أستزيد من حرارته الدافئة، التي اشتقت إليها كثيرًا في هذا البرد القارص، بينما أخذت المظلة الكبيرة المفرودة أسفل اللافتة الرخامية العتيقة، تقطر بضعة قطرات مشبعة بالأتربة فوق رأسي.

ليس أحب الآن إلى قلبي، أكثر من شطيرتَيّ طعمية ساخنة، مع بعض الليمون المعصفر؛ لكن هذا ليس وقته بالتأكيد.

سألته بينما الرائحة الشهية تقلص معدتي جوعًا:

- ألم ترى رجل تبدو على ملامحه سمات رجال الشرطة مَرَّ من هنا؟

حدق في لحظات عاجزًا عن الفهم، وسألني:

- ماذا؟

عدت اسأله مجددًا، وجاءت إجابته بالنفي.

انصرفت محبطًا لا أعلم إلى أين أذهب؟ والقلق يأكلني من الداخل على مصيرهما.

تبًا لك يا "ممدوح"، وتبًا لحبكِ يا "سارة".

بل تبًا لفضولي اللعين، الذي جعلني ابدأ هذا كله، لو لم أفعل لكنت الآن في منزلي أنعم بفراشي الدافئ، وأشاهد فيلمًا يناسب مزاجي المتعكر، أو أقرأ رواية ما أتفاعل مع أبطالها، وتجذبني أحداثها، مع كوب من الكاكاو الساخن.

كشك يشع بالضوء الباهت على قمة الشارع، توجهت إليه فاقدًا لأي أمل.

رأيت داخله عجوز متلفع بشيءٍ ما بالي كالح اللون، يبدو أنه كان في يوم من الأيام شال صوفي. طلبت منه أولًا علبة من السجائر، أشعلت أحداها طلبًا للدفء، ثم سألته إن كان قد رأى أيًا منها؛ فجاءت إجابته مشجعة، حين قال:

- رأيت رجل بهذه المواصفات يقطع الطريق إلى هناك.

وأشار إلى منطقة بعيدة نوعًا ما، يخيم عليها ظلام تام بطريقة مقبضة كئيبة؛ فسألته بقلق عن طبيعتها.

أجاب مستغربًا جهلي، وقال:

- هذه مقابر المقطم يا باشا.

مقابر؟!

هذا ما ينقصني الآن بالفعل.

***

انتابتني بعض المخاوف، أرتعد لها جسدي وارتجف؛ كمن أمسك أسلاكًا كهربائية عارية بكلتا يديه، أخذت تبعث داخله شحنات عالية الفولتية، وأنا أقطع عرض الشارع بخطوات قلقة مترددة، حتى وصلت إلى حوائط عديدة متلاصقة تخفي وراءها ساحات المقابر، بأبوابها العديدة، وممراتها المتشابكة المعقدة، وشواهد القبور التي يعلوها اسم فقيدٍ ما.

أنا أول أحمق يخطو بإرادته الحرة إلى أكثر الأماكن رعبًا على الإطلاق.

طريق ترابي يمتد إلى الداخل، والظلام يهيمن بقوة غير مسبوقة، مع تلاشي أي بصيصٍ للنور، وغياب كامل لضوء القمر. الليل والعتمة يضاعفان مخاوفي إلى أقصى درجة، حتى أكاد أتيقن أنني لن أخرج من هنا إلا جثة هامدة، أو شخصًا مخبولًا أصابه جنون مطبق.

عقلي يسبح في الخيالات، متذكرًا تلك الحكايات المخيفة، التي سمعتها عن الأشباح وجثث الموتى، والعابرين ليلًا؛ فيهيئ لي أن تلك الشجرة الباسقة، الممتدة الأغصان كأذرع الشيطان، ما هي إلا أحد مخلوقات الجن يستعد لمعاقبتي، قبل أن أتبين حقيقتها على ضوء المصباح الصغير، بعد أن أشعلته في مقدمة هاتفي المحمول، ومع ذلك فشل في تبديد كتل الظلام الثقيل المدلهم.

أنفاسي تتسارع، وأنا أرمق تلك الأبواب العديدة المغلقة، وقلبي ينقبض في هلع بسبب وحشة المكان؛ ليزيد الرعب داخلي أضعافًا، بينما عقلي يفكر في الهرب بأقصى سرعة، ونسيان الأمر برمته.

مهلًا.. ما هذا؟

ألمح على الضوء الشحيح أثار أقدام غائرة، في قلب الرمال المنداة بالماء.

تبدو حديثة.

لو أنني قصاص أثر محترف؛ لقلت أنها لشخص قوي البنية، فارع الطول، يحمل مسدسًا، ويطارد غولة اقتلعت قلب والده من صدره.

حاولت تتبع الأثر لكن على ما يبدو أنني لست بتلك المهارة، أثار الأقدام تتلاشى تدريجيًا، وكأن صاحبها يحاول التسلل بحذر؛ كي يباغت شيئًا ما، وهذا يجعلني أفكر بجدية.

لماذا لم يهاجمها؟

أم أنها سبقته كثيرًا؟

واصلتُ التقدم على الرغم من اختفاء الأثر، وكلي أمل في العثور عليه مجددًا، أو إيجاد صاحبه.

ثمة بوابة لأحد المقابر تم فتحها عنوة، وسلسلة حديدية محطمة تتدلى من شقوقها السوداء.

اختلست النظر إلى الداخل؛ لعلني ألمح شيئًا.

لا أحد سوى الظلام.

ترى ما مدى شجاعتي في العبور؟

لأجرب الآن.

***

obeikandi.com

(15)

الخوف والوحدة والظلام، ومقابر عديدة تحمل في جوفها سكانها، مجرد أجساد ساكنة لا تملك من أمر نفسها شيئًا، بعد أن فارقتها الروح، وتركتها كدمية ماريونيت تم قطع خيوطها.

خليط لا ينذر بأي خير، ويبعث برعب متطاير لا حدود له كشواظ نحاس مشتعل.

متسللًا بحذر قط يستعد للإنقضاض، لتستقبلني رائحة شنيعة لا تطاق، رائحة جثث متحللة على مر الزمن، مصدرها تلك الفجوة، التي تفغر فاها، وتملأ حلقها ظلال داكنة لا أستطيع سبر أغوارها.

يبدو أن أحدهم بالداخل.

تُرَى هل هم مجرد لصوص مقابر، يسرقون الجثث لبيعها، أم أنها "سارة" تبحث عن عشاء تقتات منه؟

اختبأت بسرعة محمومة، في أقرب ركن ليداريني عن الأنظار، مراقبًا تلك الفجوة السوداء المفتوحة كبئر الجحيم، أرهف السمع لعلني أسمع شيئًا يمدني بمعلومة ما، بدلًا من حالة عدم الإتزان التي أعانيها، والجهل المطبق عن مصيرهما؛ لكن قلبي اللعين أخذ يخفق في قوة، مرسلًا دقاتٍ كقرع الطبول إلى أذني، كاد يتسبب في فضحي,

الرائحة شنيعة حقًا، تهب من الداخل، وتكاد تُزهِقُ روحي؛ لكن...

صوتٌ ما ينبعث من الداخل.

أصغيت السمع أكثر؛ فبدا لي أشبه بتحطم عظام.

ترى هل داسها أحدهم دون قصد، أم أنها تمصمص عظام جثة ما، بعد الانتهاء من وجبتها الدسمة؟

الفكرة رهيبة اقشعر لها بدني، وجعلني أرغب في الصراخ، والركض بكل ما أوتيت من قوة، تاركًا كل هذا الرعب المقيم.

اللعنة عليك يا "أحمد"، وعلى حماقتك الشديدة.

الصوت يتصاعد إلى الخارج بحذر.

شخصًا ما سيغادر مرتقيًا درجات المقبرة، وما هي إلا لحظات حتى أتبينه.

كتمت شهقة كادت أن تصدر على الرغم مني عندما لمحتها.

إنها هي.

ملابسها قذرة ممزقة في أكثر من موضع كالمتشردين، وشعرها ثائر مختلط بالأوحال، تجر بيديها جثة يلفها كفن أبيض كالشرنقة.

بدت لي في تلك اللحظة؛ كقطة برية متوحشة خرجت لتوها من معركة مع أقرانها.

توقفت بغتة، وهي تتشمم الهواء كأن رائحة ما قد جذبتها، ثم انحنت على الجثة تحملها بسهولة من يحمل دمية أطفال، وغادرت باب المقبرة في طريقها إلى مكانٍ غامضٍ، لا يعلم سبيله إلا الله سبحانه وتعالى، وهذا ما جعلني أفكر جديًا في تتبعها بحذر لمعرفته، حتى لا نعاود الكرة، في البحث

عنها مرة أخرى، مع ما سيتسبب ذلك من بذل جهد شاق مضاعف، يمكنني تلافيه الآن بالقليل من الحيطة، والكثير من الذكاء.

ظللت ساكنًا مكاني بلا حراك، أحاول التقاط أنفاسي المتقطعة، ومد الشجاعة إلى أطرافي كي أتحرك خلفها، عقلي يحاول حثي على عدم فعلها، صائحًا بحسرة.. لا تفعلها يا أحمق، لو كَشَفَتْكَ ستكون نهايتك بالتأكيد، ولن يسمع عنك أحد بعد ذلك قط، سيختفي أي أثر لك كما حدث لـ"ممدوح".

"ممدوح"؟! أين هو الآن حقًا، ولماذا اختفى بتلك الطريقة العجيبة؟

هل قتلته؟

ضغطت زر الاتصال به مرة أخرى، ليعاودني ذلك الصفير القصير المتقطع، الذي يكاد يحرق أعصابي بشدة، لو انتهى الأمر على خير، سأغير تلك الشبكة اللعينة.

غادرت المقبرة ببطء، متمنيًا في سري ألا تكون قد تلاشت عن الأنظار؛ فهذا سيزيد من مهمتي صعوبة.

الحمد لله.

قلتها وأنا أتنفس الصعداء، عندما لمحتها تتوارى بعيدًا، يميزها لون الكفن الأبيض الواضح تمامًا في قلب تلك العتمة. تحركت خلفها بحذر شديد، محاولًا ألا أدهس بقدمي على جذع شجرة جاف، أو أصطدم بعلبة من

صفيح، فهذا كفيل بإحداث ضجة قادرة على إيقاظ الموتى، كما يحدث في القصص والأفلام السينمائية.

لا أرغب في التعجيل بموتي الآن.

***

مر ما يقرب من النصف ساعة، حاولت فيها الاتصال بـ"ممدوح" عدة مرات، لكن لا مجيب.

ما زلت أتتبع خطاها الحذرة، والرياح الباردة تضرب وجهي، وتكاد تجمده، بينما الهواء يخرج من فمي مشكلًا أبخرة متكاثفة تتصاعد إلى أعلى.

كانت تتخذ طرقًا ملتوية عجيبة بعيدة عن العمران، يكتنفها الظلام والوحشة، كأنها تخشى أن يراها أحد، وكان هذا يبدو لي غريبًا بعض الشيء، ثم أيقنت أنها لا بد أن تتصرف بهذه الطريقة حتمًا، حتى لا تلفت أنظار الفضوليين، وتعيش حياتها في حرية تامة دون مطاردة أو محاولة لقتلها، وهذا يعني حتمًا أنه حدث قبل ذلك.

لكن هذا لا يفسر نقطتين غامضتين بالنسبة لي.

الأولى هي رؤيتي لها تسير بحرية تامة بين جموع البشر، والثانية تَبَدُّل هيئتها المهندمة إلى تلك الهيئة المزرية التي تبدو عليها الآن.

هل هذا بسبب صيدها والمطر، أم أنها ظلت مختبئة في مكانٍ ما لمدة ربع قرن من الزمان؟

أسئلة عديدة يعج بها عقلي، ويعجز عن إيجاد أية إجابة منطقية.

انتبهت لها منتزعًا عقلي من شروده، فوجدتها تعرج الطريق متجهة إلى أطلال الفيلا على ما يبدو، فهذا الطريق يقود إلى هناك كما أظن. ما هي إلا دقائق معدودة حتى أتأكد.

الدقائق تمر بطيئة ثقيلة، وما زالت تتخذ نفس اتجاه الفيلا، وهذا يؤكد أن استنتاجي صائب تمامًا، مما جعلني أفكر في الانتظار برهة، بعد أن عرفت مكانها. سأستريح قليلًا، لأعيد ترتيب أفكاري، وسأعاود الاتصال بـ"ممدوح" لإبلاغه بالتطورات هذا لو كان ما زال حيًا. أرجو هذا. لو حدث له مكروه سألوم نفسي ألف مرة، لأنني لم أتحرك معه في الوقت المناسب، تاركًا نفسي لحيرتي وتفكيري ومخاوفي.

اللعنة. الشبكة ما زالت معطلة على الرغم من توقف المطر، ولا أعرف ما الذي عليّ فعله. هل أقتحم الأطلال للتأكد من مكان تواجدها؟ أم أفر ناسيًا الأمر كله؟

لا يوجد أمامي الآن إلا التأكد، وسأترك التصرف لوقتٍ أخر.

تسللت بحذر إلى الأطلال عابرًا بوابة الحديقة، التي بدت لي هادئة أكثر من اللازم، حتى من أصوات صفير الحشرات الليلية، وكأنها أدركت أن الصمت مطلوب، فجنحت إليه. الأشجار باسقة في سكون بعد اغتسالها بمياه المطر، والأرض المعشوشبة صارت لزجة موحلة، لوثت نعل حذائي مما سبب لي بعض العسر في الحركة؛ كأنني قد خطوت على بركة من الغراء اللاصق.

راقبت المشهد في الداخل عبر فراغ الحائط المتساقط، ليقابلني سكون أخر ليس له ما يبرره، فهي الآن في منزلها الذي تعودت عليه، وحق عليها أن تتصرف على سجيتها، إلا لو كانت قد شعرت بتعقبي لها، وقامت بنصب كمين لي.

شَرَكٌ أذهب إليه بقدميّ، وأسقط فيه كالغِرِّ الساذج.

أم أنها اتخذت مخبأً ما في الداخل، يُبْعِدُ عنها أعين الفضوليين، والمتسللين، حتى لا يكتشفوا أمرها.

حذرٌ مبالغ فيه لمخلوقة لا يستطيع أحد مجابهتها أو قهرها.

أو هذا ما أعتقد.

لكن أين يقع هذا المخبأ؟

هل داخل أحد الغرف العلوية، أم في القبو؟

القبو يبدو لي مكان مثالي، لكن هل يوجد قبو هنا فعلًا؟ ولو وجد أين هو؟

لا يوجد لدي خيار إلا البحث والتنقيب، محاذرًا إلا أصدر أي صوت، وهذا ما يبدو لي عسيرًا، مع كل هذا الأثاث المهشم، والأحجار المتساقطة التي تملأ أرجاء المكان.

لأجرب على أية حال، ولو حدث شيئًا سأهرب كما فعلت سابقًا.

المفترض أن أي قبو محترم، يقبع أسفل درجات السلام، أو بجوارها؛ لأبدأ بحثي من هناك.

بروووم.

البرق يومض عبر زجاج النوافذ المهشم في تتابع، يضيء البهو لحظات، ثم يتلاشى راسمًا ظلال عمودية، يعقبه هزيم مدويكالرعد كانفجار القنابل.

ألم يكن الضباب قد بدأ في الإنقشاع، أم أن الأجواء تتفاعل مع الحدث؟

أنبش بحذرٍ عن باب القبو حتى وجدته، قديم متهالك، مصنوع من الخشب السويدي الرخيص الهش، موارب قليلًا، تتدلى من خلفه ستارة الظلام الأسود. دفعته قليلًا ببطء، حابسًا أنفاسي من فرط رعب الموقف. لو هاجمتني الآن لن تحتاج إلى قتلي؛ لأن قلبي سيتوقف حتمًا من الهلع الشديد الذي سيصيبه.

أهبط درجات السلم البالية، التي تعلوها الأتربة في طبقاتٍ متساوية، متفاديًا عدة صناديق ممتلئة بزجاجات فارغة، نسجت العناكب خيوطها بين فراغاتها، و ملأ سطحها الغبار المتراكم عبر السنين. ارتجفت رعبًا، وبات لديَّ استعداد غريزي للتراجع، والهرب لو لزم الأمر.

وميض البرق يعبر نوافذ زجاجية صغيرة متلاصقة تعلو الحوائط، لمحت على ضوءه الخاطف مخلفات عديدة، تتناثر في أرجاء القبو. صناديق مهشمة، وحقائب سفر ممزقة، والعديد من الأوراق، والكتب القديمة. ثمة فأر ينسل بعيدًا، بعد أن أفزعني، وجمد الدماء في عروقي، عبر فراغ أسود، يختفي تحت أحد الأركان، أشبه بفتحة نفق ما أو كهف، حفره أحدهم لسببٍ غامض.

ومن يكون غيرها؟

يزداد قلبي في التقافز، عندما أدركت أنها الآن في الداخل، تنعم بوجبتها، أو تقوم بتخزينها لحين الحاجة.

باب القبو سهل الهرب منه ببعض العسر، لكن هذا النفق الذي لا يعلم حدوده أو عمقه إلا الله، يبدولي كفخٍ مثاليٍّ مُحكَم لا فكاك منه. سأكتفي الآن بما توصلت إليه، ومعرفتي بهذا النفق الخفي، الذي لا يعرف طريقه أحد غيري على ما أعتقد، ولأغادر هذا المكان اللعين فورًا.

تراجعت إلى الخلف بحذرٍ تدريجي، عازمًا على الخروج، لولا تلك الصرخة المكتومة، التي تردد صداها داخل النفق، وعبرت إلى أذنيّ واضحَة جليَّة، وجعلتني أكاد أسقط مصابًا بسكتة قلبية. تساءلت بوجل عن صاحبها.

أهو "ممدوح"؟

لا إنها صرخة أنثوية بالتأكيد، ولا يحتاج الأمر إلى الكثير من الذكاء لمعرفة صاحبتها.

تناسيت كل ما سمعت من حكايات مرعبة، وتفسيرات خوارقية، لم أتذكر إلا قلبي الذي خفق في لوعة مردداً اسم "سارة"، وأنا أشعر أن هناك خطرٌ ما يتهددها، خطر سيفسر لي كل تلك الألغاز والتناقضات التي غَرِقْتُ فيها حتى النخاع.

تخليت عن حذري تمامًا، وأنا أضيء المصباح الصغير في مقدمة هاتفي، وجثوت على ركبتيّ أرسل شعاعًا رفيعًا من الضوء، متفحصًا امتداد النفق إلى الداخل، متسائلًا عن سر هذه الصرخة، هل هناك شيءٌ ما يسيطر

عليها، ويجعلها تنفذ رغباته رغمًا عنها، ثم يحبسها في الداخل، ويذيقها من العذاب ألوانًا؟

أعتقد هذا نظرًا لحالتها المزرية، وملابسها الممزقة.

لكن من هو، ولماذا يفعل هذا؟ أم الأدق أن أقول ما هو؟

عقلي حائر بشدة، يخترع فرضيات لا سبيل للتيقن منها، نظرًا لأن عقليتي غير تحليلية كعقلية "ممدوح"، ولا أمتلك من الذكاء ما يكفي لرسم سيناريو ما، يقترب من حافة الحقيقة.

اللعنة.. سأذهب إلى الداخل، وليكن ما يكون.

لو كانت وحشًا يسعى لصيدي، سأعاود الهرب، ولو كانت في خطر ما يتهددها، سأحاول إنقاذها منه. لا أملك خياراتٍ أخرى.

عبرت فجوة النفق، زاحفًا على أربعٍ نظرًا لضيق المكان، الهواء صار ثقيلًا للغاية، جعل أنفاسي تضيق كأنني أعبر قلب الهرم الأكبر.

النفق ممتد كثيرًا إلى الأمام، ومنحني قليلًا لأسفل، مما جعلني أشك في أنه يمتد أسفل الحديقة بعدة أمتار، ويتوغل إلى جهة ما غير معلومة، بعيدة تمامًا عن الفيلا.

الدقائق تمر سريعًا، ربع ساعة كاملة ظللت زاحفًا، حتى تسلخت أطرافي، وانتشر الألم على عضلات جسدي، النفق اللعين يبدو أن لا نهاية له. شيئًا فشيئًا بدأ ضغط الهواء يخف، والجدران تتسع حتى وجدت نفسي داخل

كهفٍ ما، تملأه الأزيار والحفر، وقطع الصخور المتساقطة. هناك ضوءٌ ما شحيح، ينبعث من مكان مجهول.

يا إلهي.. هذا هو الكهف الذي كنا نبحث عنه.

تناهى إلى سمعي أنين خافت، صادر من بقعةٍ ما.

نبشت بعينيّ أرجاء الكهف مدققًا، حتى لمحت ذلك الجسد المتكوم في أحد الأركان.

الحب هو أغرب شيء في الوجود، يحتل كياننا كالخلايا السرطانية، ويلغي من عقولنا أي تفكير منطقي. لقد جعلني أتناسى كل الحقائق التي توصلت إليها مع "ممدوح"، وإلقاءها بعيدًا، ليس هذا فقط بل حاولت تكذيب ما رأيته بأم عيني، وأخذت ألتمس لها الأعذار، خالقًا سيناريوهات أخرى تبرئها تمامًا مما هي عليه، لذلك جاء رد فعلي مناسبًا لحماقتي الشديدة، وسذاجتي التي أحسد عليها.

شهقت بجزع، وأنا أعدو إليها، متخليًا عن حذري. و ربت على كتفها في حنان بالغ، متسائلًا في قلق:

- سارة.. هل أنتِ بخير؟

التفتت لي بوهن شديد، وهي تئن أنينًا ارتجف له فؤادي، وقالت بضعف:

- السوار.

لم أفهم ما تريد قوله؛ فسألتها بحيرة:

- أي سوار تقصدين.

مدت معصمها الأيسر، وهي تريني ذلك السوار الذهبي، قائلة بلهجة من يحتضر:

- انزعه أرجوك.

احتضنت كفها الرقيق بشوقٍ طال انتظاره، رقص له قلبي بسعادة بالغة، ولولا دقة الموقف لقبلت شفتيها بشدة؛ لكن ما رأيته على ملامحها أصابني بصدمة شديدة، هزتني من الأعماق.

إنها تحتضر.

كل تلك السنوات التي عشقتها، والأيام التي قضيتها في سهاد بسبب تفكيري فيها، ستضيع سدى، وسأفقدها إلى الأبد، ويبدو أن هذا السوار اللعين هو سبب ما يحدث لها.

لا.. لن أدع هذا يحدث.

نزعت السوار عنها بقوة، وأنا أهتف باكيًا:

- أرجوكِ.. لا تذهبي.. ابقي من أجلي.

رمتني بنظرة غريبة جعلت الرعب يدب في أوصالي؛ فتراجعت بقلق إلى الوراء كفأر يرى الموت قطٌ زاحف، وأنا أراقبها تقف ببطء وثقة؛ كعنقاء تنهض من رمادها.

اشتعلت عيناها بوميض أحمر مخيف، وهي ترفع ذراعيها إلى أعلى، مطلقة ذلك الزئير الرهيب من حلقها، زئير ردده الكهف بقوة، حتى كاد أن يصيبني بالصمم، ومن فتحات وجهها حدثت أغرب ظاهرة رأيتها على الإطلاق، خيوط من المياه تخرج من فمها وأنفها وحتى عينيها، طفت في فراغ الكهف لحظات، ثم صعدت إلى أعلى رأسها، مشكلة هيئة سريالية مخيفة.

وسرعان ما انقضَّت عليّ كالصاعقة.

***

obeikandl.com

تدور الأحداث التالية من الفترة 386 هـ إلى عام 411 هـ

كان الحاكم بأمر الله مولعًا بالتجول وحيدًا، ومغرما بالسير منفردًا في شوارع القاهرة عبر أزقتها وساحتها في الليل.. يخفي قامته العملاقة بذلك الرداء الأسود الذي ينسدل على وجهه، مخفيًا ملامحه الحادة عن الأنظار.

حتى أتت تلك الليلة التي سمع فيها كلامًا عجيبًا.

لقد وجد الناس يثرثرون في خوفٍ عارم، عن تلك المخلوقة التي تجوب نيل مصر الخالد ليلًا، وتفتك بالصيادين الشباب، وعابري السبيل تعساء الحظ، ولا تتركهم إلا جثث مشوهة غارقة.

تملكه وقتها إحساس عجيب بالإثارة.. لقد ولت تلك الأيام المثيرة بعيدًا عندما بدأها بمواجهة أولى العقبات في حكم الدولة، ولكي يثبت لنفسه ولشقيقته "ست المُلك" أنه جديرًا بحكم مصر، كان عليه اتخاذ قرار سريع، يعيد فيه كل الأمور إلى نصابها، ويستبعد تلك العقبة بحنكة وذكاء.

عقبة اسمها "برجوان الصقلبي" الذي تركه والده في وصايته.

كان قد بلغ الخامسة عشر من عمره، وقتها أدرك أن "برجوان" أصبح طاغية، يحجبه عن الاتصال برجال الدولة المخلصين، ويعيث فسادًا في أرجاء البلاد؛ بل بلغ به حد الاستهانة إلى الاستئثار بالسلطة، وحجبه عن العامة، والاستخفاف به أيضًا، مدعيًا أنه ما زال طفلًا لا يفقه شيئًا.

وهنا لم يكن إلا حل واحد فقط ليعيد الأمور إلى نصابها مجددًا.

قتل "برجوان"

وكانت الخطة بسيطة ومدهشة تنم عن حنكة وذكاء.

في مساء اليوم الموعود، حضر "برجوان" إلى قصر اللؤلؤة الذي كان متنزهًا للخلفاء الفاطميين؛ ليستقبله "ريدان" - حامل مظلة الحاكم- بالقبلات والأعناق، حتى أن منظره كان غريبًا، وهو يتحسس جسده بخفة ليس هناك ما يبررها.

لكن هذا كان جزءًا من الخطة التي وضعها؛ لمعرفة هل يرتدي تحت ملابسه درعه الفولاذي أم لا، وعندما عرف "ريدان" أنه خالي من الدرع، أعطى إشارة خفية ليظهر بعدها جماعة الحاكم؛ لتخترق الخناجر عنقه وجسده في أماكن عدة، حتى قطعوا رأسه في النهاية، ودفنوه في المكان نفسه.

وتم التخلص من "برجوان"

وقال وقتها خطبته المشهورة:

- إن برجوان عبدي استخدمته فنصح فأحسنت إليه، ثم أساء فقتلته.. وانتم ما لكم ولهذا.

بينما صاح ريدان في الناس:

- من كان منكم في الطاعة فلينصرف إلى منزله، ويبكر إلى عمله.

عانى بعد ذلك من جيوش "أبو ركوة" التي زعزعت أمن الدولة الفاطمية، شعور عارم بالفشل والضياع انتابه، بعد معرفته ما آلت إليه الأمور في

برقة، بعد أن احتلها ذلك الأخير، وأعلن زعامته عليها.. الأدهى أنه أقام في دار الإمارة، يحكم وينهي ويصك العملات باسمه.

لقد صار خطرًا شديدًا يزعزع الدولة الفاطمية كلها، من مصر والمغرب والشام وغيرها من الأمصار، خاصة بعد هزيمة ذلك الجيش الذي أرسله بقيادة "نيال" هزيمة منكرة، انتهت بقطع رأسه.

هنا لم يكن هناك مفر إلا إرسال جيش أخر لقتال "أبو ركوة"، وخلعه من برقة في أسرع وقت، مفكرًا في سبب ثوراته وغزواته المستمرة على الدولة الفاطمية.

"أبو ركوة"

جاءت تسميته من ركوة الماء التي يحملها دائمًا؛ لوضوئه على الطريقة الصوفية، أما اسمه الحقيقي فظل خفيًا.

وعلى الرغم من ادعاءه أنه ابن أخ " هشام المؤيد الأموي؛ لكنه هناك أدلة تؤكد أنه ينتمي إلى الخوارج، أو بقايا فروع أبو مخلد ابن كيداد، أما عن غزواته فظلت غامضة، فلم تكن إلا إدعاء ساذج أنه يرغب في الإمامة كي يقيم العدل، والمساواة بين شعوب الدولة الفاطمية.

بدأ الخطر يزحف حتى وصل إلى أغوار الصعيد، ودارت هناك عدة معارك طاحنة، ولم تكن دهشة الحاكم كبيرة، بقدر دهشته من خيانة بعض القواد له، وانضمامهم إلى جيش "أبو ركوة".

خاصة ذلك الإنضمام الغامض لقائد القواد " الحسين بن جوهر الصقلي"

هنا لم يكن أمامه إلا استقدام الجيش الفاطمي المتمركز في الشام، كما استقدم ما يقارب الستة ألاف فارس من بني جراح، وأولى قيادة الجيش إلى "الفضل ابن عبد الله".

ودارت المعركة الكبرى بالقرب من الإسكندرية، ففر هاربًا حتى تم التغلب عليه بالقرب من صحراء الفيوم، وتم قطع رأس "أبو ركوة" وصلبه في الساحة الكبيرة.

لقد ولت الأيام المثيرة حقًا، لكنها ها هي تعاود الظهور.. هذا خصم جدير بالتحدي؛ لكنه لا يعرف هل ما سمعه حقيقة مؤكدة، أم مجرد أساطير من نسج العامة.. عليه التأكد قبل اتخاذه أي خطوة مقبلة.

***

تأكد بعد أيام من أن ما سمعه حقيقة مؤكدة.. لقد شاهد جثث الغرقى بأم عينه، وسمع نواح تلك الملعونة، التي لا يعلم من أي عالم جاءت؛ لكن هناك حكايات عديدة تؤكد أن من يقتلها سيمتلك قدراتٍ خارقة غير محدودة.

ولا أحد يعلم حتى الآن سر اهتمام الحاكم بأمر الله بدحرها وقتلها، هل كي يخلص شعبه المسكين من خطر وجودها؟ أم أن السبب هو الاستيلاء على تلك القدرات الخارقة لنفسه؟

لا أحد يملك إجابة هذا السؤال، الذي توارى خلف حقائق مطموسة، وخيالات المؤرخين، وتاه في عصر من أغرب العصور في التاريخ..

عصر الظلام.

***

السؤال الذي طرح نفسه كيف سيقتل شيئًا كهذا؟

لذلك نجده يتحرك في مهابة إلى "جعفر بن الروزباري" عراف الدولة، مقتحمًا مضجعه فجأة، وهو يقول بصوته الجهوري، وبلهجة أمرة:

- أريد طريقة جادة لقتلها.

كان الحاكم بأمر الله ذا بنية قوية متينه فارعة، وجسد عملاق.. يقال أنه سليل من أسرة الجبابرة العرب الأقوياء، اللذين كانوا يسكنون الصحراء، ويقارعون الطبيعة.

له عينان كبيرتان سوداوان، تمازجهما خضرة، منحته نظرات حادة مروعة كنظرات الأسد، وله صوت جهوري قوي مرعب مدوي كالرعد، حتى أن قاتلًا عنيفًا دفع إلى اغتياله، وما أن رأى هيئته حتى ارتعدت فرائصه، واضطرب أيما اضطراب، حتى فقد القدرة على التماسك؛ فأخذ يبكي ملقيًا مديته من يده.

لذلك لم يكن مستغربًا أن ينكمش العراف على نفسه من فرط الهلع.

لم يفهم العراف بطبيعة الحال مقصده؛ فتسائل في رجفة:

- ماذا يقصد سيدي بهذا؟

جذبه الحاكم بغَضْبَةٍ شديدة من ملابسه، حتى أسقطه على أرضية القاعة اللامعة، وهو يهدر:

- وتسمي نفسك عرافًا؟ سأُطَيِّرُ رقبتك إذا كنت تدعي هذا.

ارتجف العراف، وقال في محاولة لتخفيف حدة غضبه:

- أنا أعرف كل شيء.. فقط إذا سألتني عنه.. ليست لدي القدرة على الولوج إلى رأس البشر.

صمت مفكرًا برهة، وقد فهم ما يرمي إليه الحاكم، ثم قال:

- لكنني أدرك ما تصبو إليه.

تركه الحاكم، وهو يصوب عليه نظرات نارية صامتة، منتظرًا أن يفصح عما لديه.

فقال بلا تردد:

- أنت تريد القضاء على تلك الجنية التي انتشرت الأقاويل مؤخرًا عنها.. أليس كذلك؟

أجابه الحاكم بغلظة:

- بلى.

قال العراف بدهاء:

- لا توجد أداة بشرية لقتلها.. إنت تحتاج إلى أحد سيوف جيوش الجن، التي كانت تخدم نبينا سليمان عليه السلام.. لكنك يجب أن تدرك أمرين.. أنها ليست من الجن، وأن دمائها هي التي ستقتلها.

سأله الحاكم في نفاذ صبر:

- ماذا تعني بهذا؟ وكيف سأجد سيف مثل ما تدعي؟

أجابه العراف ببطء:

- أما السيف فلدي.. أما ما قلته فلا أملك له تفسيرًا.. عليك أن تدرك ذلك بنفسك وإلا فسد الأمر.

وكان القول الفصل.

***

كان الحاكم داهية، ولا ينقصه الذكاء؛ لذلك عرف تفسير (دمائها هي التي ستقتلها) يكفي أن يجرحها ليلوث نصل السيف بدمائها، من ثم يطعنها في مقتل.

أمواج النيل هادئة معظم فصول السنة؛ لكنها على ما يبدو في تلك الليلة قد مسها اضطرابٌ عجيب، جعلها تتلاعب بذلك القارب الخشبي، الذي اعتلاه بمفرده، مقتحمًا شريان النيل بحثًا عنها.

نسمات الرياح تتلاعب بملابسه الملكية السوداء، المزدانة بخيوط ذهبية، والقمر المكتمل يطفو في الفضاء كمشكاة زجاجية مشتعلة بالزيت، تمر على سطحه بين فنية وأخرى سحابة عابرة، تواريه لحظات عن الأعين؛ ليزداد الظلام، وتتلون الأمواج باللون الأسود الحالك.

عواءها يتعالى في الليل الصامت، وتحمله الرياح إلى مسامع الحاكم؛ فيحرك قاربه في اتجاه الصوت المرعب، بحثًا عن تلك المخلوقة التي كانت بلاءًا على مملكته، وقد قبضت أصابعه القوية على مقبض سيف الجن.

القارب يهتز لحظات دون سببٍ واضح، ويتأرجح كلعبة صغيرة في يد طفل مشاغب.

والسكون يعم الأرجاء.

تمتم الحاكم بصوت خفيض "أين أنت أيتها اللعينة؟"

تناهى إلى مسامعه صوت حركة في قلب الماء؛ فأخذ يراقب السطح الأسود المتموج في حذر، بحثًا عن أي أثر لها، لكن الظلام كان عاتيًا لا يستطيع أن يتبين منه أي شيء، لكنه شعر بتلك الضربة المجهولة المصدر، والتي هزت القارب بعنف شديد حتى كادت أن تغرقه.

صاح بصوته الجهوري:

- أظهري نفسك يا ملعونة.

سمع غناءها يتصاعد من بقعة ما متوارية في قلب النيل، وظهر واضحًا أنها تعابثه بكلامها:

- قد قادني جرمي إليك برمتي
كما هز ميت في رجا الموت سارب
وأجمع كل الناس أنك قاتلي
فيا رب ظن ربما فيك كاذب
وما هو إلا الإنتقام وينتهي
وأخذك منه واجب لك واجب

لم يهتم بما تقوله، ولم يحاول فهمه، كل ما كان يبتغيه في تلك اللحظة أن يحدد مكانها بدقة؛ لذلك أخذ يتسمع عله يعرف مصدر الصوت، وما أن تأكد بنسبة كبيرة، حتى رفع سيفه ليضرب به الماء بقوة.

اضطرب سطح النيل بشدة، وأحدث دوامات عديدة حركت القارب بعنف حتى كادت أن تقلبه، بينما ارتفع الصوت من بقعة ما خلف ظهره يعابثه مرة أخرى:

- والله ما كان الفرار لحاجة

سوى فزع الموت الذي أنا شارب

عاود الضرب مجددًا، لكن في سرعة أكبر ومهارة، وعندما شعر بنصل السيف يخترق جسدها، صرخ فيها مستهزئًا:

- فررت فلم يغن الفرار ومن يكن
مع الله لم يعجزه. في الله هاربُ

تعالى صراخها بعنف يصم الآذان، حتى أنه خشي على طبلتي أذنه من الانفجار، فوضع كفيه عليهما، وهو يحاول سبر أغوار الظلمة بحثًا عنها.

ارتج القارب بعنف شديد، وجعله يسقط على ظهره متأوهًا، وأمام عينيه المتسعتان لمحها في ضوء القمر الذي انكشفت عنه حجب الضباب، وكأن الطبيعة تشاركه تلك اللحظات الرهيبة.

صار المشهد للحظات كلوحة مرسومة بالأبيض والأسود، أو كأنما قد توقف الزمن.

القارب الخشبي الصغير يبدو خاليًا في قلب نيل مصر المظلم، تحركه الأمواج في نعومة، وبداخله الحاكم بأمر الله ملقي على ظهره، يراقب تلك المخلوقة التي حلقت في الهواء أمام القارب، وقد بسطت ذراعيها على مستوى كتفيها، بينما شعرها الثائر تداعبه نسمات الرياح أمام وجه القمر المحاط بكتل الضباب الرمادي.

راقب المنصور تحليقها العجيب في الجو، وببطء أخذ يبحث بأصابعه عن السيف الذي سقط منه حتى وجده؛ فقبض عليه بكفه القوية، وانتظر اللحظة المناسبة كي يطيح بها.

عيناه تراقب تحركها في حظر، وعينيها تحدجه بنظرة شيطانية يتطاير الشرر منها، الاثنان على ما يبدوا ينتظران أن يبدأ أحدهما الهجوم.

وفجأة.

أطلقت تلك المخلوقة صرخة مريعة، وقفزت في الماء تضرب القارب بجسدها محاولة أن تغرقه؛ ليصير الحاكم في عالمها المائي حيث تكون لها الغلبة، وبالفعل انقلب القارب رأسًا على عقب، وغاص الحاكم في مياه الليل السوداء لا يكاد يرى شيئًا.

لكنه أحس بجسدها يحتك به؛ فدخل معها في صراعٍ عنيف، وأخذ يضرب ما يظنه جسدها بنصل سيف الجن ضربات متتالية، حتى شعر بقوتها تضعف، وبصرخات الألم تتصاعد من حلقها، حتى همد جسدها تمامًا؛ لكن ما حدث بعد ذلك كان أعجب. أعجب بكثير.

تراجع الحاكم بأمر الله بذعر حقيقي، وهو يرى اضطراب موج النيل يثور من حوله، وكأن أعماقه ممتلئة بآلاف من التماسيح النيلية الشرسة، بينما أخذ الموج يتطاير إلى أعلى منفصلًا عن سطح النيل، وكأن قد باتت له إرادة حرة، تتيح له عمل ما يرغب فيه دون وسيط.

ظلت الأمواج ترتفع إلى أعلى، وقطرات الماء تنفصل عن سطح النيل؛ لتمتزج بها في وضع مستحيل بكل المقاييس، وكأن كل شيء يجري بصورة عكسية.

ظلت طافية أعلى رأسه بعض الوقت، ثم اندفعت إلى جسده تطوف حوله في سرعة عجيبة، ومن داخلها تردد صدى صرخات آتية من أعماق الجحيم.

تملكه الفزع وهو يرى نفسه سجينًا داخل تلك العباءة المائية، التي تدور من حوله بسرعة خارقة، وعقله عاجز عن اتخاذ أي قرار. السيف لن يكون له أي تأثير إذا ضرب به الماء، بل سيتخلله ويعبر إلى الجهة الأخرى.

شعر برأسه يدور مع تلك الدوامة، وكادت الصرخات تفقده صوابه؛ فصرخ بكل ما أوتي من قوة، وهو يهوي بسيفه محاولًا شق الأمواج إلى نصفين؛ ليصنع لنفسه بابًا للخلاص. لكنها أراحته من كل هذا عندما بدأت تتخلل جسده إلى الداخل.

ألم حارق يضرب فؤاده، ويشعل روحه، ويكاد يفجر أعماقه.

وذكريات بعيدة بعد الشمس والقمر، تتخلل عقله الحائر المضطرب.

أجواء عجيبة وجد نفسه داخلها، سرعان ما تبددت ليكتنفه ظلام دامس عميق، كأنه سقط في هوة سوداء سحيقة هواءها ماء، وصخورها طمي ناعم كالعجين.

وسرعان ما فقد إحساسه تمامًا بالوجود.

وانتهى كل شيء.

***

(16)

أحلام عديدة تدور في عقلي كالدوامة، تلف حول محورها بسرعة بالغة، ملقية بصور ومشاهد تاريخية عديدة، يكتنفها الضباب ويحجبها عن إدراكي؛ لكن بكثير من التركيز أرى "سارة" تجوب الدروب باحثة عن شيءٍ ما، وثمة حزن دفين يسحق روحها.

استيقظت مع ضوء الصباح الوليد، الذي توغل داخل الحجرة عبر خصاص الشيش، راسمًا على الجدار لوحة نورانية، انعكست على حدقتي عيني بألق هادئ، توغل داخل كياني حاملًابعض السكينة والصفاء النفسي.

الألم يدب في أوصالي، ويصعد حارقًا إلى خلاياي العصبية، مع أولى محاولاتي للنهوض.

ما الذي يحدث بحق الجحيم، ومن أين جاء هذا الألم؟

عصرت ذهني محاولًا تذكر ما حدث أمس، لتقابلني فجوات عديدة لا تجد ما يملأها، جعلتني أهوي على الفراش حائرًا مصابًا بحالة من عدم الإتزان؛ كمصاب حديث بمرض ألزهايمر، حدقت في فراغ الغرفة التي تراقصت فيها ذكرى ضبابية، لم أستطع تبين كنهها. أخر ما أتذكره أمس هو اصطدام سيارتي عندما كدت أدهس "سارة"، أما ما بعد ذلك مجرد فراغ تام؛ كأن هناك من مسح ذاكرتي بأداة سحرية.

ألم أخر يعصر قبضتي، وكأنني أقبض على نصل سكين حادة.

فتحت قبضتي المتخشبة بطريقة عجيبة؛ لأجد سوارًا من الذهب يقبع في يدي، وقد تركت أحجاره الكريمة ما يشبه الثقوب الدامية على باطن كفي. رفعته إلى أعلى متأملًا إياه في ذهول شديد، يكاد أن يفقدني صوابي.

من أين أتى هذا الشيء العجيب، ولماذا كنت أقبض عليه بهذه الطريقة الغريبة؟

خبأته حائرًا في دولاب ملابسي لحين الحاجة إليه، وعقلي ما زال يبحث في مسألة ظهوره الغريب، وكأنني فعلت أمس أشياء غامضة لا سبيل لتذكرها، وذهبت إلى أماكن مجهولة غامضة تحتوي على كنزٍ أثريٍ ما.

ترى هل لألغاز "سارة"، ورحلة أمس في البحث عنها دخلٌ ما؟

أم أنني وجدته واحتفظت به لقيمته المادية؟ فهو على ما يبدو باهظ الثمن.

السطح المصقول للمرآة، يرسل إلى عينيّ هيئة مزرية أبعد ما تكون عني.

منذ متى كنت أخلد إلى النوم، والأتربة والأوحال تغطيني؟ كأنني قضيت ليلتي نائمًا في الصحراء، أو داخل قبر، وما سبب تلك الخدوش التي ظهرت على وجهي فجأة، والدماء المتجمدة على جبهتي؟

لابد أن أغتسل حالًا، كارثة لو رأتني والدتي على تلك الهيئة المزرية، وستتلاعب حتمًا بعقلها الظنون، وستحيل حياتي إلى جحيم حتى أفسر لها ما حدث.

وكيف أفعل وأنا نفسي لا أعرف، ولا أتذكر شيئًا.

تركت المياه الساخنة تنهمر على جسدي؛ لتزيل تلك الأتربة والطمي العالق، والدماء المتجلطة، التي أسفرت عن جُرْح صغير في جبهتي، وعدة خدوش في وجهي ورقبتي.. هناك كذلك عدة كدمات تنتشر على صدري وذراعي؛ كأنني قد خرجت توًا من مباراة شرسة في المصارعة الحرة.

وهذا يجعلني أتساءل مجددًا عما حدث أمس بالضبط؟ لا سبيل لذلك إلا الاتصال بـ"ممدوح" حتى أجده، أو الذهاب إلى مقر عمله أو منزله إذا لزم الأمر، لا أستطيع إنكار أنه كان معي أمس، ولابد أنه يعرف الكثير، أرجو فقط ألا يكون قد أصابه شيءٌ ما، وإن كنت لا أظن ذلك، نظرًا لبنيته القوية، أنا نجوت على الرغم من بنيتي المتوسطة. نجوت من ماذا؟

ليتني أعلم.

غادرت الحمام وأنا أرتدي ملابسي في عجالة، لا يوجد وقتٌ لديَّ فساعة العمل قد اقتربت، والغموض يشعل النيران الحارقة في خلايا مخي.

اختطفت الهاتف من فوق الكومود، وأنا أضغط زر الفتح.

هذا غريب!! هناك عدة محاولات اتصال مني له، كما أن هناك محاولة اتصال واحدة بصديقي "حسان"، وأخرى بـ"خالد". متى حدث هذا؟

ضغطت على زر معاودة الاتصال بـ"ممدوح"، الذي كان مغلقًا أو خارج نطاق الخدمة، كما تقول تلك الرسالة اللعينة المسجلة.

لم أجد أمامي بطبيعة الحال، إلا الإتصال بصديقي ربما يعرف شيئًا.

طمأنني صوت الرنين الرتيب، هذا يعني أن ثمة أمل في وجود من يرد عليّ في هذا اليوم الأغبر. أتاني صوت "حسان" منفعلًا للغاية، وهو يهتف بلهفة:

- لقد وجدناها.

شعرت بالدهشة الشديدة من لهجته، لذلك سألته في حذر:

- من التي وجدتها؟

جاءني جوابه كصخرة هوت فوق رأسي، وهو يقول:

- من غيرها.. سارة.. لقد وجدنا سارة.
- .....
- ألو.. أحمد.. هل تسمعني.. ألو.. أقول لك وجدنا سارة.

***

ملامحها ملائكية برداء المستشفى الأبيض النظيف، ووجهها الناعم النقي الذي يدل على استحمامها منذ فترة قصيرة، كما فعلت أنا بالضبط قبل مجيئي إلى هنا. ثمة ضمادة طبية تحيط بكتفها ربما تغطي جُرحًا ما.

كانت هي حقًا، كما عرفتها في طفولتي.

لا ملامح شيطانية من أي نوع، أو زئير ما، كما كنت أتخيل، وكما أوهمني "ممدوح"، الذي فشلت تمامًا في العثور عليه ، كأنه تلاشى فجأة من عالمنا.

حمدت الله أنه لا توجد في منطقة المقطم مستشفى نفسي أخر، وإلا ما صادفها "حسان"، وما رأيتها بعد اليوم قط.. يبدو أن القدر يرسم لنا نهاية سعيدة.

سألته بفضول شديد يكاد يأكلني من الداخل:

- كيف عثرتم عليها؟

أجابني شارحًا الأمر:

- وجدها بعض الأشخاص هائمة في المقطم على غير هدىً، وبحالة مُزرية تمامًا، ومصابة بطلقٍ ناريٍّ في كتفها، فذهبوا بها إلى قسم الشرطة، وهناك أرسلوها إلى هنا، لتقييم حالتها النفسية.

سألته بدهشة :

- وكيف عرفتها؟

هز كتفيه ببساطة وقال:

- لقد عرفتها فور رؤيتها.. أنسيت أنها كانت مُدرستي أيضًا؟

هززت رأسي وأنا أقول:

- ألم تقل شيئًا؟

حرك رأسه أن لا.. لم تنطق بحرفٍ بعد.

تنبهت فجأة لما قاله عن الطلق الناري، ترى هل لـ"ممدوح" دخل في هذا؟ نقلت سؤالي إليه، فقال بحيرة:

- ربما.. لا أعلم حقيقة.. لو كان هو بالفعل فما الدافع لذلك؟ إنها فتاة عادية، وليست وحشًا كما كان يظن.

سألته مجددًا:

- ألا نستطيع معرفة هذا، عن طريق مطابقة الرصاصة المستخرجة من جسدها بمسدسه؟

هز رأسه نافيًا وقال:

- الرصاصة لم تستقر في جسدها.. لقد اخترقت الكتف، وعبرته من الخلف، مخلفة ثقب دموي نظيف.

تأملت نظراتها الشاردة، المحدقة في الفراغ؛ فسألته بقلق:

- ماذا بها؟

جذبني من ذراعي إلى خارج الحجرة، وهو يقول:

- لا تقلق.. مجرد صدمة نفسية وعصبية شديدة، ستشفى منها بمرور الوقت.

وقف دقائق أمام تلك الكافتيريا التي تحتل ركنًا صغيرًا في نهاية الممر، وطلب كوبين من القهوة المركزة، ناولني أحدهما، وهو يقول مشيرًا إلى وجهي:

- ما الذي حدث لك؟

حكيت له في كلمات قليلة ما حدث، وكيف أنني نسيت بعض الأشياء دون سببٍ منطقي.

هز رأسه متفهمًا، وهو يرشف قليلًا من القهوة، التي لوثت أسنانه، قبل أن يقول مبتسمًا:

- لا داعي للقلق يا صديقي.. هذه مجرد حالة فقدان ذاكرة مؤقت، ستعود لك تدريجيًا.

سألته بقلق:

- وما سببها؟

أشاح بكفه الخالية من القهوة، وهو يجيب:

- المرجح أنها صدمة نفسية، سببها شيءٌ ما رأيته أمس، ولم يتحمله عقلك؛ فقام بحجبه مؤقتًا. هذا كل شيء.

شعرت بالفضول القاتل، وأنا أسأله:

- وما هو ذلك الشيء؟

هز كتفيه وهو يقول مستنكرًا سؤالي:

- أنت الوحيد الذي يعرف.. أقصد أنك كنت تعرفه قبل نسيانه.

ترجلت معه في الردهة قليلًا، وعقلي يبحث المسألة، ويحاول ربط ما أتذكره بالسوار، وظهور "سارة" المفاجئ؛ لكنني لم أجد. لذلك سألته عنها:

- ماذا تعتقد أنه قد حدث لها؟

ربت على كتفي قائلًا بجدية شديدة:

- لا تفكر في هذا قط.

رفعت حاجبيّ متعجبًا، وقلت:

- ولماذا لا أفعل بالله عليك؟ ألم يكن هذا ما أريده منذ البداية؟ العثور عليها.. ومعرفة لغز شبابها الدائم.. والأسرار التي تحوم حولها.

أشار إليَّ أن أجلس على أحد المقاعد المتناثرة في أرجاء المكان، وهو يجيب بحكمة العالم ببواطن الأمور:

- أنت تريد سارة.. حسنًا.. ها هي الآن في الداخل.. لكننا لا نعرف بعد ما الذي تريده هي.. إنها إنسانة وليست حيوان أليف ترغب في شراءه.. ربما تحبها بالفعل.. لكن من قال أنها تشعر نحوك بالمثل؟ ثم الشيء الذي حدث لها أصابها بصدمة شديدة.. هل تريدها أن تتذكره هكذا ببساطة، وتحكيه لك كي يهدأ عقلك، وتشبع فضولك؟ غير مبالي بما قد يسببه ذلك من انتكاسة ربما تُفقِدُهَا عقلها.

شعرت بالغضب من كلماته، وأنا أصيح بحدة، غير مدرك أننا في مصحة نفسية، تحتاج لبعض الهدوء:

obeikandi.com

- ماذا تقصد بكلامك هذا؟ هاه.. هل تقصد أنني لا أخاف عليها، وعلى حالتها الصحية.. أنني إنسان مجرد من الإنسانية، وكل ما أرغبه هو إشباع فضولي؟ أنت لا تعرفني إذن.

أطرقت برأسي في حزن، فربت على ظهري، وهو يقول بخفوت:

- لم أفكر في هذا لحظة واحدة يا صديقي.. كنت أرغب فقط في مدك بالصورة كاملة، حتى تعرف كل شيء، قبل الإقدام على تصرفٍ ما، لا تعرف عواقبه، وقبل الوقوع في براثن عاطفة قد تكون من طرفٍ واحدٍ فقط.. أنسيت أنها كانت متزوجة، وربما ما زالت؟

شعرت بالصدمة مع كل حرف من كلماته، وأدركت أنه على حق تمامًا، لقد انسقت في عواطفي دون التفكير فيها، وكيف ستكون مشاعرها نحوي، وهي لا تعرف عني إلا الطفل الساذج، التي كانت تساعده بدافع الحنان، وعاطفة الأمومة التي حُرِمَت منها.

من قال أنها ستحبني؟ ألمجرد أنني أعشقها، وأبحث عنها؟

هل كنت أظن أنها ستدرك ذلك، وتبادلني نفس المشاعر؟

نفضت رأسي لأبعد تلك الأفكار التي تتلاعب بي، وزفرت بقوة قائلًا:

- دعنا منها الآن، ولنركز في حالتي.. قل لي: ألا توجد طريقة أستطيع من خلالها تذكر ما حدث أمس؟

***

(17)

لم أدرك أن علم النفس محيط هائل، تتلاطم فيه أمراض نفسية لا حصر لها، إلا عندما رأيت تلك الأعداد الضخمة من الكُتب، التي تحتل أرفف مكتب "حسان".

أسماء عديد ومعقدة تزدان بها الكعوب، بعضها باللغة اللاتينية، والبعض الأخر باللغة العربية الغير مفهومة بالنسبة لي، على غرار (المرجع الأساسي في تحليلات اضطراب ثنائي القطبية)، أو (أعراض وعلاج الايكوبراكسيا) كما كان هناك روايات عديدة للروائي الروسي العملاق "فيدور دوستويفسكي".

سألته بشيء من الدهشة:

- ما دخل روايات دوستويفسكي بالأمراض النفسية.

ابتسم بشيءٍ من التهكم، وكأن ما أقوله قد سمعه مرارًا حتى مل، ثم قال:

- الذي لا يعلمه العامة أن هذا الأديب واحد من أعظم المحللين على الإطلاق، لقد غاص داخل النفس البشرية بطريقة مذهلة، حتى أن فرويد نفسه اعتمد على رواياته بشكل أساسي، في وضع أسس علم النفس.

تراجعت غير مصدق وقلت:

- لهذه الدرجة؟

أومأ برأسه وهو يجيب:

- بلى.. لقد غاص دوستويفسكي حتى النخاع في أعماق أبطاله، وتناول علاقات معقدة بتحليل نفسي مذهل لا يقدر عليه أحد.. ذكريات من منزل الأموات على سبيل المثال، تناول فيها خليط من السجناء على أنهم رجال قساة بلا ضمير، ثم سرعان ما يكشف لنا الحقيقة، بعد هبوطه إلى أغوار النفس البشرية العميقة، ليس المجرمون في كثير من الأحيان إلا ضحايا ظروف اجتماعية، وليست الجريمة إلا شقاءً يحل عليهم، بل ربما كانوا أقل شرًا من الذين يعيشون خارج الأسوار.. دعنا من هذا الآن، ولنركز على حالتك.. ما هو أخر شيء تذكرة منذ أمس؟

قلت معتصرًا ذهني:

- كما قلت لك سابقًا، أخر شيء أذكره هو حادثة السيارة، ثم الاستيقاظ داخل منزلي.. ماذا حدث بعد ذلك، وكيف ذهبت إلى فراشي؟ لا أذكر.

داعب ذقنه بأنامله، وهو يقول:

- ربما الحادث أصابك بكدمة في رأسك، جعلتك تنسى عودتك إلى المنزل.. ما الذي يجعلك تظن أن هناك شيئًا أخر قد حدث؟

فكرت قليلًا قبل أن أجيب:

- اختفاء ممدوح الغامض.. و... لا أعرف بالضبط، لكنني أعتقد أن هناك فترة زمنية مفقودة، لا أعلم أين قضيتها، ولا ما الذي حدث وقتها؟

تراجع في مقعده محدقًا بعيني، وهو يقول ببطء:

- متى عدت إلى منزلك؟

شعرت بالحيرة من سؤاله، فقلت بشيءٍ من الحدة:

- أخبرتك أنني لا أتذكر.

لمعت نظرة انتصار في عينيه، وهو يقول بثقة:

- كيف إذن عرفت أن هناك فترة زمنية مفقودة؟

بادلت نظراته بحيرة مضاعفة، وأنا أقول بتردد:

- حقيقة.. لا أعلم تحديدًا ولكن.. أعتقد أن هناك شيئًا مفقودًا.. عقلي يخبرني بهذا.. الإصابات التي في جسدي على سبيل المثال.

ابتسم في شفقة وقال:

- هذا ليس دليلًا.. ربما هذه الإصابات سببها حادث ارتطام سيارتك.

تأملت المطفأة الكريستالية على المائدة الصغيرة أمامي، وذكرني بريقها بشيءٍ ما؛ فقلت بلهفة:

obeikandl.com

- عند استيقاظي وجدت سوار ذهبي في قبضتي، لا أعرف من أين جئت به.

جذبته كلماتي بشدة؛ فسألني باهتمام:

- سوار؟ أي سوار هذا؟

أجبت بسرعة:

- سوار ذهبي مرصع بالألماس، تبدو من هيئته أنه أثري.

نهض من فوق مقعدة، وجلس أمامي قائلًا بلهفة:

- هل هو معك الآن؟

تعجبت قليلًا من لهفته الزائدة؛ فقلت بشيء من التحفظ:

- لا.. لكن لماذا تبدو متلهفًا هكذا؟

ربت على كتفي بحماسة، وهو يقول:

- ألا تفهم.. هذا السوار هو الدليل المادي على أن هناك بقعة ضائعة في عقلك، وهذا سيساعد كثيرًا في العلاج.. هل تستطيع المجيء به إلى هنا؟

نهضت في طريقي للمغادرة:

- إذا كان الأمر كذلك.. سآتي به بسرعة البرق.

obeikandl.com

أوقف حماستي بإشارة من كفه، وقال بشيءٍ من اللوم:

- لا داعي للعجالة يا صديقي.. ما زال أمامي أعمال كثيرة اليوم.

صمت قليلاً مفكرًا ثم قال:

- لماذا لا تعرج عليّ مساءً في المنزل.. سيكون الجو ملائمًا أكثر كي نبدأ مرحلة العلاج، ربما تذكرت شيئًا.

وافقته بشيءٍ من الفتور.

كنت في عجالة شديدة لمعرفة كل شيء، ولم أكن أريد الإنتظار حتى وقت المساء، وأنا في هذه الحالة النفسية القلقة، مع كل تلك الألغاز التي تنشأ مع كل خطوة، والغموض المتزايد كالأرانب الوليدة.

اختفاء "ممدوح"، وعودة "سارة".

لغز ذلك السوار العجيب، والفراغ الزمني الذي أعانيه.

لكن ما باليد حيلة.

لأدعه يكمل عملي، وأحاول أنا ألا أحرق خلايا مخي من كثرة التفكير، حتى يأتي موعدنا الليلي.

***

وقت الظهيرة، والشمس باردة شاحبة بسبب الأجواء الشتوية.

obeikandi.com

يبدو أنني سأتغيب مرة أخرى عن العمل؛ لكن الذنب ليس ذنبي، بل هو بسبب تلك الحوادث المتتالية العجيبة، التي تذكرني بشيطانٍ يحاول أن يبعدني عن صلاتي، مفتعلًا أشياء عديدة ليشغلني بها. ربما كان المعنى بعيدًا بعض الشيء؛ لكنني لا أذكر أنني قد تغيبت عن عملي قط من قبل، إلا في أوقات المرض الشديد، والآن وبعد أن انشغلت بلغز المُعلمة الرقيقة، ظهر اللغز تلو الأخر؛ ليبعدني عن حياتي، وعائلتي، وعملي الذي زادت أيام غيابي عنه.

متى كانت أخر مرة رأيت فيها شقيقي "مصطفى"؟

لا أذكر تحديدًا.. ربما منذ شهرٍ كامل.

ماذا فعل في امتحانات منتصف العام الدراسي؟ هل بدأت من الأساس أم لم تبدأ بعد؟

أخرجتني جارتي القصيرة "شيماء"، ذات الوجه الممتلئ من تفكيري.

كان وجهها غارق في الدموع، وهي تنتحب بطريقة تبعث على الأسى والشفقة، التي تذيب أشد القلوب غلظة، حتى أنني فكرت أن أربت على كتفها في حنان، أو أحتضنها بعطف كي أخرجها من هذه الحالة البائسة الحزينة؛ لكن هذا لم يكن متاحًا؛ لأنني لست زوجها.

سألتها بشيءٍ من التحفظ؛ لأن علاقتنا كجيران لم تكن تسمح بالتبسط أكثر:

- ماذا حدث؟

قالت لي بنبرات مرتعشة أشبه بالرنين، وهي تواصل بكائها المحموم:

- ابني كريم لم يعد منذ مساء أمس.

كنت أعرف ابنها البالغ من العمر ثمانِ سنوات، وأراه يلهو هنا وهناك في نشاطٍ جمّ كالبراغيث، لكنني شعرت ببعض الغضب عندما تذكرت والدي، فقلت بلوم:

- وما الذي جعلكِ تتركينه يخرج بمفردة في مثل هذا الوقت؟

أجابت بلهجة ضعيفة، وهي تحاول السيطرة على حزنها:

- أرسلته لشراء دواء الضغط من الصيدلية القريبة.. الدواء كان قد نفذ، وكنت متعبة للغاية.

سألتها بشيءٍ من الحدة، غير مكترث بحالتها النفسية:

- وأين كان زوجكِ وقتذاك؟

كادت تلطم خديها، وهي تقول:

- زوجي المسكين مسافر دائمًا.. المعيشة أصبحت صعبة للغاية، وهو يحاول توفير لقمة العيش بصعوبة، حتى أنه هو الأخر قد أصابه المرض.

شعرت بتأنيب الضمير بسبب تقريعي لها؛ لذلك قلت في لهجة مشجعة:

- لا تقلقي يا سيدتي.. سيعود حتمًا إلى المنزل.

تساقطت الدموع مغرقة حجابها، وهي تحادث نفسها، أكثر مما تحادثني:

- أين بات يا ترى؟ هل اختطفه أحد؟ هل مات؟ حتى الشرطة رفضت مساعدتي، قالوا أن البحث يجب أن يتم بعد مرور 24 ساعة.. إلى أين أذهب؟ وبمن أستنجد.. تُرَى أين أنت يا كريم؟ أين أنت؟ ولماذا لم تعد حتى الآن؟ أهكذا تتركني قلقة عليك؟ أتترك أمك ينهشها القلق بهذه الطريقة؟

تركتني واقفًا والحزن يعتصر قلبي، وواصلت طريقها، وهي تكلم نفسها كالمجاذيب، حتى أنني خشيت على حالتها العقلية من الجنون.

لم أملك طفلًا من قبل، لكنني وضعت نفسي مكانها، وتسائلت ماذا لو فقدت أحد أشقائي، أو أبنائهم؟ لابد أن الألم والحزن سيفقداني صوابي. ماذا عن الأم التي حملت وأنجبت، وصار جزءًا من روحها؟

لا بد أن الألم سيكون مضاعفًا.

سأحاول جديًا مساعدتها في البحث عنه، بعد الإنتهاء من زيارة صديقي "حسان" ليلًا؛ فأنا متعب الآن، وعقلي يكاد يئن من كثرة التفكير، وطلب الراحة.

سأدلف إلى منزلي وأنام، حتى أستعيد قواي، وصفائي الذهني.

وحتى يأتي المساء سريعًا.

فالنوم يقلص الوقت، ويعجل بمروره .

***

النوم راحة مدهشة، تعيد للجسد نشاطه، وتشحن طاقته، أما العقل فالنتائج عجيبة، حيث أنه العضو الوحيد الذي يظل متيقظًا، يسلي نفسه باسترجاع أحداث اليوم، أو دمج رؤى زمنية مختلفة، صانعًا منها حلم ما، كمخرج ماهر يصنع فيلمًا سينمائيًا محكم الأحداث.
هذا ما كان يحدث لي في تلك اللحظة، حلم طويل ممتد، أكاد أجزم أنني لن أتذكر منه شيئًا عند استيقاظي.

أماكن غريبة، وأشخاص أغرب، وبقع مكانية لا تمت لعالمنا بأي شكل.

أنهار حمراء، وبحار ذهبية تتلاطم داخلها أمواج برتقالية، تتخذ أشكالًا مستحيلة الحدوث في الواقع.

لا أعلم هل هي صدفة، أم أن ما يحدث داخل منزلي الآن هو ما بعث داخلي هذا الحلم؟

صنابير المياه داخل الحمام تدور دون تدخل بشري، والمياه تتدفق في غزارة متطايرة إلى أعلى، في وضع مستحيل فيزيائيًا، كما لو كان نهر من حديد منصهر، يجذبه مغناطيسٌ عملاق معلق في سقف الحمام.

من حسن حظي أنني لم أعلم بما يحدث، وإلا لقيت مصرعي من شدة الفزع.

***

(18)

فكرت قليلًا بشأن السوار قبل الذهاب إلى صديقي ، وفضلت أن أتركه مخبأ داخل السيارة، وأكتفي فقط بتصويره بكاميرا هاتفي المحمول. لا أعلم حقيقة ما الذي دفعني إلى هذا، لكنه خاطر أخذ يُلِحُّ على عقلي بدرجة كبيرة، خاصة وأنا لا أعرف حقيقة ما أصاب "سارة"، صحيح أنها عادت سليمة، وليست عليها علامات من أي نوع، تدل على أنها كائن شيطاني؛ لكن توقف الزمن عند سن معين ما زال يحتاج إلى تفسير.

ليت "ممدوح" معي ليفسر لي الأمر، أو يطرح نظرية جديدة مقنعة، تربط الأحداث كلها معًا.

أعترف أنني بمفردي فاشلٌ تمامًا في الاستنتاج، ولا أملك أي خيال يذكر كما طلب مني صديقي الشيخ "حسن"، وهذا سيجعلني أبحث بجدية عن "ممدوح"، أو ألتقي بأصدقائي مرة أخرى، ربما خرجت منهم بشيءٍ ينير لي الطريق.

أتمنى فقط ألا يكون قد حدث له شيئًا مفزعًا.

صعدت درجات السلم بشيء من التسرع، حتى كدت أن أسقط أكثر من مرة، أتمنى أن أذكر كل شيء سريعًا حتى ألتفت إلى حياتي، وانتهي من هذا الكابوس.

ضغطت زر الجرس في إلحاحٍ مزعج حتى فتح لي "حسان"، الذي صاح مازحًا:

- أرحم الجرس المسكين.

دلفت إلى الداخل غير مكترث بمزاحه، وقلت:

- هل نبدأ الآن؟

رمقني نظرة طويلة، وقال:

- هل أنت متعجل لهذه الدرجة؟

زفرت بضيق وأنا أجلس فوق مقعد الصالون الوثير، وقلت:

- لقد عادت من كنت أبحث عنها، وأريد لكل شيء أن ينتهي، حتى أرى ما يمكنني فعله معها.

جلس قبالتي على مسند أحد المقاعد، وقال بغير فهم:

- ماذا تقصد بذلك؟ هل تفكر في طلبها للزواج؟

صرخت من فرط الضيق قائلًا:

- وماذا سأفعل غير ذلك؟

وقف مفزوعًا من نبرة صوتي العالية، وأخذ يلوح بكفه المفرودة قائلًا:

- صه يا أحمق، وأخفض صوتك.. هل تريد أن تجمع الجيران حولنا ؟

شعرت بخطأ ما فعلت، فعدت أقول بنبرة أقل:

obeikandl.com

- كنت أظنك تفهم سبب اهتمامي بها منذ البداية.

قال بهدوء:

- أعلم بالطبع.. يبدو أنك الذي نسيت أنها ما زالت مريضة، ولم تتعافى من صدمتها بعد.

أشعلت سيجارتي في عصبية، وأنا أقول:

- أعرف كل هذا.. إنني فقط...

اعتصرتُ ذهني حائرًا، بسبب تطاير الكلمات منها بشكل مفاجئ؛ فحاولت جمع ما أريد قوله بطريقة متلعثمة:

- أنني.. أريد فقط أن.. أن... لا يصبح للموضوع أي ذيول.. لا أريد ترك ثغرات.. ماذا لو... أن هناك اتهام جنائي ضدها؟ ماذا لو أن هناك من يطاردها كما فعلت أنا.. لا تنس حادثة تفجير الفيلا.. والـ... زوجها....

اللعنة نسيت ما كنت أريد قوله.

اقترب "حسان" مني، وربت على ظهري بعطف، وهو يقول بصوتٍ خفيض:

- أعلم كل ما تريد قوله يا صديقي.. أعلم كل شيء.

نظرت له وأنا أكاد أبكي وقلت:

- ترى هل سينتهي كل شيءٍ على خير؟ أم أن هذا لا يحدث إلا في عالم الأفلام فقط؟

وظل سؤالي معلقًا في الفراغ، يبحث عن جوابٍ مناسب.

***

تأمل صورة السوار على الهاتف عدة دقائق، ثم أعاده إليّ قائلًا:

- سوار غريب الشكل.. يبدو من هيئته أنه أثري.

صمت قليلًا ثم أردف في خبث:

- تخاف عليه مني.. تظن أنني سأسلبك إياه.

شحب وجهي من اتهامه الظالم؛ فقلت بعصبية:

- كيف تظن بي هذا؟ كل ما في الأمر أن هاجس داخلي جعلني اخبأه، وليس الغرض هو أن أخفيه عنك أنت، ولكن عنها هي.

سألني باهتمام:

- وما سبب هذا الهاجس.

قلت حائرًا:

- صدقني لا أعرف.. يبدو أنه شيء مما حدث ونسيته.

طلب مني أن أسترخي، وهو يقول:

obeikandi.com

- سأحاول الآن أن أجعلك تتذكر، ولو شيئًا صغيرًا.. حاول أن تستكين، وترخي أعصابك.. تنفس ببط وهدوء، وأغلق عينيك.

فعلت ما طلبه مني، وبدا كأن صوته يأتي من مكانٍ بعيد، وهو يقول:

- ما هو أخر شيء تتذكره تحديدًا؟

قلت بهدوء:

- أتذكر بحثنا عنها في شوارع المقطم.. المطر غزير، والرؤية متعذرة حتى لمحتها فجأة.. شعرت وقتها بالفزع، واختلت عجلة القيادة في يدي.

سألني باهتمام شديد:

- وما الذي أفزعك بالضبط؟ حاول التذكر.

كنت أعرف السبب بالطبع، لكن عندما هممت بالإجابة، نسيت كل شيء فجأة، فقلت بحيرة:

- أذكر أنني رأيتها تظهر فجأة أمام السيارة؛ لكن ما أفزعني كان شيئًا أخر.

بدا صوته يأتيني من مسافة بعيدة، كأنني في بئرٍ سحيق، مع صور عديدة أخذت في الظهور أمام عقلي، سمعته يقول:

- حاول تذكر ما هو هذا الشيء؟

كانت عيناها تبرقان بلون أحمر مخيف، أراها الآن بوضوح، وكأنها أمامي بالفعل؛ فشعرت بالرجفة تنتشر على جسدي، كأن هناك زلزالًا مدمرًا أصاب أعصابي، فتحت على إثره عيني وأنا أصرخ برعب، قائلًا:

- لقد تذكرت شيئًا.. عيناها كانتا...

بترت عبارتي فجأة، وأنا أتأمل ما حولي في ذهول عارم؛ فما رايته الآن كان عجيبًا بكل المقاييس.. عجيبًا ومخيفًا إلى أقصى حد.

***

لم أكن داخل شقة "حسان"، كما لم أكن داخل شقتي كذلك.

بل كنت هناك داخل أطلال الفيلا، وكأنني انتقلت بطريقة خارقة أجهلها.

الظلام يخيم على كل شيء، والهدوء مطبق بطريقة مرعبة.

نهضت بهلعٍ شديد، متخيلًا شيطانًا ما يختبئ في كل ركن، وتحت كل حجر. تقدمت بحذر من باب الفيلا، وأنا أتلفت حولي كل لحظة، خشية من المجهول، وعقلي ينبض بعنف، محاولًا تفسير الأمر.

خرجت ركضًا من المكان، وأنا لا أعلم هل سأجد سيارتي بالخارج، أم أنني جئت هنا بطريقة خارقة بالفعل. أول شيء خطر ببالي أنني تركت "حسان"، وجئت هنا لسببٍ ما، ثم نسيت كل شيء، كما نسيت أحداث أمس.

ما الذي يحدث لي بالضبط؟

وجدت السيارة بالخارج، فحمدت الله وأنا أدلف داخلها بسرعة.

obeikandl.com

المحرك ما زال ساخنًا، مما يعني أنني جئت هنا منذ بضعة دقائق فقط، لكن لماذا جئت؟

أكاد أجن.

***

المنزل ساكن تمامًا مما يدل على أن الجميع نيام، وعقارب الساعة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل، هناك شيءٌ غامض حدث لي، جعلني أفقد عدة ساعات أخرى اليوم، كما حدث لي سابقًا، وكأن هناك كائن خرافي يلتهم الزمن التهامًا.

وقفت أمام المرآة في حجرتي، أتأمل هيئتي المغبرة من أثر دخولي إلى الفيلا، وبدأت أخلع عني ملابسي بحثًا عن أي كدمات جديدة، لكنني لم أجد شيئًا، هذا فأل جيد بالتأكيد.

تمددت على فراشي، أرمق السقف مفكرًا فيما حدث، محاولًا تفسير الأمر بطريقة قريبة من المنطق؛ لكنني لم أجد إلا حيرة وراء حيرة، وعلامات استفهام كثيرة أخذت تحتشد الواحدة وراء الأخرى، حتى حجبت الرؤية عن عقلي تمامًا.

يا لغبائي.

التقطت هاتفي المحمول؛ كي أتصل بصديقي اسأله عما حدث لي، ومتى غادرته بالضبط، وما هي الهيئة التي كنت عليها قبل أن أتركه؟ لا بد أنه يعرف.

بل من المؤكد.

ربما تذكرت شيئًا كذلك وأخبرته به.

الهاتف يرن للمرة الخامسة، وما من مجيب.

أين ذهب هذا الأحمق؟

وضعت الهاتف بعصبية فوق الكومود، وأنا أزفر بعنف، وعقلي يكاد ينفجر من كثرة التفكير؛ لكن دهشتي عادت أضعاف مما كانت عليه، وأنا ألمح ذلك الثوب يطل من باب خزانة الملابس.

منذ متى وأنا أرتدي قميصًا بهذا اللون السماوي المُنَفِّر؟

نهضت بفضول لأستكشفه. لم يكن قميصًا كما ظننت، بل جزء علوي من بيجاما طفل صغير، لا يتعدى الثامنة من عمره.

ما الذي جاء به هنا؟ هل هو مِلْكٌ لأبناء شقيقي الأكبر؟

تأملته على ضوء الغرفة الشاحب؛ لكنني سرعان ما تركته يسقط من يدي بفزع، بعد أن رأيت تلك البقعة الكبيرة من الدماء التي تلوثه.

وهنا تذكرت شيئًا.

جارتي كانت تسألني عن ابنها "كريم".

ترى هل...

رباه.. أرجو أن أكون مخطئًا.

***

(19)

رنين هاتفي المحمول يتصاعد بإلحاح مزعج، يتسرب إلى عقلي في نغمات مؤلمة، وكأن هناك خنجر حاد يخترق خلايا مخي، ويلهب أعصابي بشدة؛ لدرجة تبعث على الغضب الشديد.

أمسكته بعصبية حتى كدت أن أحطمه، ونظرت إلى شاشته المضيئة التي تحمل اسم مديرتي في العمل "هيام". ضغطت الزر الجانبي لأكتم الرنين، وأعدته مكانه، فلم تكن لي أية رغبة في الرد، أو سماع اللوم والتقريع بسبب أيام غيابي المتكررة، وعلى ما يبدو أنني لن أذهب اليوم أيضًا.

الهاتف يعيد رنينه في إلحاحٍ أشد، تناولته هذه المرة، وأنا أصرخ في المتصل:

- لن أذهب اليوم أيضًا.

لكن بدلًا من صوت "إلهام" الغاضب، سمعت صوت "خالد" المندهش يقول:

- لن تذهب إلى أين؟

شعرت ببعض الحرج؛ فقلت بلهجة حاولت أن أجعلها هادئة بقدر الإمكان:

- لا تحمل همًا.. ما الأمر؟

أجابني متعجبًا:

- ما الأمر؟! اتصلت بك أمس وأول أمس، ولم ترد قط على اتصالي، أو تعاود مهاتفتي، وتسألني أنا ما الأمر؟!

تذكرت فعلًا أنني رأيت رقمه على هاتفي أمس صباحًا، فشعرت ببعض الألم لتجاهلي ذلك، ولكن الأحداث المتلاحقة هي السبب في تشتت ذهني. فكرت جيدًا فيما سأقول، ووجدت فكرة مناسبة. قلت بحذر:

- هناك أشياء عديدة حدثت، ولن أستطيع حكيها الآن.. ما رأيك أن تحدد مع الجميع موعدًا اليوم على المقهى، وسأخبرك بكل شيء.

تمتم ببعض العبارات غير المفهومة، وكأنه يحادث نفسه ثم قال:

- حسنًا سأفعل.

وضعت الهاتف جانبًا؛ لأفاجئ بصوت والدتي الزاعق تقول بلهجة أفزعتني:

- ماذا بكما جميعًا؟ أنا لم أعد أعرف شيئًا في هذا المنزل.

رَبَتُّ على كتفها برفق لأمتص غضبها، وأنا أسألها بقلق:

- ماذا حدث يا أمي؟

نظرت لي بعتاب، وهي تقول بكلمات محتشدة ظلت عالقة -على ما يبدو- بعقلها كثيرًا:

- أنت أصبحت تتغيب كثيرًا عن عملك وعن المنزل، ولا تهتم أو تسأل عن أحد، وشقيقك يغلق الباب عليه دائمًا، ولا أكاد أراه،

حتى أنني فوجئت بما أصابه من كدمات، يبدو أنها بسبب مشاجرة ما.. الجميع يخفي شيئًا، وينطوي على نفسه بطريقة غير طبيعية، ولا أحد يحكي لي ماذا يجري معه، ألست أمكم؟ أم أنني مجرد قطعة أثاث مهملة في قلب هذا المنزل؟

قلت لها محاولًا طمأنتها:

- لا يوجد شيء يحدث معي يا أمي، أنا متعب قليلًا ربما من كبر السن لا أكثر.

رمتني بنظرة مستهجنة، وهي تكاد تصرخ:

- كبر السن! هل بلغت الخمسين دون أن أعرف؟ ماذا عني أنا إذن، وأنا في هذه السن، وما زلت أقوم بكل لوازم المنزل من طبخ ونظافة وخلافه، والنزول إلى السوق لشراء احتياجاتكما.. ولم يفكر أحد في تعبي، أو إرهاقي المستمر.. لا أحد يسألني بماذا تشعرين، أو هل تعبت اليوم أم ما زلت بخير.. يومًا ما ستجدانني ميتة في فراشي، دون أن تشعرا بغيابي.

غطت عينيها بكفها، وجلست على طرف الفراش تبكي بحرقة، وأنا في حالة ذهول مما أسمعه يخرج من فمها. أمعقول أنني فعلًا سيء لهذه الدرجة، لا أهتم بأحدٍ غير نفسي، أم أننا أصبحنا نحيا حياة ميكانيكية، نذهب إلى العمل، ونعود لنأكل، وننام قليلًا، دون التفكير في غيرنا، أو ما كابدوه حتى يجعلوننا نشبع ونستريح، ونرتدي ملابس نظيفة مهندمة.. ما الذي جعل

حياة كل واحد منا منفصلة بهذه الدرجة؟ هل هي قسوة أبي، أم دوامة الحياة التي جعلتنا تائهين، و لا نكاد نشعر بأنانيتنا المفرطة؟

قَبَّلْتُ كفها بحزنٍ يعصر قلبي، وأنا أقول بخفوت:

- سامحيني يا أمي على أي خطأٍ صدر مني دون عمد.. أنتي تعرفين مدى حبي لكِ، وأنني مهما انشغلت سأظل أدين لكِ بالكثير.

ربتت على ظهري، وهي تكفكف دموعها قائلة:

- أنا لست مهمة الآن.. اذهب إلى أخيك لتعرف ماذا فعل، وما الذي أصابه؟

قلت لها بلهجة منكسرة:

- سأفعل يا والدتي.. لكن ليس قبل أن تسامحيني.

ابتسمت وهي تقول بلهجة حاولت أن تجعلها مرحة:

- ومنذ متى لا تسامح الأم أبنائها.. هيا لتشرب كوبًا من الشاي، ثم اذهب إلى أخيك؛ فهو على ما يبدو يحتاج إلى أحدٍ بجواره الآن أكثر من أي وقت.

بادلتها الإبتسامة التي أنعشت صدري، وقلت:

- سأفعل يا أمي.. صدقيني سأفعل.

***

obeikandi.com

طرقت باب حجرته في هدوء، وسمعت صوته المتهدج من الداخل، يدعوا أمه بالدخول؛ ليتملكني المزيد من الألم، والشعور بالذنب، طريقته في الرد تدل على أن شيئًا مؤلمًا قد حدث له، وعلى أنه أيضًا لا يتوقع مجيء أحد إليه إلا والدته فقط، لم يدر بخلده لحظة واحدة أنه ربما أكون أنا. كم أنا أحمق وأناني بحق، ولا أهتم بأمر أحد إلا نفسي؛ لكنني في نفس الوقت مظلوم، لأن لا أحد يعرف ما أمر به من أحداثٍ عجيبة.

لكن يظل هذا ذنبي أنا لا ذنبهم، كيف لهم أن يعرفوا، وأنا لم أقص عليهم أي شيء مما يجري معي، لقد دفنت كل شيء داخلي وردمت عليه، ولم أحكي إلا لأصدقائي المقربين، على الرغم من أن الأسرة أهم كثيرًا.

دلفت إلى حجرته بخطواتٍ هادئة، وأنا أقول في لهجة حاولت أن أجعلها مرحة:

- ما أخبار امتحاناتك يا مصطفى؟ هل سترفع رءوسنا، أم سترسب كما تفعل في كل عام؟

لم يبتسم، بل قال بجمود:

- أنا لم أرسب في حياتي قط.

لمحت تلك الكدمات التي تملأ وجهه؛ فصحت بجزع وأنا أقول:

- من فعل بك هذا بحق الجحيم؟

رمقني بنظرة طويلة مستنكرة، ثم أشاح بوجهه وهو يقول بمرارة:

- أنت فعلت.

تراجعت إلى الخلف في هلع شديد حتى كدت أن أرتطم بباب الحجرة، وأنا أشعر بالصدمة والحيرة في آن واحد، فما قاله كان أخر شيء أتوقعه على الإطلاق.

***

سألته بصوتٍ مرتعش:

- ماذا تقصد بالضبط؟

لا أعلم لماذا خُيِّلَ لي أنه يقصد معنىً أخر، غير الذي قاله تمامًا، ربما أن إهمالي له هو من فعل به هذا، أو شيء من هذا القبيل؛ لذلك انتظرت إجابته على أحر من الجمر، وأخذت أراقب شفتيه في انتظار أن تنفرج عن شيءٍ منطقي، مخالف لكل هذا الجنون.

قال بحزن:

- هل ستتهرب من فعلتك الآن؟

اقتربت منه بخطواتٍ متخاذلة، ورَبَتُّ على كتفه بحنان، وأنا أقول بخفوت:

- صدقني أنا لا أعلم مطلقًا عما تتحدث عنه.

قال وهو يرمق النافذة في شرود:

obeikandl.com

- لا يهم.
- ماذا تقصد؟ لا بد أن تحكي لي كل ما حدث.
- ما حدث تعرفه تمامًا وتنكره.
- صدقني لا.. أنا فعلًا لا أعرف.
- لا يهم إذن.
- ألن تخبرني؟
- وبماذا سيفيد؟
- سيفيدني أنا.. ربما حدثت لي لوثة عقلية ما.
- لوثة!!
- أجل.. أنت لا تعرف ما أنا فيه من ألغاز، وحوادث عجيبة.. أرجوك.. أريد ربط كل شيء ببعضه حتى أفهم.
- رأيتك أمس مساءًا تمشي شاردًا.. ناديتك ولم ترد.. فذهبت أجذبك من ذراعك حتى تنتبه لي، وبدلًا من أن ترد، التفتت لي بغضب، وقمت بلكمي.. حاولت أن أخبرك أنه أنا، فربما ظننتني شخصًا أخر، لكنك أخذت تكيل لي اللكمات حتى سقطت على الأرض بلا حراك، وللأسف لم تبال بي، وأكملت طريقك كأن شيئًا لم يحدث.

شعرت ببعض الخوف من كلماته، إذا كان هناك خطر يتهددني فأنا كفيل به، لكن أن يمتد إلى أسرتي فهذا ما لا يجب السكوت عليه.

سألته باهتمام عن موعد إجازة منتصف العام؛ فأخبرني أنها بدأت منذ أمس.

يا إلهي.. وكأنني فاقد للزمن، لا أعلم بما يدور حولي.

قلت له في سرعة:

- اسمعني أرجوك.. لن أستطيع شرح كل شيء لك الآن.. أريدك فقط دون أي أسئلة، أن تأخذ أمي، وتذهبا إلى خالتي في الإسكندرية.. اقضِ إجازتك هناك، وسألحق بكما فيما بعد.

قال في تردد:

- ولكن...

قاطعته بصبرٍ نافذ:

- لا يوجد ولكن.. صدقني حياتكما في خطر بالغ، لكنني كما قلت لن أستطيع الشرح الآن.. هيا تجهز بسرعة، وسأخبر أمي أنك تشاجرت مع زملائك، وتحتاج إلى فترة راحة، ثم سأقوم بتوصيلكما إلى محطة القطار.. لا تقلق سأترك معك بعض النقود، ربما تحتاج إلى شراء شيء، أو الذهاب للتنزه هناك.. لا تسأل أي أسئلة أرجوك.. أفعل ما أقوله لك بالحرف الواحد.. هيا.

لم أضع تصورًا لما يمكن أن يكون قد حدث، لكن هاجس كبير داخلي أخبرني أن الأمور صارت خطيرة للغاية.. خطيرة ومخيفة إلى أقصى درجة.

***

بعد أن ودعتهما عند المحطة، واطمأننت عليهما، أخذت أجول بسيارتي مفكرًا، في محاولة لربط كل الخيوط برباطٍ واحد.

obeikandi.com

الأشياء التي نسيتها.

اختفاء "ممدوح"

استيقاظي في قلب الأطلال دون تذكر كيفية ذهابي إلى هناك.

رداء الطفل الملوث بالدم.

السوار.

حادثة ضرب شقيقي التي لا أجد لها أي تفسير.

وعودة "سارة" الغامضة...

تعالى رنين هاتفي فجأة، قاطعًا حبل أفكاري في قسوة.

الشاشة تحمل اسم "خالد" يومض في لمحات خاطفة كالبرق، ضغطت زر الرد في سرعة، وأنا اسأله بلهفة:

- هل أخبرتهم عن موعد الليلة؟

جاءني صوته بنبرات حزينة باكية، وهو يقول بصوتٍ مختنق:

- لقد عثروا على...

صمت قليلًا، وكأنه عاجز عن النطق، ثم أردف ببطء:

- لقد عثروا على حسان مقتولًا في شقته.

***

obeikandl.com

تدور الأحداث التالية في العام 411 هـ

انتشرت الأقاويل بين العامة تتهم الحاكم بأمر الله بالجنون، بسبب تلك الأحكام العجيبة التي يعلنها كل حين، ثم يعود مجددًا ليبطلها.

أحكام غريبة لا تصدر أبدًا عن مخلوقٍ عاقل.

منع الحاكم أكل الملوخية والجرجير والترمس

كما حرم صيد السمك الذي لا قشر له ومنع البيع والشراء في الليل

وأمر بقتل كلاب الشاردة أينما وجدت، وبقتل الخنازير ومنع صيد الطيور، وحرم لعب الشطرنج والتنجيم.

أما أغرب قراراته على الإطلاق تلك التي أمر فيها بنقل الكعبة إلى مصر!!

شعر العامة أنه يحاول بطريقة ما إفساد الدين الإسلامي، وانتشرت الأقاويل التي تتهم الفاطميين أن هذه خطتهم منذ البداية، أن يتوغلوا داخل الدول العربية، ويبدءون تدريجيًا في تغيير مبادئ الإسلام وهدمها.

وراحوا يتحاكون كيف بدأ الفاطميون ومن أين جاءوا.

كانوا شيعة بايعوا الإمام علي ابن أبي طالب، ثم جاء انقسامهم بعد ذلك إلى قسمين.

الأولى اعترفت بإمامة إسماعيل ابن جعفر الصادق الأكبر، والتي صار اسمها الفرقة الإسماعيلية، والثانية قالت بإمامة موسى الكاظم ابن

جعفر الصادق الأصغر، وهي الفرقة المعروفة بالإثنى عشرية، التي تنتظر إمامة المهدي المنتظر، ولما كان الحاكم بأمر الله ينتمي إلى هذه الفرقة؛ فقد بزغ الشك في قلوب الجميع، من أن هذا مقصدهم منذ البداية، خاصة وأن الفاطميين أدخلوا أشياء لم تكن قائمة من قبل، كفوانيس رمضان، وحلوى الكنافة والقطائف، وغيرها ممن لم يكن في الإسلام سابقًا، كاحتفالات رأس السنة الهجرية، والمولد النبوي الشريف، وليلة أول رجب وغيرها

صحيح أن الحاكم بأمر الله قام بنهضة كبيرة، وقام بتأثيث جامعة دار الحكمة، ودار العلم الذي كان يضم المكتبة الفاطمية الكبرى، وقام بتجديد الجامع الأزهر، بالإضافة إلى مسجده المعروف بجامع الحاكم أو الجامع الأنور.

وبنى في المقطم مصلى عرف بمصلى العيد، كان يختلي إليه من حينٍ لأخر، عندما يُؤْثِر العزلة والانقطاع للعبادة والتأمل.

لكن كل هذا لم يشفع له عند العامة، ورأوا في قراراته جنونًا أو محاولة شيطانية لهدم الدين.

***

شعر الحاكم باضطرابٍ عظيم.

فها هو يأوي إلى فراشه ليلًا؛ ليستيقظ ليلًا أيضًا.

أيام عديدة تتلاشى كأنها لم تكن، دون أن يدرك كيف ولماذا؟

لكن الطامة الكبرى هي تلك القرارات العجيبة، التي أشاعوا أنها صدرت منه، ولولا أن شقيقته " ست المُلك" أكدت له هذا لما صدق أبدًا.

لقد أمر باضطهاد اليهود وهدم معابدهم؛ لكنه أعاد بناء ما تهدم من ماله الخاص، عندما أدرك فداحة ما أمر به دون وعي منه. أما أغرب ما سمعه هو مساعدة التجار على تهريب الخمور وبيعها سرًا!! بعد أن أمر بمنع شربها وبيعها لأن الدين الإسلامي يحرمها تحريمًا قاطعًا.

أما الذي لا يفهمه هو ذلك الحصار الليلي الذي فرضه على القاهرة الفاطمية، ومنع التجوال ليلًا، حتى أن شقيقته رجته أن يلغي هذا الحظر لأن العديد تضرروا من هذا، وأبلغته أن عدة زوجات شاكيات ينتظرن قراراه الجديد في قصر اللؤلؤة؛ فما كان منه إلا أن أمر بقطع رؤوسهن لأنهن قد خرقن الحظر دون وجه حق!!

هنا زاد إحساسه بالخطر على نفسه وأهله وسكان المملكة؛ فأي حاكم عادل بطبيعة الحال لن يرضى بتلك البلبلة التي دبت في أنحاء الدولة الفاطمية، خاصة لو جاءت منه هو.

لذلك أول ما فعله هو الإسراع في الذهاب مجددًا إلى "جعفر بن الروزباري" عراف الدولة، عَلَّهُ ينقذه مما هو فيه.

اقتحم مضجعه بعنفٍ كأول مرة، وهو يصيح به بصوتٍ هادرٍ:

- ما الذي يحدث لي؟

أجابه العراف مرتجفًا:

- لقد تلبست تلك الحورية اللعينة جسدك يا مولاي.. لكنها ليست قوية كما كنا نعتقد، حتى أن تحكمها بك اختل عشرات المرات، ولم تستطع قط أن تهيمن سيطرتها الكاملة عليك.

صاح بغضبٍ أشد:

- ولِمَ حدث هذا؟ ألم يكن هذا السيف مخصصًا لقتلها؟

أجابه العراف وقد غمره العرق:

- هذا السيف مخصص للجن يا سيدي كما أخبرتك، وعلى ما يبدو لم يفلح في هذا؛ بل غَيَّرَ خواصها، وجعل لديها القدرة على تلبس البشر.
- وكيف الخلاص منها الآن؟
- أعتقد لدي هنا شيئًا قد يهزمها.

أخذ يعبث بأشيائه بعض الوقت، حتى فاض الكيل بالحاكم فصرخ فيه بصوت كالرعد:

- لن أنتظرك الليل كله.

أخرج العراف سوارًا ذهبيًا مرصعًا بالألماس، أخذ يومض ببريقٍ أخَّاذ على ضوء المشاعل، وبدأ يقترب بلهفة وهو يصيح منتصرًا:

- ها هو ذا يا سيدي.. هذا السوار له قدرة سحرية عجيبة على هزيمتها.

وعلى حين غرة وضعه على معصم الحاكم، وهو يقول:

- إنه قادر على سجنها داخل جسدك إلى الأبد.. لن تستطيع بعد ذلك أن تتلبس غيرك، وسينتهي خطرها معك.

شعر الحاكم بالخداع؛ فأمسك جعفر من تلابيبه، وهو يهدر:

- ماذا فعلت أيها التعس؟

ارتجف العراف، وهو يقول بهلع شديد:

- لا حل لدي إلا هذا يا سيدي.. لو تركتها دون قيد ستكون لها القدرة على الإنتقال إلى من تريد، ولا يعلم إلا الله من الذي ستختاره المرة القادمة.. ربما شقيقتك ست المُلك، أو ابنك علي.. صدقني هذا هو الحل الوحيد.

ارتجف جسد الحاكم من الغضب، وهو يضرب جسد جعفر بالأرض ويصرخ قائلًا:

- وماذا بعد هذا؟

تلوَّى العراف من الألم، وهو يجيبه بضعف:

- يجب أن تموت معها.. عندئذ فقط سينتهي شرها من المملكة إلى الأبد.

أخرج المنصور سيفه من نطاقه، وهو يقول بِغِلٍ:

obeikandl.com

- ليس هذا الجواب الذي كنت انتظره.

وبضربة واحد شق العراف إلى نصفين.

تأمل دماءه التي أخذت تغرق الأرضية اللامعة، بينما عقله يفكر في جملته الأخيرة.

" يجب أن تموت معها.. عندئذ فقط سينتهي شرها من المملكة إلى الأبد "

لا يبدو أمامه خيار أخر.

***

أيام عديدة قضاها الحاكم في إنكار الحل الوحيد المتاح.

أن يقتل نفسه.

أيام عديدة ظل يقنع نفسه أنه الأقوى، وليست هي، حتى أنه قضى ليالٍ كثيرة داخل حجرة مظلمة حالكة السواد، دون بصيصٍ من ضوء أو لهبِ شمعة.

ظنت حاشيته أنه يعمد إلى رفع قدراته البصرية حتى يستطيع أن يرى في الظلام، ولم يدركوا مقصده في رفع قدراته العقلية عن طريق التأمل، ربما استطاع بعد ذلك أن تكون له السيطرة الكاملة مجددًا، على جسده المحتل من قبل مخلوقة شيطانية ليست من عالمنا.

حاول بكل جهده، وشعر لأيام أنه المسيطر؛ لكن تلك الومضات التي تذهب بعقله، وتفقده أيام عديدة، جعلته يعرف أن كل هذا ليس ذي

جدوى، خاصة مع تلك الأشياء المرعبة، التي عرف أنه فعلها دون وعيٍ أو مقصد.

حدث ذلك عندما كان في القصر الشرقي.

تاه عقله لبعض الوقت؛ ليبصر بعد ذلك أي كارثة مروعة ارتكبتها يداه.

لقد مزق غلامًا - كان قد اشتراه – بالسكين أمام أعين ولده "علي"، وقطع أوصاله داخل وعاء معدني كبير، وأخرج أحشاءه التي بدت كحبال من الليف الدامي، ليت هذا فقط ما فعله، لكنه علم بعد ذلك أن هذا خامس طفل يمزقه بيديه، بل وأكل أجسادهم كذلك.

لقد صار أكلًا للحوم البشر.

أما الكارثة الكبرى هي حبسه الجواري داخل صناديق مغلقة وإلقاءها في النيل، وبعد البحث الدءوب عنهن لم يعثر لهن على أي أثر.

وهنا ربط بين المكان الذي جاءت منه تلك الشيطانة، والمكان الذي أغرق فيه جواريه الحسان.. نهر النيل.. يبدو أن تلك اللعينة تبحث عن قرابين لذويها وعشيرتها، أو ربما طعام من لحم البشر.

هنا أدرك أنه يجب أن يعجل بالأمر.

إلى متى سينتظر؟ ولماذا؟

حتى يستيقظ على كارثة أخرى تودي بجميع أحباءه.

زوجته أم علي، وأبناءه ست مصر وعلي، وشقيقته ست الملك.

لابد أن يتخذ قراره الآن، وإذا كان شجاعًا حقًا وعادلًا في حكم الدولة الفاطمية، يجب أن يتضاعف ذلك كي يقضي على شرور تلك اللعينة إلى الأبد.

***

انتشرت الأقاويل في المملكة.

وزادت كلمة من هنا، وكلمة من هناك؛ ليتم نسج أسطورة نهاية الحاكم بأمر الله.

البعض قال أن شقيقته "ست المُلك" قد قامت بقتله، بعد أن استعانت بأحد قواد الجيش ويدعى "حسين بن دواس"، والبعض أكد أنها راقبت خروجه ليلًا، ثم أرسلت وراءه خادمين زودتهما بخنجرين حادين؛ فلحقا به في جبل المقطم، وأجهزا عليه.

أخرون قالوا أنه خرج إلى جبل المقطم ليلًا؛ لولعه الشديد بالتأمل ومراقبة النجوم، وأثناء سيره مع الركابي حارسه الخاص، اعترضه سبعة رجال من البدو، والتمسوا منه العطاء، وعندما ذهب معهم ليدلهم على بيت المال اختفى بلا أثر، حتى أن الركابي بحث عنه طويلًا دون جدوى.

أما أغرب ما قيل أن الحاكم بأمر الله أثناء سيره إلى جبل المقطم، أرسل الركابي مع نفر من بني قرة الذين اعترضوا طريقه، ثم صرفوا الركابي عند قبر الفقاعي وسط القرافة الكبرى، ولما لم يعد الحاكم كعادته في صباح اليوم التالي، خرج القضاة والأشراف إلى الجبل للبحث عنه، ولم يعثروا له على أي أثر.

خرج بعد ذلك مظفر صاحب المظلة، ونسيم صاحب الستر، وابن مسكين صاحب الرمح، وعدد أخر من رجال دولة، توغلوا في شعب المقطم، حتى بلغوا دير القصير فعثروا على حماره الأشهب، وقد قطعت ساقاه الأماميتان، وعليه سرجه ولجامه، فتتبعوا الأثر حتى عثروا على ثياب الحاكم بأمر الله، وهي سبع جباب مزررة لم تُحَلَّ أزرارها، وفيها أثر للطعنات، وملوثة بالدم.

حواديت وحكايات عجيبة وأساطير، نُسِجَت حول مقتل الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي.

لم يعلم العامة ما حدث حقًا.

لكنه على ما يبدو مخيفًا

***

شعر الحاكم في النهاية بقوة سيطرة تلك المخلوقة عليه؛ لذلك تملكته رغبة شديدة في إنهاء كل شيء، قبل أن يمتد خطرها إلى الدولة كلها؛ لذلك اتخذ طريقه ليلًا إلى منطقة جبل المقطم.
جُلَّ ما يخشاه هو أن يقتل نفسه؛ فتكون لها السيطرة الكاملة بعد موته، تحرك جسده كما تشاء، وتفعل كل ما تريد من شرور ولعنات.

لذلك فكر كثيرًا في مكان بعيد لا يقصده العامة، وفي ذات الوقت يمثل إغراءً لا يقاوم لها، حتى لا تعانده فيما هو ذاهبٌ إليه.

لم يكن هناك مثل هذا المكان المثالي إلا منطقة الأزبار.. فالماء هو عالمها، والمنطقة مهجورة لا يعبرها أحد؛ لأنها تقع ضمن نطاق مصلى العيد،

الذي بناه ليتعبد فيه، ولأن ماءها أصبح شحيحًا بسبب المنطقة قليلة الأمطار.

لذلك صرف الركابي إلى بيت المال، مع نفر من بني قرة الذين اعترضوا طريقه بالصدفة، طلبًا إلى المال، وواصل طريقه على حماره الأشهب يقطع دروب المقطم في هدوء، داعيًا الله ألا تفرض سطوتها على عقله حتى ينتهي منها.

وعند وصوله إلى هناك قام بضرب قوائم حماره بالسيف، حتى لو حدث ما لا يحمد عقباه، وحاولت الهرب لم تجد وسيلة للرجوع.

ثم تخلى عن ملابسه، واختار أكثر الآبار شُحًّا للماء؛ حتى تأتي نهايتها سريعة.

وبضربة واحدة ودون أدنى تردد، غرز نصل سيف الجن بالكامل في صدره، وترك جسده يهوي إلى أعماق البئر المظلم.

لتنتهي بعد ذلك نهاية أغرب حاكم على مر العصور.

لغز القرون.

وسر العصور.

المنصور.

الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي.

***

(20)

العالم ينهار من حولي دون أن أعرف لماذا.

الألغاز تتزايد في سرعة محمومة لتُزيد من حيرتي، والخطر ينتقل إلى أصدقائي وأسرتي دون أن أفهم.

كنت قد انتهيت من واجب العزاء، في أجواء يخيم عليها الحزن والألم وعدم التصديق. "حسان" قد ذهب إلى غير رجعة، ولا توجد طريقة لتعيده إلينا مجددًا، والمصيبة أنني لا أعرف ولا أفهم ما الذي يحدث بالضبط.

تمددت ساكنًا على فراشي، أحاول ترتيب أفكاري، مفكرًا في كل نقطة مهما بدت صغيرة أو تافهة، علها تقودني إلى شيء.

الحزن يسحق قلبي، ويُدْمِع عيناي على صديقي الفقيد، لا أكاد أصدق ما حدث، وكأنه حدث لشخص أخر غيري وغيره، لابد أنني أتوهم، وسأجده يحاول الإتصال بي بعد قليل ليفهمني أن ما حدث مجرد خطًا، أو ربما خدعة، وأنه ما زال على قيد الحياة، يحاول أن يحل تلك الأسرار بطريقته الخاصة.

وليس مقتولًا بتلك الطريقة الوحشية التي سمعت عنها.

لقد وجدوه داخل شقته، مذبوحًا كالشاه، وعلى ملامح وجهه أقسى علامات الرعب. هناك شخصٌ ما قتله بهذه الطريقة البشعة.

لكن من هو بحق الله؟

"سارة" سليمة من أي مس شيطاني كما كنا نعتقد، ولم نعثر على وحش ما من أي نوع، و"ممدوح" ما زال مختفيًا حتى الآن.

هنا تنبهت إلى شيءٍ كان غائبًا عن عقلي.

ماذا لو كانت "سارة" تحاول العثور على ذلك السوار؟ الذي لا أعلم ما فائدته حتى الآن، وما الذي جاء به إليّ؟ حتى لو فرضنا هذا، كيف ستغادر المستشفى، وهي في هذه الحالة النفسية السيئة؟ وما سبب قتلها لـ"حسان"؟

هناك شيءٌ ما مفقود، وعقلي المثقل يعجز عن إيجاده.

ولا يرغب في شيء إلا الراحة والنوم.

***

عالم الأحلام غريب حقًا، لقد جاء إليّ بحل مدهش يكشف معظم هذه الألغاز، لا أعلم كيف ربط كل شيء ببعضه؟ لكنه الحل الوحيد الممكن.. هناك شيء ما كان يحتل جسد "سارة"، وبما أننا عثرنا عليها سليمة تمامًا من الناحية الجسدية، والهيئة البشرية الطبيعية؛ فهذا يعني أنه غادرها إلى جسد أخر، سَاقَهُ حَظَّهُ العاثر إليها، وهذا يجعل مهمة معرفته بالغة الصعوبة إن لم تكن مستحيلة؛ فهناك الآلاف يقطنون منطقة المقطم، ويجعل منهم جميعًا مشتبه فيهم.

هذا أمر مرهق فكريًا.

تخيل أن تبحث عن أحد لا تعرفه، ولا تعرف هيئته وسط سكان المنطقة بأكملها، وستعرف أنه المستحيل ذاته. لكن تظل هناك أسئلة عديدة بلا إجابة. من أين جاء السوار، وما فائدته؟ ماذا حدث يوم عثورنا عليها ونسيته؟ من أين جاءت ملابس الطفل إلى خزانتي؟ وكيف هاجمتُ أخي دون أن أتذكر؟

عاودت النوم مجددًا، بينما عقلي يخبرني أن ما أفكر فيه بعيد تمامًا عن الحقيقة، وأن ذلك الشخص أقرب إليّ مما أتخيل.

***

ظلام تام ورائحة عطنة خانقة، تكاد تُزْهِقُ روحي.

الفراش صار له ملمس خشن عجيب، والغطاء تلاشى من فوقي.

ارتجفت بفعل البرودة القارصة التي أجهل مصدرها، وحاولت النهوض لأعلم بالضبط ماذا يحدث معي؟

الظلام دامس كثيف إلا من بصيص شحيح للضوء يلوح على مقربة. هنا انتبهت بهلع إلى أنني لست نائمًا داخل حجرتي التي أويت إليها ليلًا. بل كنت ممددًا داخل قبر نصف مغلق!

نهضت واقفًا بذهول، بينما أخذ قلبي ينبض بسرعة لم أعهدها فيه من قبل، وأنا أتخيل كل أشباح العالم تحيط بي في ذلك المكان الضيق، تحاول أن تأخذني معها إلى غياهب الجحيم.

أسرعت بالجري ناحية تلك الفتحة التي رأيت على ضوءها حدود القبر، وأخذت أتسلق السلم الحجري بسرعة محمومة، حتى وجدت نفسي على وجه الأرض مرة أخرى.

تلفت حولي أتأمل أسوار المقبرة الغافية في الظلام، لا أعلم لماذا انتابني شعور عارم أنني كنت هنا سابقًا، ولاحت في مخيلتي ذكرى بعيدة عن تتبعي لشخصٍ ما في السابق. ترى هل لهذا صلة بما قد نسيته سابقًا؟

لمحت شخصًا ممددًا على مَقْرُبَة. لا أعلم هل هو مجرد متسول نائم في مثل هذا المكان المرعب، أم جثة لشخص أعرفه؟

بخطواتٍ بطيئة اقتربت منه كي أستكشف من يكون، بينما دقات قلبي تتعالى بشكلٍ أسرع.

كانت جثة ممزقة ومشوهة بطريقة بشعة، جعلت عصارة معدتي تكاد تندفع عبر حلقي من قسوة المشهد. الدماء الجافة تدل على مرور يوم أو أكثر على الحادثة، والملابس التي تكسوه بدت مألوفة إلى حد كبير.

افترشتُ الأرض بجوار الجثة رُغْمًا عني، بعد أن فقد جسدي القدرة على الصمود.

وذلك عندما عرفت من هو صاحبها.

لقد كانت جثة "ممدوح".

***

لا أعلم كم مر من الوقت، وأنا ممد بجوار الجثة. الحزن يعصف بأعماقي، ويكاد يجعلني أبكي قهرًا. بينما عقلي حائر لا يعرف ما الذي يجب عليّ فعله؟ هل أذهب إلى أسرته، أم أذهب لإبلاغ الشرطة، أم الإثنان معًا؟

هل أتكتم على الأمر؟ ولماذا؟ ومن الذي قتله بتلك الطريقة البشعة؟ هل هو ذلك الشيء الذي كان يحتل جسد "سارة"، أم شخص أخر؟

أسئلة حائرة لا أجد لها أية إجابة. لو كان "حسان" ما زال حيًا لطلبت مساعدته؛ لكنه للأسف رحل إلى غير رجعة.

قطع حبل تفكيري صوت أذان الفجر، وأخرجني من حالتي النفسية المتردية؛ فبدأت أنهض ببطء، وأنا مفكك الأوصال، لا أعلم ما الذي يجب عليّ فعله، ولا بمن ألجأ، لقد ذهب من كنت أطلب منهما النصح إلى عالم الموت الأبدي.

لكن ما زال هناك "عمر" و"خالد" و"حسن"، صحيح أنهم لم يشاركاني البحث والتقصي، لكنهم يعلمون كل شيء عن "سارة"، وألغازها المبهمة. لم يعرفوا بخبر عودتها بعد، كما لم يعرفوا بالتأكيد خبر موت "ممدوح"؛ لكنهم الوحيدين الذين يحملون معي معظم أطراف الحكاية.

لكن مهلًا.

"حسان" و "ممدوح" لقيا مصرعهما من جراء ذلك، وشقيقي تعرض لحادثة ضرب، وهذا يدل على أن مَنْ لَهُ صِلَة بالموضوع معرض إلى خطرٍ داهم.

لا.. لا يجب أن أُقْحِمَهُم في الأمر أكثر من ذلك، حتى لا يحدث لهم ما لا تُحْمَد عُقْبَاه. الأمر صار كقنبلة موقوتة تُطيح بكل من يقترب منها، وهذا يعيدني إلى سؤالٍ حائر، لم أجد له أي إجابة منطقية بعد.

لماذا قُتِلَ حسان؟

ما الذي توصل إليه وجعل الخلاص منه أمر حتمي؟

***

obeikandl.com

(21)

في العمل كانت تلاحقني النظرات أينما ذهبت، لا يصدقون أن فترة غيابي كانت بسبب وعكة صحية كما أخبرتهم، و لم يكن أمامي أي مكان أخر ألجأ إليه بطبيعة الحال إلا هنا، حيث دفء المكان، والصحبة الآدمية، خاصة بعد سفر أسرتي الصغيرة، وابتعادي عن أصدقائي محاولًا أن أجنبهم أي مصير مظلم، قد ينالهم من جراء تلك الدائرة من الألغاز المستغلقة.

كنت قد وصلت إلى فرضيةٍ ما، ربما تسببت في مصرع "حسان"، وإن كنت لم أفهم السبب بعد.

إنه ذلك السوار الذهبي اللعين الذي لا أعرف من أين جاء. بديهي أن أتوصل إلى هذا إذا وضعت في اعتباري أن تلك هي النقطة الوحيدة المختلفة عن باقي ما عرفه الأصدقاء؛ لذلك جلست أبحث على شبكة الإنترنت عن أية معلومات بشأنه، بعد أن وضعت صورته داخل محرك البحث عن الصور، الغريب في الأمر أن الصورة التي التقطتها بنفسي هي الوحيدة على الشبكة كلها، وهذا يعني أنه فريد من نوعه، ولا مثيل له على كوكب الأرض. هذا بفرض أن كل شيء معلوم حقًا على تلك الشبكة العنكبوتية.

رأسي يعج بالطنين كأن جحافل من النمل اتخذته عشًا لها، وعيناي زائغتان من فرط السهر والتفكير المفرط.

ماذا يعني هذا؟ وأين أجد أية معلومات صحيحة عنه إذن؟ هل أبحث في كتب التاريخ، أم أسأل عالم آثار متخصص؟ حتى لو أردت هذا أين أجده بحق الجحيم؟

الموضوع مُرْبِب حقًا ومخيف.

مخيف إلى أقصى حد.

***

في المساء علمت كل شيء فجأة، ودون أي تخطيط مُسْبَق.

كنت أحاول أن أشغل تفكيري بأي شيء يبعدني عما أنا فيه، من حزنٍ وألم وهم؛ لذلك أخذت أتابع ذلك الفيلم القديم بعينين لا تريان تقريبًا، وأنا أحتسي قدح من الكاكاو الساخن.

الهواء يهب باردًا عبر خصاص النافذة، ودفء الفراش يمدني بخدرٍ لذيذ، يذهب بجسدي إلى غيبوبة النوم، بينما أخذ عقلي في جولة إلى عالم الأحلام.

عقلي يسبح في الظلام والوحشة، ويذهب بي إلى مناطق مرعبة غير مألوفة.

أرى بعين الخيال "سارة" عندما توفى والدها.

أشعر بمشاعرها الحزينة التي تتشابه مع حزني الآن، تكاد تُفْقِدُهَا عقلها.

هذا غريب!

أرى حياتها كفيلم سينمائي يتم عرضه في عالم أحلامي. حبها.. زواجها.. البئر.. المَسّ.. عمليات القتل.

لقد بدأ يتضح لي الخيط الذي لم أكن أفهمه، ولا أعرف كيف؟

كأنني أمتلك القدرة على قراءة ذكرياتها!!

يا إلهي.. السوار.

هناك شيء ما كان محتجزًا داخل جسدها، يتحكم فيها كلعبة صغيرة، وذلك السوار كان يمنعه من الخروج. لا بد إذن أنه تركها وَفَرَّ بعيدًا بما أنه صار معي.

شيئًا فشيئًا بدأت أتوغل في عالم الحقيقة المفزع؛ حتى رأيت شيئًا هز أعماقي كزلزالٍ مُدَمِّر، جعلني أتذكر كل شيء. حادث السيارة، وتعقب "ممدوح" لها، ثم هرولتي وتتبعي لهما.

الأمطار المنهمرة في غزارة، وطريق المقابر.

خروجها حاملة تلك الجثة، وتسترها بالظلام.

وميض البرق.

أطلال الفيلا.

القبو، والفجوة التي يكتنفها الظلام.

رأيتني وأنا أنزع ذلك السوار عن معصم يدها، ونحن في قلب ذلك الكهف المظلم، وتلك الكتلة العجيبة من المياه التي كانت تغادر جسدها، وتهاجمني بشراسة غير مسبوقة.

لقد فهمت الآن.. تلك اللعينة كانت تحتل جسدي أنا!!

***

كان الخطر أكبر مما أحتمل. أن تكون أنت منبع الخطر، تخطف وتضرب وتقتل دون أن تدري؛ فذلك شيء مخيف للغاية، و لا تملك معه ما تستطيع أن تمنعه.

هنا بدأت الذكريات تأخذ منحنى أخر عجيب.

هجوم الحاكم بأمر الله عليها بذلك السيف العجيب، واحتلالها لجسده.

صراعه المرير معها، وتبدل حاله من النقيض إلى النقيض.

ظلت الذكريات تتداعى كأوراق الدومينو، يُسْقِطُ بعضها البعض الأخر، حتى علمت ما يجب عليّ فعله، وكيف أتخلص منها إلى الأبد، وهذا أكد لي أكثر أنها تحتل جسدي، وأنني أقرأ ذكرياتها بطريقةٍ ما.

لذلك لم أملك ما أفعل، لإبعاد الخطر عن الجميع إلا طريقة واحدة، أن أتخلص منها إلى الأبد كما فعل الحاكم، وكما رأيت في صراعه معها.

وهذا يعني بالتبعية أن أتخلص من ذلك الشخص الذي يحمل الخطر إلى الجميع، ويهدد حياتهم دون وعيٍ منه.

أنا.

***

كنت قد أعددت كل شيء.

أخرجت ذلك السوار الغامض، ووضعته حول معصمي حتى لا أسمح لها بأية فرصة للهرب، ثم انطلقت في طريقي إلى منطقة المقطم. السكون يعم كل شيء، ونسمات الهواء الباردة تتخلل صدري.

أشعلت سيجارتي الأخيرة مفكرًا في أسرتي.

ماذا سيفعلون حينما يأتيهم خبر موتي؟ وهل سيأتيهم حقًا أم سيضيع جثماني إلى الأبد دون أن يعثر عليه أحد.

ماذا عن "سارة"؟ ترى هل كانت هناك فرصة ولو ضئيلة أن تبادلني حبًا بحب؟ هل ستتذكرني أصلًا، وتعود إلى سابق عهدها؟ جميلة.. وديعة.. حنونة.

لا يهم أيًا من هذا الآن؛ فبعد ساعة واحدة لن أكون حيًا لأعرف، وستنتهي أسئلتي ومشاكلي إلى الأبد.

الفيلا تلوح من بعيد؛ كحيوان أسطوري عجيب الهيئة، والمنطقة تعج بصمت مهيب كصمت القبور، كأنها تشاركني لحظاتي الأخيرة في رثاء مكتوم.

تركت السيارة بجوار سور الفيلا، كي يعرف من يحاول البحث عني بعد اختفائي أنني في الداخل، لكن فجأة جال بعقلي أن هذا خطر بكل المقاييس. ماذا لو أخرجوا جثتي، ونزعوا عنها هذا السوار؟ لا.. لا يجب أن ارتكب أية أخطاء من أي نوع.

عدت أدراجي حتى وجدت مكانًا مثاليًا لإخفاء السيارة، وهبطت مترجلًا في حزن، مودعًا الكون بكلمات قليلة أدمت قلبي، وأسقطت الدمع من عينيّ، ثم بدأت أتخذ طريق الفيلا؛ كي أضع سطور النهاية في قصتي المخيفة هذه.

***

obeikandl.com

(22)

البئر يفغر فاهُ في صرخة صامتة، و قلبه السحيق ينبض بظلام أبدي.

نفس البئر الذي احتوى جسد الحاكم، بعد مغامرته اليائسة معها. بحثت عنه طويلًا حتى عرفته، ووقفت على حافته خائفًا من رحلة الرحيل إلى العالم الأخر؛ لكنني طمأنت نفسي بوجه صديقي "حسان" المشجع، وهو يهتف في خيالي قائلًا "لا تخف يا صديقي.. سأكون معك هناك أُسَلّي وحدتك"

أخذت نفسًا عميقًا محاولًا تهدئة جسدي المنتفض، مذكرًا نفسي أن ما أفعله لم يكن لي، بل لحماية كل من أعرف، من خطر مَن تحتل جسدي، وتلهو به كدمية صغيرة بائسة.

استعدت شجاعتي ببسالة، وبدأت رحلة الهبوط في قلب العتمة، وكلي أمل ألا تكون الرحلة مؤلمة.

لحظات قليلة مرت ببطء شديد حتى ارتطمت بقاع البئر.

الألم ينتشر كالنار في ساقي اليمنى ربما بسبب شيء ما قد اخترق لحمها، أو ربما بسبب كسر مضاعف حطم عظامي إلى ألف قطعة، رأسي تصطدم بجدار البئر في قوة جعلت عقلي يدور، ويرسم دوامات سريالية أمام عيني.

لم أمت بعد.

لكنني كنت واهمًا فالسقطة لم تكن مميتة بأي حال من الأحوال، وهذا يعني أنني سأظل حبيس البئر حتى أقضي نحبي جوعًا وعطشًا وألمًا.

الأسوأ هو تلك الذكرى التي عادت إلى عقلي بقوة، ربما بسبب ارتطام رأسي.

ذكرى عجيبة جعلتني أدرك كم أنا أحمق.

***

نزعت السوار عنها بقوة، وأنا أهتف باكيًا:

- أرجوكِ.. لا تذهبي.. أبقي من أجلي.

رمتني بنظرة غريبة جعلت الرعب يدب في أوصالي؛ فتراجعت بقلق إلى الوراء كفأر يرى الموتَ قِطٌّ زاحف، وأنا أراقبها تقف ببطءٍ وثقة؛ كعنقاء تنهض من رمادها.

اشتعلت عيناها بوميضٍ أحمر مخيف، وهي ترفع ذراعيها إلى أعلى، مطلقة ذلك الزئير الرهيب من حلقها، زئير ردده الكهف بقوة، حتى كاد أن يصيبني بالصمم، ومن فتحات وجهها حدثت أغرب ظاهرة رأيتها على الإطلاق، خيوط من المياه تخرج من فمها وأنفها وحتى عينيها، خيوط طفت في فراغ الكهف لحظات، ثم صعدت إلى أعلى رأسها، مشكلة هيئة سريالية مخيفة.

وسرعان ما انقضت عليّ كالصاعقة.

المياه تتخلل فتحات وجهي في سرعة، وأنا عاجز عن الهرب، أو الإتيان بأية حركة؛ كأن جسدي قد أصابه الشلل.

هنا سمعت دوي ذلك الطلق الناري، وصوت "ممدوح"، وهو يهتف بحدة بعد أن دفعني جانبًا:

- لماذا لم تنتظرني يا أحمق؟

تأملت جسد "سارة" الساكن كالتمثال، وتلك الدماء التي تغرق كتفها؛ فقلت بهلع:

- ماذا فعلت؟

نظر لي بغضبٍ شديد، ولم يُعَقِّبْ، وببطء أعاد وجهه مجددًا يراقب ذلك الشيء المرعب الذي أخذ يحوم في فضاء الكهف، وقد صوب مسدسه ناحيته في تحفزٍ، ثم قال دون أن يلتفت لي:

- حاول أن تأخذها من هنا وتغادر.

عاودت مراقبة جسد "سارة" الساكن وقلت:

- وأنت؟
- سأغادر ورائكما.

هنا لم ينتظر ذلك الشيء كثيرًا، وهجم على جسد "ممدوح" بمنتهى العنف، حتى أن جسده طار إلى الخلف بقوة مرتطمًا بالصخور.

هرعت ناحيته بفزع، وأنا أرى ذلك الشيء يتخلل جسده إلى الداخل كسمكة تقفز في قلب المحيط، بينما أطرافة أخذت تنتفض بعنف كمن أصابه الصرع، وما هي لحظات حتى بدأ جسده في السكون.

obeikandl.com

ظللت حائرًا لحظات ثم حسمت أمري، لا بد من الهرب من هذا المكان بأقصى سرعة. ذلك الشيء صار يحتل جسد "ممدوح"، ولا يعلم إلا الله ماذا سيفعل بنا عند استيقاظه.

هنا جذبت "سارة" من ذراعها، وبدأت رحلة الهرب.

***

لم تكن تحتل جسدي أنا.

شهقت بألم وأنا أدرك فداحة الخطأ الذي ارتكبته، وبأعينٍ متسعةٍ من المفاجأة الرهيبة، تأملت فوهة البئر البعيدة، التي أخذت تُطِلُّ عليّ في صمتٍ مرير.

***

obeikandl.com

المزيرة

قرون خلت، لم يكن الإنسان قد جاء بعد.

قرون خلت في صراع مع قوى أخرى، قتل فيها كلا الطرفين، ولم يتبق منا الكثير.

ليس لنا اسم يحدد هويتنا، وإن كان البعض يعرفوننا بأسماء عديدة أطلقوها بأنفسهم، في محاولة ساذجة لمنحنا وجودًا ما، يثبت أننا نصف حقيقة ونصف خرافة، فهم على الرغم من رؤيتنا لم يصدقوا الحقيقة كلها بعد.

العقل لا يعي.. والعين لا تصدق.. والأساطير تنسج..

أنا الحقيقة والحقيقة أنا.

نتواجد في كل بقعة، في كل أثر، وفي كل تاريخ.

يعرفنا البعض بالنداهة التي تجوب الحقول ليلًا.. ويطلق آخرون علينا اسم أم الشعور التي تقطن الترع.. في اليمن أم الدويس، وفي المغرب عيشة قنديشة.. في البحار الحَطَمة.. وفي الفلاة بانشي.

في الغرب أم الدموع، وذات الرداء الأبيض، وجنية الأسنان.. أسماء عديدة تصب في جنس واحد..

جنسنا.

obeikandl.com

يختلف البعض باختلاف البيئة لكن الأصل واحد.. شجرة سامقة تمتد منها مئات الأفرع والأغصان..

لا هدف لدينا إلا بث الرعب، فهو يمنحنا الغذاء والقوة.

لا هدف إلا اختطاف الأطفال، وترويع المراهقين والشباب.. ربما لأن جنسنا عانى منهم كثيرًا حتى اندثروا، ولم يتبقَّ منا إلا نصفنا الأخر.. الأنثى..

البشر في طريقهم إلى ذلك أيضًا، إذا لم يعوا مكانتها.

إذا امتنعوا عن قهرها واضطهادها ربما نجوا، مما فشلنا في النجاة منه.

الذكور أقوياء حقًا، ومحاولة السيطرة عليهم أشبه بمباراة في فرض القوة تبوء دائمًا بالفشل.. ربما نجحت بعض الوقت، وهذا ما يخدعنا؛ لكنهم سرعان ما يستعيدون سيطرتهم الكاملة، ويطيحون بنا إلى هوة هلاكنا.

هذا ما عانيته، وعانيت آثاره المُدَمِّرَة عند احتلالي جسد الحاكم بأمر الله.. لم تكن قدرتنا يومًا قادرة على هذا؛ لكن طعنة السيف غيرت خواصي، وأمدتني بهذه القدرة الجديدة.

فرحت كثيرًا بانتصاري الساحق في بداية الأمر؛ لكنه كان يراوغ بمهارة، وهذا ما كان يزيدني عندًا.. يصدر أمرًا فأجهضه، يصدر حكمًا فأعكسه.. أنجح كثيرًا وأفشل أكثر.. حتى تم حبسي داخل ذلك البئر اللعين.

كم مر عليّ هناك، حتى صار جسده عظامًا نَخِرَة، لا أستطيع مغادرته بسبب ذلك السوار المسحور.. حبيسة داخل جسده الميت، وحبيسة ذلك البئر، التي نضبت مياهه.

كم مر من السنين وأنا أحاول الخروج، هامسة للعابرين ليلًا حتى عرفوا بوجودي، وأطلقوا ذلك الاسم اللعين "المزيرة".. كم طفلًا قادته الأقدار إليّ حتى أُشْبِعَ جوعي.

حتى جاءت "سارة"، ورأيت حياتها السابقة بالكامل، وقتها عرفت كم أن الأنثى ما زالت تعاني، وتتألم بسبب الرجال؛ لذلك سحقت زوجها وزوجته السابقة دون ذرة واحدة من الشفقة التي لا أدري ما هي.

سنوات قليلة عشتها داخل جسدها الذي كان سهل الإنقياد، الأنثى دائمًا أسهل من الرجل في الإحتلال؛ لذلك كانت غواية إبليس لها، وليست لآدم.

حتى جاء اليوم الذي انكشف فيه أمري، وجاء ذلك الضابط يلاحقني، حاول إصابة الجسد الذي أحتله برصاصاته. كنت أعلم أن أجسادكم هشة؛ لذلك حميتها عن طريق قواي الخاصة.. فكرت جديًا في احتلال جسده؛ لكنني أبدًا لم أنجح في خلع هذا السوار، لذلك لم أجد طريقًا أخر إلا قتله، لا يجب أن يعلم بأمري أي كائنٍ حي.

ومن بعده جاء ذلك الشيخ الذي نصب لي فخًا محكمًا.. لقد عرف بذكائه أنني مخلوق مائي.. فجاء بعَدُوِي السرمدي.. النار.

وقتها أصاب الجسد المضيف دمار هائل بسبب النيران، وفقدت معظم قوتي معها، لم يكن أمامي إلا الهرب داخل ذلك الكهف، والتقوقع في سُبَاتٍ اضطُرِرْتُ له لمدة ربع قرن من زمن البشر، حتى عاد الجسد كما كان.. وقتها تركتها تحيا حياتها التي كانت تعرفها لبرهة من الوقت، حتى تستعيد نشاطها، وتجدد دماء جسدها المتيبس، قبل أن أسود من جديد؛

لكن على ما يبدو أن عقلها كان يحتاج إلى الكثير من الوقت، وهذا ما لم أملكه.. العقل هو وسيلتي المثلى في فرض سلطاني، إنه أشبه بالمقود الذي أحركه، وإذا أصابه خلل ما فقدت معه كل شيء.

البحث عن جسد أخر كانت الوسيلة المُثْلَى؛ لكن ذلك السوار اللعين التي ارتدته هي عن طريق الخطأ، جعل مغادرتي مستحيلة تمامًا.. حتى رأيته يوم أن جاء مقتحمًا الفيلا..

هذا شخص يحبها حقًا.. هالته أكدت هذا، وشجاعته على اقتحام المكان تُثبِتُ الأمر أكثر؛ لذلك كان عليّ استدراجه واستغلال هذا الحب في خداعه.. لكن هل سيأتي مجددًا؟

***

لقد فعلتها بجدارة.. شعرت بخطواته تتعقبني حاملة بعض الخوف والقلق، حتى قادته إليّ، واستطعت إقناعه بخلع ذلك السوار عني.

أخيرًا نجحت.

عدم وجوده على معصمي يعيد لي قواي كاملة، حتى أنني أستطيع مغادرة الجسد، والعودة له في أي وقت أشاء، وتركه في حالة سُبَات مؤقت.. لا يجب أن يستعيد قيادته لنفسه، وإلا فشلت تمامًا في الرجوع إليه.. وقتها لابد من البحث عن مُضِيفٍ جديد، ومعاودة الكرة من البداية.

أستطيع عبور الحواجز، واختراق المنازل عن طريق مواسير المياه، التي هي في كل مكان.

أستطيع التخلص من أعدائي الذين يعرفون قصتي، و الذين عرفتهم من خلال بحر ذكرياته، وشاهدت كيف قص عليهم كل شيء كالأبله.. هذا خطر داهم، لا يجب أن يبقى من يعرف سري، أو طريقة القضاء عليّ؛ لذلك كان أول من قتلته من طلب رؤية السوار.

الرجال أقوياء حقًا، ويجب الخلاص منهم كي أحمي كينونتي.

ما لم أعرفه وقتها أن "أحمد" عند محاولتي احتلاله، سرق جزءً من ذكرياتي، ترك بيننا اتصال فريد من نوعه، ويستطيع بشيء من التركيز رؤية ما أفعله، ومعرفة مكاني.. كنت أستطيع بطبيعة الحال أن أسحقه بسهولة كالبيضة؛ لكنه الوحيد الذي يعرف مكان السوار.

لا يجب أن أترك نقطة ضعفي في يد أحدهم، ولم يكن هناك طريق أخرى إلا إيهامه أنه من يقتل.. لقد فعل الإتصال ذلك ببساطة شديدة، وعليّ فقط وضع رتوش قليلة تترك في نفسه أثر ساحق، كرداء ذلك الطفل الذي قتلته لأستعيد قواي.. كان الأمر سهلًا.. تركت جسد المضيف في حالة سُبَات أمام باب المنزل، ثم اقتحمته كشلال متدفق، وببساطة شديدة – كأنني صاحبة المكان- قمت بفتح الباب مستعيدة جسده مجددًا.. هدفي في البداية كان البحث عن السوار، وعندما فشلت تمامًا في العثور على أي أثر له، تركت الرداء الملوث بالدم؛ لأجعله يفقد ذلك الخيط الرفيع بين الوهم والحقيقة.. بين العقل والجنون.

حتى دفعته إلى الإنتحار، دافنًا معه كل الأسرار التي عرفها عني.

لم يتذكر أن هناك من أنقذه وقتذاك مطلقًا علي جسد "سارة" الرصاص.. كنت في بداية الاستحواذ، وهذا ما جعلني أترك جسدها ضعيفًا دون حماية..

لذلك توقفت عن تنفيذ تلك العملية حتى أمزقه شر مُمَزِّقْ..

لكن هيئته الفارعة راقت لي..

قوته سحرتني..

هذا جسد يجب أن يكون لي..

وكان ما كان.. وقتها عرفت أنه ابن من قتلته قديمًا..

اسمه "ممدوح".

وكان علىّ تفادي أي خطًا هذه المرة؛ لذلك حبسته هناك في قلب الكهف، لا يستطيع الهرب أو الفكاك وقت استعادته السيطرة على جسده، ولم أنسى أن أترك في المقابر جثة ممزقة، ومشوهة ألبستها ثيابه، حتى يدرك الجميع أنه لقي مصرعه، ويتوقفون عن البحث عنه.

عقله مليء بالحوادث المثيرة، ساعدت كثيرًا على ابتكاري لحالات قتلٍ فريدة ومتنوعة.

عمله أفادني كثيرًا.. المكر.. الترقب.. رسم خطط وتنفيذها.. معرفة ألوان شتى من الحوادث والجرائم..

وهو بالضبط ما كنت أحتاجه.. خبرة حياتية بشرية تضاف إلى خبراتي العديدة.

بقى شخص واحد فقط يعرف ماهيتي، ولا بد أن يُزَال من الوجود.

شخص واحد يقبع في أحد غرف تلك المصحة النفسية..

"سارة"

تقدمت ببطء من خلال جسد "ممدوح"، وبيدي يقبع سلاحه الناري العجيب..

لقد تطورت أسلحتهم كثيرًا خلال تلك الفترة الزمنية القصيرة..

ها هي نائمة كالملاك، لا تعي ما حولها.. عقلها تائه يحتاج إلى بعض الوقت كي يستعيد ذكرياته التي طمستها، وقدراته على فهم واستيعاب كل ما حدث.

شعرت بالباب يُفْتَّح بغتة من خلفي، ولم أملك الوقت الكافي للإلتفات، ومعرفة هوية مهاجمي.

يا للآلام الهائلة التي تمزق روحي..

سقطت أرضًا أنازع الألم بسبب اختراق سيف الحاكم لجسدي، والتفتت بعدم فهم إلى من طعنني؛ لتهزني المفاجأة من الأعماق.

لقد كان "أحمد".

واقفًا بقامته النحيلة خلف باب الحجرة، وبيده سيف الحاكم، وعلى شفتيه تلاعبت ابتسامة ما.

حاولت سؤاله كيف عاد مجددًا من قلب البئر، لكن حلقي لم يُطْلِق إلا زمجرة غاضبة.

قاطعني صوته، وكأنه فهم ما أرمي إليه، وقال:

- أعتقد أن في زمنكِ الغابر لم يكن هذا متوفرًا بعد.

قالها، وهو يلوح بهاتفه المحمول.

***

obeikandl.com

الخاتمة

جالت بخاطري الساعات القليلة الماضية، عندما أدركت الخطأ الفادح الذي وقعت فيه، وتوهمي أن المزيرة قامت بتلبس جسدي أنا، ولم أكن أملك وقتها إلا تأنيب نفسي وتقريعها بشدة، خاصة مع حالتي المزرية التي كنت فيها.

رقدت في ألم أنتظر الموت في أية لحظة.

سجين داخل جدران هذا البئر المظلم.

لكن كل هذا انتهى في لحظات، عندما أخذ هاتفي المحمول في الرنين.

هنا أدركت أن حماقتي مضاعفة، الحل كان أسهل مما يجب لذلك ربما لم يَجُلْ بخاطري.

أسرعت بالرد على الهاتف؛ ليأتيني صوت "عمر" وهو يقول بصوتٍ حزين:

- أسف لأنني اتصلت بك في هذا الوقت المتأخر؛ لكنني أعلم أن أسرتك قد سافرت و....

قاطعته بلهفة لأقص عليه ما حدث في كلمات قليلة، أنهيتها بوصف مكان البئر، وطلب عاجل في أن يسرع، ورقدت بعد ذلك أفكر في سبب هذا الخلط الذي حدث لي.

لقد كان هناك اتصال ذهني بيننا على ما أعتقد، وإلا ما كانت هذه الحوادث العجيبة التي فقدت فيها إحساسي بالزمن، هذه حقيقة لا شك فيها بأي حال من الأحوال.

ولكن كيف أستفيد من هذه المعلومة؟

أخذت محاولًا التركيز فيها، ربما استطعت معرفة ما تفكر فيه في هذه اللحظة، أو معرفة خطوتها القادمة، وهنا عرفت بعين الخيال أنها في طريقها إلى المستشفى؛ لتقضي على "سارة" إلى الأبد.

ولا داعي لأن أقول أنني قد عثرت على سيف الحاكم في ركن البئر، على ضوء الكشاف الذي أتى به "عمر" لنجدتي.

***

انطلق الزئير الحاد من بين شفتيها، وقد اشتعلت عيناها بلونٍ أحمرٍ دامٍ؛ فقمت بالتلويح بنصل السيف ناحيتها، وأنا أقول:

- لا تفكري في هذا.

ارتسمت على شفتيها ابتسامة عجيبة، وهي تتأمل ذلك السوار وهو يحيط معصمي، وأدركت في ذكاء أنها تستطيع مغادرة جسد "ممدوح" في سهولة شديدة.

وهنا وبدون انتظار لرد فعلي اندفعت من داخل جسد "ممدوح" الذي تهاوى أرضًا إلى أعلى، حتى صارت هيئتها أشبه بشلال مياه ينهمر في الإتجاه المعاكس.

أسرعت أهجم عليها بسرعة محاولًا طعنها؛ لكنها حامت في فضاء الغرفة لحظات، قبل أن تنقض بسرعة البرق على ذلك الحوض الذي يقع في ركن الحجرة، لتتلاشى داخله إلى الأبد.

لقد هربت اللعينة، ولا يعلم إلا الله إلى أين ذهبت، وماذا ستفعل بنا بعد ذلك؟

هتف "ممدوح" بألم:

- لماذا لم تسجنها داخل جسدي بواسطة هذا السوار يا أحمق؟

هرعت إليه أساعده على الوقوف، وأنا أجيبه:

- لأن هذا كان سيقتلك كذلك.

تحسس مكان الطعنة في كتفه، وقال:

- موتي أفضل من فرارها؟

ابتسمت في خجل، وأنا أقول:

- هذا يحدث فقط في أفلام السينما.. لكن في عالم الواقع سيتم اتهامي بجريمة قتلك، وسأُعْدَمُ بالتأكيد، إلا إذا أثْبَتُّ لهم أنني كنت أقتل مخلوقة شيطانية قادمة من عالم أخر، وهذا على ما يبدو عسير بعض الشيء.
- والآن ماذا؟ هل ستعاود الإنتقام، أم ستسعى لاحتلال أجسادنا من جديد؟

حركت رأسي نافيًا وأنا أقول:

- لا.. لن تستطيع حتى لو حاولت.

سألني بشك:

- ولماذا؟

أجبته بهدوء:

- أولًا: لأنني أرتدي هذا السوار الذي سيمنعها من ذلك.. أما أنت فإصابتك بسيف الجن سيمنعها من احتلال جسدك مرة أخرى، وجسد سارة لا أعتقد أنها قادرة على احتلاله مرة أخرى، وإلا لفعلت هذا دون تردد.. هناك شيء منعها من ذلك.

فقال في حسرة:

- هذا يعني أنها في طريقها لاحتلال جسدٍ أخر؛ لن نعلم ماهيته أبدًا، وسيظل خطرها موجودًا يهدد البشر.

لم أملك ما أقوله حينها؛ لكنه كان مصيب في كل كلمة بالتأكيد.

***

مرت شهور عديدة قبل أن تعود "سارة"إلى سابق عهدها.

ظللت وقتها أداوم على زيارتها حتى شُفِيَت تمامًا، وإن ظلت في عينيها نظرة ما منكسرة بسبب ما عانته طوال السنوات الماضية.

لم اسألها عن شيء؛ فأنا أعلم كل ما مرت به بسبب اختلاط ذكريات المزيرة بعقلي؛ لكنني على الأقل ساندتها في محنتها، وساعدتها بطرق قانونية معقدة على بيع أرض فيلتها، وشراء أخرى جديدة في منطقة التجمع الخامس؛ فهيئتها الشابة كانت تحول دون تمكنها من البيع، لكننا نجحنا رغم ذلك.

كان لابد أن تبتعد نهائيًا عن ذلك المكان، ونحاول تناسيه بأي طريقة ممكنة.

انتظرت فترة حتى جاء الوقت المناسب للبوح بحبي، وطلبها للزواج. وعلى الرغم من صعوبة الموقف فقد وافقت بعد ما رأت مني من مشاعر فياضة، وبعد أن حكيت لها ذكرياتي معها أيام المرحلة الابتدائية.

ابتسمت وقتها، وهي تقول بمرح:

- هذا زواج فريد من نوعه.. لأول مرة في التاريخ تنتظر العروس عريسها حتى يناسبها في السن.

ضحكت كثيرًا من كلماتها، وشعرت بأنها بدأت تعود فعلًا إلى سابق عهدها.

وهذا كفيل بإسعادي إلى الأبد.

***

مر عام كامل على زواجنا، منحتها فيه السعادة على قدر ما أستطيع، وجنينًا أخذ ينمو داخل أحشائها، منتظرًا الخروج إلى عالمنا الهادئ كي يملأه صخبًا.

وقطة صغيرة بيضاء شبيهة بقطتها الضائعة، أخذت تجول داخل أرجاء الفيلا في لهوٍ عابثٍ لذيذ، حتى أتى ذلك اليوم الذي لم تجدها فيه.

كنت وقتها عائدًا ليلًا من عند زيارة شقيقي، تاركًا زوجتي بمفردها داخل الفيلا لترتاح من متاعب الحمل، ومشقة الطريق إلى المقطم بتضاريسه الشوهاء، أضف لهذا خوفها الغريزي من المنطقة التي شهدت أعتى كوابيسها.

تملكني خوفٌ هائل عندما لم أجدها بالداخل.

بحثت طويلًا بلهفة محمومة، وأنا ألوم نفسي على تركها بمفردها عرضة لأي خطر، وما أكثر الأخطار المنتظرة بعد صراعي الرهيب مع "المزيرة"، التي بلا شك لن تنسى ما حدث لها، وستعاود الإنتقام مهما طال الزمن.

خرجت إلى الحديقة بحثًا عنها، ربما كانت تسقي زهرة هنا، أو تشذب شجرة هناك كعادتها؛ لكنني لم ألمح حتى ظلها في أي ركن من أركان الحديقة المظلمة.

وبعد أن كاد قلبي يتوقف من شدة الخوف والقلق عليها، لمحتها تعبر الشارع الهادئ، وهي تحمل قطتها بين ذراعيها.. خرجت لها مسرعًا أحيطها بذراعي، وأنا أقول بلوم:

- أهكذا يا حبيبتي تقلقيني عليك.. لقد كدت أصاب بسكتة قلبية من شدة القلق.

احتضنتني بذراعها الحرة، وهي تقول بخجل:

- لا تقلق يا حبيبي.. لقد خرجت فقط كي أبحث عن تلك العابثة.

تعالى مواء القطة كأنها تحتج على لقب العابثة؛ فضحكت زوجتي وهي تحادثها:

- عابثة وشقية أيضًا.. هل لديكِ اعتراض؟

عاد قلبي ينبض بصورة طبيعية بعد أن اطمأننت عليها، وحملت قطتها عنها قائلًا:

- دعها لي فأنتِ متعبة.

ثم وجهت كلماتي إلى القطة التي انكمشت خوفًا دون سببٍ واضح:

- أما أنتِ فسأقوم بحبسكِ داخل حجرة الفئران.

ضحكت زوجتي كثيرًا من قولي، وكأن هذا عقاب صارم؛ فانتبهت حينها إلى ما تفوهت به، وأخذت أشاركها الضحكات التي ملأت أرجاء الفيلا مرحًا.

***

وهناك.

خلف ستار الظلام، كان يراقبنا بغضبٍ عاتٍ، وحِقْدٍ دفينٍ زوجٌ من الأعين.. عينان حمراوان بلون الدم، لا يشغل صاحبها إلا شيئًا واحدًا.

الإنتقام.

"تمت بحمد الله"

opelikandi.com

شكر خاص

حسام حسين.. هيثم حسن.. لمياء مختار.. أحمد عبد المجيد.. أميرة عبد المنعم.. عزة بندق.. عصام منصور.. منة الله سيد.. محمد عبد القوي مصيلحي.. مصطفى اليماني.. محمد جلال.

obeikandl.com

المَرَاجِع

- رسائل الحاكم بأمر الله (مخطوطة) 408 هـ
- الحاكم بأمر الله - الخليفة المُفْتَرَى عليه.. عبد المنعم ماجد 1961
- سر الحاكم بأمر الله (مسرحية).. علي أحمد باكثير
- الحاكم بأمر الله (خليفة. وإمام. ومُصْلِح).. عارف تامر 1982
- الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية.. محمد عبد الله عنان 1937
- تاريخ الدولة الفاطمية.. حسن إبراهيم حسن 1958

obeikandl.com

صدر للكاتب

- **خريف بنكهة الفانيلا (مجموعة قصصية).**
- **عويل الأشباح (مجموعة قصصية).**
- **خطوات ليلية (مجموعة قصصية) - طبعة ثالثة.**
- **ظلال الخوف (الأعمال الكاملة) - طبعة رابعة.**

<u>شارك بالكتابة في</u>

- **مخاوف.**
- **جَبَّانَةُ الأجانب.**
- **كوكتيل اكتب.. العدد الأول.**

obeikandl.com

قالوا عن أعماله

بعض القصص مرعبة فعلًا، مثل قصة (أحتاج إلى رداءٍ آخر). على أن قصة (صحراء الجنون) فريدة فعلًا من نوعها، وتتعامل مع عالمٍ بِكرٍ مجهول أمامنا تمامًا .. يُذَكِّرُنِي نوعًا بجو إبراهيم الكوني في قصصه مع الطوارق والأمازيج ..عالم ساحر ولغة غريبة لم يتطرق لها كاتب مصري من قبل .هذا عاشق حقيقي للرعب يقدم لنا بداياته الواعدة، وما زال أمامه الكثير ليقدمه لنا.

د. أحمد خالد توفيق

عن مجموعة "خطوات ليلية"

****

قابلت الكاتب/ علاء محمود لأول مرة عام 2006 فتعلمت منه الكثير عن الأدب بشكلٍ عام، وعن أدب الرعب بشكلٍ خاص.. في هذه المجموعة أعترف أنني ما زلت أتعلم منه الكثير.. هذه المجموعة القصصية مثال حي لأدب الرعب المصري، أعدكم أنكم ستستمتعون بها كما استمتعت أنا بها أيضًا.

أ. حسن الجندي

عن مجموعة "ظلال الخوف"

****

obeikandi.com

المجموعة مُثِيرَة ومُشَوِّقَة للغاية. لاحظت براعة شديدة في الوصف، وصياغة الخوف بعبارات تبدو رومانسية أحيانا، وهو ما يميز الكاتب، الذي لا يعتمد على عنصر الإثارة فقط. الأسلوب رشيق ويدل على تمكن كبير من اللغة، وأنا واثق أنه سيكون للأستاذ "علاء محمود" شأنٌ كبيرٌ في عالم أدب الرعب.

أ. شريف شوقي

عن مجموعة "ظلال الخوف"

****

حقيقة استمتعت بمجموعة "خطوات ليلية"، وأعجبتني الأفكار البعيدة عن الإستهلاك، وكذلك مصريتها الشديدة، وعدم الإنسياق وراء شهوة اللجوء للأسماء والأماكن الأجنبية في روايات الرعب.

أ. خالد الصفتي
عن مجموعة "خطوات ليلية"

****

يذكرني أسلوب علاء محمود وفكره بكتابة برام ستوكر، الذي يتخذ الرعب ثوبًا، يُلْبِسَهُ لأفكارٍ إنسانيةٍ واجتماعيةٍ وفلسفيةٍ، مما يجعل العمل أكبر من مجرد بعض من إرضاء شهوة الخوف والإثارة لدى القارئ،

obeikandl.com

وليُطَعِّمَ نفسيته بما تحتاج من رؤى إنسانية، بينما يستمتع بأجواءٍ يشتهيها.

د. إيمان الدواخلي

عن مجموعة "خطوات ليلية"

****

شاب يحاول تقديم صورة جديدة من أدب الرعب، بإضافة جانب نفسي واجتماعي وفلسفي إليه, ففي أحدث أعماله المجموعة القصصية "خطوات ليلية" استطاع أن يقدم تنويعة بين الأساليب السردية والبيئة المكانية, حتى اللغة تنوعت بين العامية والشاعرية, إنه الروائي علاء محمود.

جريدة السياسة الكويتية

عن مجموعة "خطوات ليلية"

obeikandl.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

Noon_publishing@yahoo.com
ت -02 35860372- 011-27772007

obeikandi.com